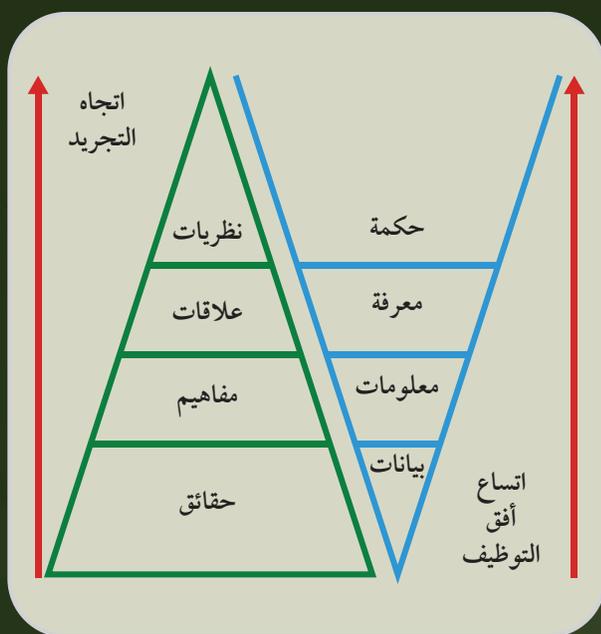


البناء الفكري

مفهومه ومستوياته وخرائطه



د. فتحي حسن ملكاوي



١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
1401AH - 1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

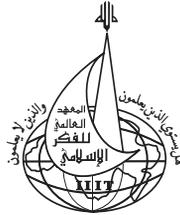
الْبِنَاءُ الْفِكْرِيُّ

مَفْهُومُهُ وَمُسْتَوِيَاتُهُ وَخَرَائِطُهُ

البناءُ الفِكرِيُّ

مَفْهُومُهُ وَمُسْتَوِيَاتُهُ وَخَرَائِطُهُ

د. فتحي حسن ملكاوي



١٤٠١هـ - ١٩٨١م
1401AH - 1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي



© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية

الطبعة الأولى 1436هـ / 2015م

الْبِنَاءُ الْفِكْرِيُّ، مَفْهُومُهُ وَمُسْتَوَاتُهُ وَخَرَائِطُهُ
تأليف: د. فتحي حسن ملكاوي

موضوع الكتاب 1- الفكر الإسلامي 2- البناء الفكري
3- التفكير 4- خرائط الأفكار
5- اللغة والأفكار 6- المراكز الفكرية

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2014 / 10 / 4839)

ردمك (ISBN): 978-1-56564-629-2

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

The International Institute of Islamic Thought

P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA

Tel: (1-703) 471 1133, Fax: (1-703) 471 3922

www.iiit.org / iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان

ص.ب 9489 الرمز البريدي 11191

هاتف: +962 6 4611421 فاكس: +962 6 4611420

www.iiitjordan.org

مكتب التوزيع في العالم العربي

بيروت - لبنان

هاتف: 009611707361 - فاكس: 009611311183

www.eiiit.org / info@eiiit.org

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

المقدمة ١١

الفصل الأول

الفكرُ في المصادر الإسلامية

- أولاً: الفكر في القرآن الكريم والسنة النبوية ٢٢
- ثانياً: الفكر في التراث الإسلامي ٢٧
- ثالثاً: الفكر توحيد وتزكية وعمران ٣٨
- رابعاً: الفكر إيمان وعلم وعمل ٤٣
- خامساً: مصطلح الفكر الإسلامي ٥٥
- سادساً: الفكر والعاطفة ٦٠

الفصل الثاني

البناءُ الفكريُّ ومُسْتَوَاتُهُ

- أولاً: البناء الفكري، بناءٌ ولكنه في الفكر ٧٤
- ثانياً: مراحل بناء الفكر ومستوياته ٧٨
- ثالثاً: حوار العلم والفكر ٨٧
- رابعاً: حركة الفكر وفكر الحركة ٩٧
- خامساً: المدارس الفكرية ١٠٨

الفصل الثالث

البناء الفكري للمجتمع والأمة

- أولاً: الهوية الفكرية ١٢٤
- ثانياً: البناء الفكري بين الجمود والتجدد ١٢٨
- ثالثاً: تسويق الأفكار ١٣٥
- رابعاً: حاجة الأمة إلى القيادة العلمية والفكرية ١٣٨

الفصل الرابع

خرائط البناء الفكري الإسلامي

- أولاً: خريطة مصادر البناء الفكري ١٥٧
- ثانياً: خريطة موضوعات البناء الفكري ١٥٩
- ثالثاً: خريطة أدوات البناء الفكري ووسائله ١٦٦
- رابعاً: خريطة قياس البناء الفكري ١٦٩
- خامساً: خرائط تاريخ الأفكار ١٧٨
- سادساً: خرائط الفكر الجغرافي، وجغرافية الفكر ١٨٣
- سابعاً: ضوابط قبول الأفكار ١٩٣

الفصل الخامس

الفكر واللغة

- أولاً: البعد التاريخي لعلاقة الفكر واللغة ٢٠٥
- ثانياً: البيان بين الفكر واللغة ٢١٢

٢١٨	ثالثاً: نظريات العلاقة بين الفكر واللغة.....
٢٣٠	رابعاً: الفكر والترقي في المهارات اللغوية.....
٢٣٣	خامساً: العبث الفكري واللغوي.....
٢٣٥	سادساً: الكلام وحديث النفس.....
٢٣٩	سابعاً: الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية وأثرهما في الفكر والثقافة والهوية.....

الفصل السادس

مراكز إنتاج الفكر، ومختبرات بناء الأفكار

٢٥٠	أولاً: تطوير الأفكار بين الإبداع الفردي والعمل المؤسسي.....
٢٥٣	ثانياً: أهمية التخصص والتفرغ والعمل في فرق البحث.....
٢٦٠	ثالثاً: نشأة مراكز البحث وأهدافها واتجاهات عملها.....
٢٧٠	رابعاً: البحث في موضوع مراكز البحث.....
٢٨١	خامساً: مراكز البحث والإعلام.....
٢٨٦	سادساً: مراكز البحوث في العالم العربي.....
٢٩٤	سابعاً: قضايا المسلمين في مراكز البحث الغربية.....
٣٠٠	ثامناً: تعريف ببعض مراكز البحث في العالم.....
٣١٣	الخاتمة.....
٣١٧	المراجع.....
٣٣٥	الكشاف.....

المقدمة

البناء الفكري: مفهومه ومستوياته وخرائطه

مَنْ هم هؤلاء الذين يتحدثون عن الفكر هذه الأيام؟ ولماذا يتحدثون؟ وما الذي يقصدونه بالفكر؟ وما موقع الفكر بين مفاهيم العلم، والفقهاء، والثقافة، والفلسفة، والأدب؟ وأين نجد الفكر في برامج التعليم المدرسي والجامعي؟ وكيف نفهم تطور مفهوم الفكر في التراث الإسلامي؟ وما البرنامج الذي يمكن تقديمه لمن يرغب في أن ينمو بناؤه الفكري حتى يصبح مفكراً؟! وكيف يمكن أن نبنى اختباراً نقيس به مستوى البناء الفكري لفردٍ أو فئة أو مجتمع؟ وما علاقة الفكر باللغة؟ وما المقصود بالمدارس الفكرية؟

هذه الأسئلة وأمثالها، تتوارد إلى الخاطر عند ملاحظة التزايد الملحوظ في عدد الباحثين عن "كتابات فكرية" في أوساط الشباب المسلم في العقدين الأخيرين من الزمن، ويبدو أنّ من دوافع هذا البحث عند هؤلاء الشباب، أنهم أخذوا يضيّقون ذرعاً بالتوجّه العلمي - الفقهي، أو التوجّه الثقافي - الحركي، اللذين غلبا على جهود قطاعات واسعة من الشباب في الحقبة التي عُرفت بالصحوّة الإسلامية في الربع الأخير من القرن العشرين. وهذه الحقبة نفسها، هي كذلك الحقبة التي ظهر فيها عدد من المشاريع الفكرية في الدائرة الإسلامية، ولم يُعرف أصحابها في المؤسسات التقليدية للعلوم الإسلامية، ولم يعرفوا كذلك في الدوائر التقليدية للتنظيمات والحركات الإسلامية.

هل كان سعيُّ الشباب في العقدين الأخيرين في البحث عن "كتابات فكرية" إسلامية مساوفاً كذلك للتوجهات الملحوظة لتزايد الاهتمام ببرامج "التنمية البشرية"؟ ومن ثمّ لُمست الحاجةُ إلى ضرورة تضمين هذه البرامج مادة في "التنمية الفكرية"؟

أليس مما يلفتُ انتباهَ المتابع للشأن الفكري في العالم العربي أنّ نسبةً ملحوظةً من الشباب في هذا العالم قد أخذوا يضيقون ذرعاً بالواقع القائم في بلادهم؟ وهو الواقع الذي يتصف باستثثار النخب السياسية والدينية والإعلامية في التأثير على الحالة الفكرية العامة، بصورة تكرّس أزمة الأمة، وتعمّق حالة اليأس والإحباط، عن طريق الاستمرار في الخلط بين ثنائيات التراث والحداثة، والاستقلال والتبعية، والتخلّف والتقدّم، والهوية والعولمة، والدينية والمدنية، وغيرها من الثنائيات!

ليس من اليسير تقديم إجابات محددة عن الأسئلة الكثيرة التي ترد إلى خاطر في مسألة الفكر، ومع ذلك فإنه يمكن القول إنّ هذا الشباب قد ملّ حالة التيه التي تعاني منها الأمة منذ القرن التاسع عشر، ونخبها الفكرية لا تزال تعيد إنتاج سؤال النهضة، دون أن تلوح في الأفق بوادر الإجابة العملية عن هذا السؤال.

وفي الوقت نفسه ظهرت في ربيع القرن الماضي محاولات عدة لتقديم ألوان من التعبئة النفسية، تقدمها مؤسسات ومراكز في صورة برامج تدريبية، على شاكلة ما ظهر منها قبل ذلك في الغرب، مما عُرف ببرامج التنمية البشرية. وقد اختارت بعض هذه المؤسسات قضايا النهضة، أو البناء الحضاري، أو التربية الفكرية، أو مناهج التفكير... إلخ، لكي يتمحور عمل برنامج المؤسسة وعملها حول بث الوعي بالقضية، وغرس الأمل في إمكانية تحقيقها، ومن ثم الاستعداد في السير نحوها. وأصبح موضوع البناء الفكري مطلباً واضحاً للشباب الطامح إلى تغيير الواقع القائم، وحاولت المراكز والمعاهد التدريبية التي انتشرت بسرعة ملحوظة في أرجاء العالم العربي تقديم برامج أكاديمية ودورات تدريبية في البناء الفكري.

ولا نعدم أن نجد ضمن هذه الحركة جهوداً مخلصه، تقوم بها شخصيات عدّت مسألة النهوض الحضاري للأمة في إطارها الإسلامي رسالتها في حياتها،

واجتهدت في صياغة برامج تدريبية لتحقيق هذه الرسالة، ومع ذلك فإنَّ البعد التجاري الاستثماري الذي تعتمده مؤسسات عدة أخرى يكاد يطغى على أهداف كثير من هذه المؤسسات وعلى البرامج التي تقدمها.

يحاول هذا الكتاب تقديم فكرة مكثفة للغاية عن موضوع البناء الفكري، ربما تصلح أساساً لتكوين مدخل إلى الموضوع، أو رسم خريطة للعناصر الرئيسة فيه. وسوف يجد القارئ لهذا الكتاب أن بعض المفاهيم أو بعض الأفكار قد استوعبَتْها كتب كثيرة العدد، وكبيرة الحجم، ومتعددة الأمثلة، ودقيقة التفاصيل؛ بينما يلاحظ القارئ أنَّ بعض المفاهيم أو بعض الأفكار عرضت في صورة إشارات عابرة، لكنها مهمة، لا سيَّما إذا لم يتيسر للقارئ الحصول على مراجع للاستزادة من فهمها وتطويرها، وبذلك نكون أمام فرصة متاحة لتحديد موضوعات تحتاج إلى التفكير والبحث والدراسة، ونكون أمام أمثلة متعددة على فرص حقيقية لممارسة البناء الفكري المنشود. ولعل هذا هو شأن الكتابة في أي موضوع، لا سيَّما عندما تكون الكتابة عن عمليات التفكير، وجهود بناء الفكر.

لقد كان من منهجيتنا في هذا الكتاب عدم الحرص على البحث عن تعريف محدد "جامع مانع" لأيِّ من المفاهيم التي تعرضنا لها. وآثرنا في المقابل أن نعالج معاني المفهوم في سياق الحقل الدلالي الذي ينتسب إليه، وذلك ليكون همُّ القارئ ليس محصوراً في تذكُّر نصِّ محدد للمعنى، وإنما يتَّسع همُّه لاكتساب قدرٍ من الفهم والاستيعاب، والتعبير عن هذا الفهم والاستيعاب بلغة حرة مفتوحة على التنوع في الصياغة اللغوية والتنوع في زوايا النظر، وربما التنوع في صور الانفعال الوجداني.

وكان من منهجيتنا كذلك أننا تعمدنا عدم الإكثار من ذكر الأمثلة على أسماء الأشخاص أو الكُتَّاب أو المؤسسات والجماعات، حتى عندما يلجُح المقام على التمثيل للموضوع، لأنَّنا تركنا هذه المهمة للقارئ، ليمارس قدرًا من

البناء الفكري في هذه المواقف، فالإكثار من ذكر الأمثلة اقتحام للبنية الفكرية للقارئ لملاء فراغات هذه البنية بما يريد الكاتب، ونحن نريد للقارئ أن يقوم بعملية البناء هذه، فيقوم بعرض ما يعلمه من الأمثلة ذات الصلة المباشرة أو القريبة، ثم المقارنة والموازنة بينها، حتى يقع المثال في موقعه المناسب. وقد لا يجد المثال المناسب حاضراً في الذهن، أو قد لا يكون عنصراً من عناصر البناء الفكري الراهن عنده، فيكون ذلك دعوةً للتفكير، وفرصة لتوظيف الوسائل المناسبة لاستكمال البناء الفكري المنشود.^(١)

وقد يكون من المناسب التنبيه إلى أننا ربما أسرفنا في الإحالة إلى مراجع ومؤلفين، إما لتوثيق مصدر الفكرة، وفي هذه الحالات، كان لا بد من الإشارة إلى مكان الفكرة في المرجع؛ أي الصفحة أو الصفحات، أو لغرض الاستزادة من المعرفة عن الموضوع، فتكون الإحالة إلى المرجع في مجمله. وفي الحالتين فإننا ندعو القارئ الكريم إلى الاطلاع عن هذه المراجع بقدر من التنبه إلى ما قد يكون فيها من مشكلات، والقراءة بطريقة نقدية، ففي أي من هذه المراجع بعض الفائدة، ولكننا قلما نجد مرجعاً يخلو من مشكلات، لا سيما عدم الضبط والتحديد في استخدام المصطلحات، أو عدم الدقة في استيعاب المادة في سياق المجال المعرفي الذي تنتسب إليه، وبخاصة عندما لا يكون المؤلف متخصصاً في علم النفس أو الفلسفة، ويقتبس من كتب علم النفس أو الفلسفة

(١) ثمة سبب آخر يمكن أن يرد على الخاطر في المقام الذي يحسن فيه التجريد والتعميم بدلاً من ذكر أسماء الأشخاص والمؤسسات، تمثيلاً على الفكرة، لا سيما حين يكون الحديث في عالم الأفكار. ونذكر في هذا المقام المقولة المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتعد من قواعد توثيق الأفكار "الرجال يعرفون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال"، كما نتذكر مقولة ابن حزم: "فاغفر لي الكناية عن الأسماء، فهي إما عورة لا نستجيز كشفها، وإما نحفظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً، وبحسبي أن أسمى من لا ضرر في تسميته، ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره، إما لإشهار لا يغني عن الطي وترك التبيين، وإما لرضى من المخبر عنه بظهور خبره، وقلة إنكار منه لقله." انظر في ذلك:

- ابن حزم، أبو محمد علي بن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ). طوق الحمامة في الألفه والآلاف، عمان: دار الإسراء، ٢٠٠٥م، ص ١٣.

أفكاراً لا تخلو من التناقض فيما بينها، أو التناقض مع الفكرة الكلية، أو رؤية العالم التي يحاول المؤلف أن ينطلق منها.

إن أصل هذا الكتاب مجموعة من الأفكار التي طُلب إليّ عرضها -عفو الخاطر- على طلبة أحد مراكز التدريب الفكري. ولكنها كما يبدو أثارت اهتمام مجموعات أخرى من المهتمين ببرامج التنمية البشرية وتمكين الشباب، ولذلك تكرر عرضها عدة مرات، وكانت هذه الأفكار تتبلور مرةً بعد مرة، وتتزايد الحاجة إلى تدوينها، حتى وصلت إلى هذا الحد، الذي نرجو أن يكون في نشره بعض الفائدة. ومع ذلك فإن إحساس المؤلف -وربما كل مؤلف- هو الإحساس ذاته الذي عبر عنه أستاذ البلغاء، عبد الرحيم البيساني العسقلاني (المتوفى عام ٥٩٦هـ)، المعروف باسم "القاضي الفاضل"، وهو من مستشاري صلاح الدين الأيوبي. وقد كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني، وكان بينهما صداقة، معترداً عن كلام استدركه عليه: "إنه قد وقع لي شيء، وما أدري أوقع لك أم لا؟ وما أنا أخبرك به، وذلك أنني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابه في يومه، إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يُستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جُلّة البشر."^(١)

لقد قرأ مادة هذا الكتاب أكثر من شخص، وقدّم كل واحدٍ منهم ملحوظاتٍ أسهمت في الانتقال بالمادة إلى هذا المستوى. كذلك قدمت المادة في عدد من المحاضرات والحلقات النقاشية، وفي كل مرة كانت مناقشات وأسئلة الحضور تغني المادة وتزيد من بلورة أفكارها. ولذلك يستحق جميع هؤلاء الشكر الجزيل. على أنني أقدم شكراً خاصاً لعدد من الزملاء ومنهم الدكتور

(١) تكررت نسبة هذا القول للعماد الأصفهاني. وربما كان مصدر ذلك أن محقق كتاب "مُعجم الأدباء" لياقوت الحموي، نسب هذه العبارة للأصفهاني، ووضعها على غلاف كل جزء من أجزاء الكتاب، ثم تداولها الناس، وكثير منهم لا يزالون يتداولونها على هذا الأساس. انظر في تحقيق المسألة: - حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جليبي (ت ١٠٦٧هـ). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ت.)، ج ١، ص ١٨.

رائد عكاشة، والدكتور عاطف فضل، والدكتور خالد الصمدي، والدكتور عبد الرحمن النقيب، والدكتور عبد الله عطا، الذين قدموا ملحوظات وأسئلة مفيدة، والأستاذ إيصال حوامدة الذي كان سريعاً في توفير المراجع المطلوبة، حيثما ظهرت حاجتي إلى واحد منها.

أسأل الله أن ينفعني بما قدمت ويغفر لي ما به قصرت، ويعين بعض القراء على إدراك أهمية موضوع الكتاب، والسعي في تطوير أفكاره.

والحمد لله رب العالمين.

تمرين تمهيدي

هذا الكتاب يختص بالفكر. ويحلو لفئات من الناس أن يجعلوا الفكر وصفاً لمفردات عدة: مثل العطاء الفكري، والغزو الفكري، والمعالجة الفكرية. حاول عمل ما يأتي:

١- فكر في عبارات مماثلة سمعتها، أو قرأتها، أو يمكنك الآن أن تصوغها. اكتب أكبر عدد ممكن من العبارات. ليكن هدفك الوصول إلى مائة عبارة.

٢- صنف العبارات التي كتبتها وفق عدد من المعايير

أ- معيار القيمة: محمودة (مرغوبة)، أو مذمومة (مردولة)

ب- معيار الوضوح: ذات دلالة واضحة أو غامضة

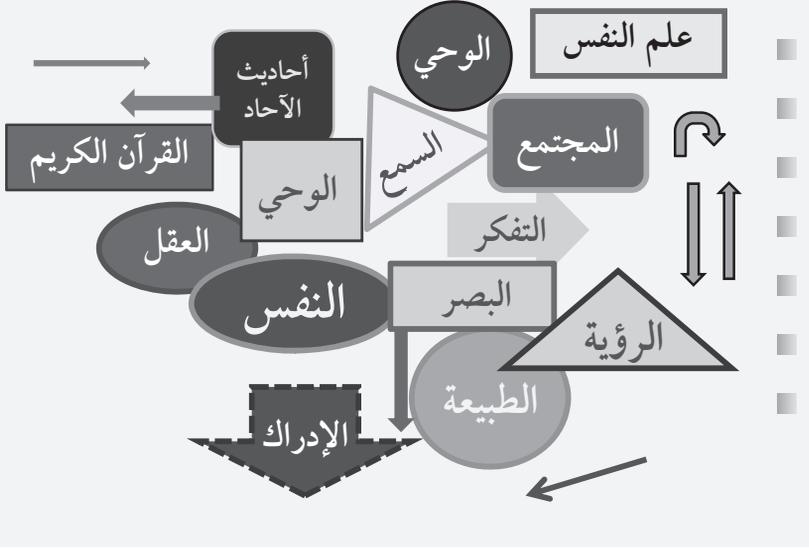
ت- معيار الاستعمال: كثيراً أو قليلاً

ث- ...إلخ. فكر في معايير أخرى، واستعملها في مزيد من طرق التصنيف

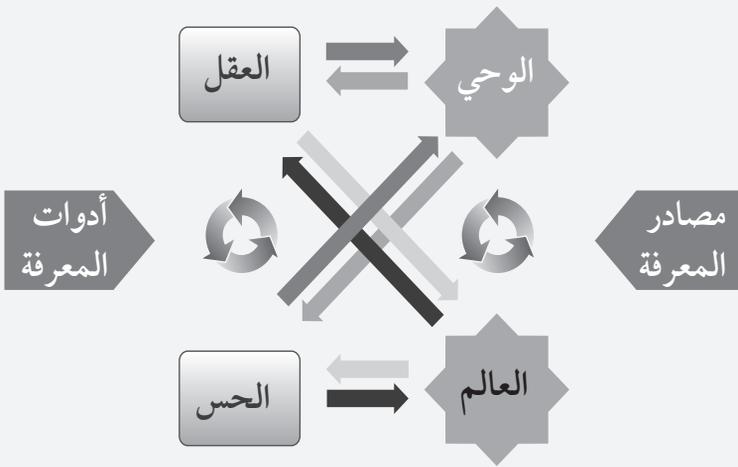
٣- ما أهمية هذا التمرين؟

٤- بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب، تستطيع أن تعود إلى هذا التمرين وتكتشف عدد العبارات التي لم ترد الإشارة إليها في الكتاب.

ما هذا؟! 



نموذج (معادلة) التكامل المعرفي



الفصل الأول

الفكرُ في المصادر الإسلامية

مقدمة

أولاً: الفكر في القرآن الكريم والسنة النبوية

ثانياً: الفكر في التراث الإسلامي

ثالثاً: الفكر توحيد وتزكية وعمران

رابعاً: الفكر إيمان وعلم وعمل

خامساً: مصطلح الفكر الإسلامي

سادساً: الفكر والعاطفة

خاتمة

الفكر في المصادر الإسلامية

مقدمة:

لعلّ من المناسب أن نبدأ الفصل الأول من هذا الكتاب "البناء الفكري" بالتأكيد على أننا نتحدث عن الفكر الإسلامي، لذلك فإنّ مرجعيتنا في هذا الحديث هي المرجعية الإسلامية في مصادرها التأسيسية في القرآن الكريم والسنة النبوية أولاً، ثم في فهم علماء الإسلام عبر العصور للقرآن والسنة، وهو ما نسميه التراث الإسلامي. مؤجلين أيّ ذكر لفهم آخر إلى فصول لاحقة. وحتى لا تنحصر دلالة الفكر إلى شيء مما جرى التأكيد عليه في التراث الإسلامي من انشغال القلب بتوحيد الله سبحانه والزهد بالدنيا، عن عمران الأرض بشريعة الله، وتحقيق الأمن والعدل فيها، جاء الاستدراك على بعض صور الفهم التي ربما توحى بها بعض نصوص التراث، للتأكيد على أنّ تلك النصوص كتبت في ظل المجتمع المسلم، حيث كانت تتكامل فيه حقائق التوحيد والتزكية والعمران، وكان لكلّ مجال من هذه المجالات رواده ومختصوه. ثم تطرق الفصل إلى مصطلح الفكر الإسلامي بوصفه مصطلحاً حديثاً، كانت ألفاظ العلم والفقهاء تغني عنه سابقاً، رغم أن لفظ الفكر والتفكير كان رائجاً في جميع علوم الملة. واختتم الفصل بلمحة موجزة عن الفكر والعاطفة، للتأكيد على أنّ الأفكار لا تكون مجردة عن المشاعر، فالفكر البشري هو وعي الإنسان بذاته وبمحيطه، ومشاعر الإنسان عنصر أساس من عناصر هذه الذات لها موقعها في اتخاذ أي قرار أو القيام بأي عمل.

سوف يلاحظ القارئ أننا لم نشغل كثيراً بمعاجم اللغة وقواميسها، لبيان دلالة الألفاظ التي تعرّضنا لها في هذا الفصل؛ ذلك لأننا نرى أن

لغة القرآن الكريم تكفي في ذاتها لبيان الدلالة التي توحى بها هذه اللغة، ونحن نحتاج في كثير من الأحيان معاجم اللغة لفهم اللغة البشرية أكثر مما نحتاجها لفهم لغة القرآن الكريم، ﴿وَلَقَدْ سَرَّنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

وقد قصرنا الحديث في هذا الفصل على مفهوم الفكر والمفاهيم ذات العلاقة به، ونأمل أن يكون ذلك مقدمة مناسبة للحديث عن البناء الفكري في الفصل الآتي.

أولاً: الفكر في القرآن الكريم والسنة النبوية

الفِكرُ تعبيرٌ عن فعلٍ يقومُ به الإنسانُ، وهو اسمٌ لثمرة هذا الفعل؛ فهو من جهةٍ: فعلٌ العقلِ، أو إعمالُ النظرِ، أو عمليةُ التفكيرِ، وهو الاسم الذي يطلق على نتيجة الفعل وثمرته، وأصله الفعل الثلاثي (فَكَرَ) ومعناه أَعْمَلَ العقلَ، وَفَكَرَ يُفَكِّرُ تفكيراً، أي: مارس نشاطه الذهني، فهو مُفَكِّرٌ، والمفعولُ مفكَّرٌ فيه، وَفَكَرَ في الأمرِ، وتفَكَّرَ فيه بمعنى تأمَّل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨].

والفِكرُ جمعه أفكارٌ، والتفكيرُ هو عمليةُ إعمالِ العقلِ في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهولٍ، وقد وردت مادة الفكر في القرآن الكريم في ثمانية عشر موضعاً في خمس صيغ، كلها في صيغة الفعل. وهي على النحو الآتي:

- فَكَّرَ، مرة واحدة (المدثر: ١٨).
- يَتَفَكَّرُوا، مرتين (الأعراف: ١٨٤)، (الروم: ٨).
- تَتَفَكَّرُوا، مرة واحدة (سبأ: ٤٦).
- يَتَفَكَّرُونَ، إحدى عشرة مرة، (آل عمران: ١٩١)، (الأعراف: ١٧٦)، (يونس: ٢٤)، (الرعد: ٣)، (النحل: ١١، ٤٤، ٦٩)، (الروم: ٢١)، (الزمر: ٤٢)، (الجاثية: ١٣)، (الحشر: ٢١).
- تَتَفَكَّرُونَ، ثلاث مرات، (البقرة: ٢١٩، ٢٦٦)، (الأنعام: ٥٠).

وواضح أن التفكر بالتشديد لا يعني مجرد ورود الخاطر في الذهن، بالصورة العادية، وإنما يعني: الوعي، والمتابعة، والمعاودة. يقول ابن عاشور في تفسيره: "والتفكر: تكلف الفكرة، وهو معالجة الفكر ومعاودة التدبر في دلالة الأدلة على الحقائق." (١)

ونكتفي في هذا المقام بالتذكير بقوله سبحانه: ﴿... كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]. ففيها بيان أن التفكر لا يقتصر على أمور الآخرة وما يتصل بعلاقة الإنسان بربه طلباً للأجر والثواب في الآخرة، وإنما يكون في مسائل الدنيا كذلك، مما يعود بالخير على الفرد والمجتمع والأمة في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة. يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ليحصل للأمة تفكير وعلم في أمور الدنيا وأمور الآخرة، لأن التفكر مطروف في الدنيا والآخرة، فتقدير المضاف لازم بقريته قوله: ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ إذ لا معنى لوقوع التفكر يوم القيامة، فلو اقتصر على بيان الحظر والوجوب، والثواب والعقاب لكان بياناً للتفكر في أمور الآخرة خاصة، ولو اقتصر على بيان المنافع والمضار، بأن قيل: قل فيهما نفع وضرر، لكان بياناً للتفكر في أمور الدنيا خاصة، ولكن ذكر المصالح والمفاسد والثواب والعقاب تذكيراً بمصلحتي الدارين، وفي هذا تنويه بشأن إصلاح أمور الأمة في الدنيا." (٢)

كما ورد معنى الفكر والتفكر في مواضع كثيرة أخرى بصيغة الفعل كذلك، ولكن بألفاظ أخرى مثل: التدبر والاعتبار، والعقل، والنظر، نكتفي بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتٌ أَنْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. قال الرازي في تفسيره لهذه الآية: "اعلم أنه تعالى لما حكى عن المنافقين أنواع مكرهم وكيدهم، وكان كل ذلك لأجل أنهم ما كانوا يعتقدون كونه محققاً في ادعاء الرسالة صادقاً فيه، بل كانوا يعتقدون أنه مُفْتَرٍ متخرّص، فلا جرم أمرهم

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤، ج ٢٤ ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ج ٢ ص ٢٥٣.

الله تعالى بأن ينظروا ويتفكروا في الدلائل الدالة على صحة نبوته... التدبير والتدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور." (١) وقال الشوكاني في فتح القدير: "أفلاً يتدبرون: للإنكار، والفاء للعطف على مقدر؛ أي: أيُعْرَضُونَ عن القرآن فلا يتدبرونه، يقال: تدبّرت الشيء؛ تفكرت في عاقبته وتأمّلته، ثم استعمل في كل تأمل، والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته، ودلت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] على وجوب التدبر للقرآن ليعرف معناه." (٢) وقال محمد رشيد رضا في تفسير المنار: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ التدبر: هو النظر في أدبار الأمور وعواقبها، وتدبر الكلام: هو النظر والتفكر في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها، وعاقبة العامل به والمخالف له." (٣)

وبإيجاز شديد، يمكن أن نستنتج من مجمل آيات القرآن الكريم الواردة في التفكر مجموعة من الدلالات المحددة، تتضمن أربعة عناصر أساسية هي عملية بذل الجهد العقلي، والطريقة التي يتم فيها الجهد المبذول، والموضوع أو المادة التي تكون موضوع التفكير، والهدف أو النتيجة المتحققة من التفكير.

وبعبارة أخرى، نميّز في عناصر التفكير:

- ١- عملية بذل الجهد الفكري، أو إعمال الفكر والعقل في أمور معلومة، لتحقيق أهداف وغايات ومقاصد محددة جديدة.
- ٢- وهو عملية تتم بتكرار الانشغال بالهم الفكري ومعاودته ومواصلته،

(١) الرازي، فخر الدين محمد. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، بيروت: دار الفكر، ١، ١٩٨١م، ج ١٠، ص ٢٠١.

(٢) الشوكاني، محمد بن علي. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، المنصورة: دار الوفاء، ط ١، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٧٨١.

(٣) رضا، محمد رشيد. تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، بيروت: دار المعرفة، ط ٢، ١٩٧٣م، ج ٥، ص ٢٨٧.

حتى تتحقق النتائج المرجوة.

٣- وثمة مادة للتفكير يلزم فيها استجماع الذهن والخاطر على عناصرها، وتفاصيل موضوعها ودقائقه.

٤- والمهم هو نتيجة التفكير، وذلك هو تحقق الهدف المنشود من أعمال الفكر، ومما ينطوي عليه الهدف الاعتبار أو أخذ العبرة، وهي كسب جديد في العلم، وكسب في العمل بموضوع العلم.

أما عن مادة الفكر في الحديث النبوي الشريف، فقد وردت في غير ما موضع من كتب الصحاح والسنن والمسائيد، جاءت في بعضها بنص القرآن، وتنوع معانيها بين لفظ العقل والنظر والتدبر، فقد ورد لفظ الفكر في تصنف المحدث ولغته، في كُتِبَ وأبواب كلِّ من صحيح البخاري وصحيح مسلم، وغيرهما من كتب الحديث كالسنن والمسائيد.^(١) كما ورد اللفظ على لسان الراوي من الصحابة، وورد بنص الآيات القرآنية الذي يذكرها الحديث الشريف.^(٢) وكما هو

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٢م، كتاب العمل في الصلاة، باب يفكر الرجل الشيء في الصلاة، ص ٢٩٥ حديث رقم (١١٢١)، وقد جعل البخاري عنوان الباب بهذه الصورة، وبدأ الباب بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة، ثم روى حديث عقبه بن الحارث رضي الله عنه قال: "صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم العصر، فلما سلم قام سريعاً دخل على بيت بعض نسائه، ثم خرج ورأى ما في وجوه القوم من تعجبهم لسرعته، فقال: ذكرت - وأنا في الصلاة - تيراً عندنا فكرهت أن يمسي - أو يبيت - عندنا، فأمرت بقسمته."

(٢) وفي صحيح ابن حبان عن عطاء قال: ".. وفيه قال عبيد ابن عمير لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وفيه "فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعليه جنوبهم، ويتفكرون ... الآية" انظر:

- الفارسي، علاء الدين علي بن بلبان. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م، كتاب الرقاق، باب التوبة، ج ٤، ص ٣٨٦ حديث (٦٢٠) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

الحال في القرآن الكريم فإن معنى الفكر قد ورد في مواقع كثيرة بألفاظ العقل والنظر والتدبر. ومما هو معروف من الآثار التي ورد فيها لفظ التفكر حديث ابن عباس رضي الله عنه: "تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله." (١) وفي حديث ربيعة بن كعب الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده، يقول: "...ففكرت في نفسي فعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة..." وفي رواية أخرى للحديث: "ولكنني نظرت في أمري فرأيت أن الدنيا زائلة...". وبتبين من الروایتين أن النظر جاء في موقع التفكر. (٢)

(١) يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في: "فتح الباري": حديث ابن عباس: موقف وسنده جيد. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (٨٥٣ هـ). فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٤، (١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م)، كتاب التوحيد، باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله عز وجل، حديث رقم ٧٤٠٢، ج١٣، (مجلد ١٤)، ص ٣٢٦.

(٢) يروي الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن ربيعة بن كعب، قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ، وأقوم له في حوائجه نهاري أجمع، حتى يصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة، فأجلس بيابه إذا دخل بيته، أقول لعلها أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة، فما أزال أسمعها يقول: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله ويحمده، حتى أمل فأرجع، أو تغلبنى عيني فأرقد، قال: فقال لي يوماً لما برى من خفتي في خدمتي إياه: سلني يا ربيعة أعطك. قال: فقلت: أنظر في أمري يا رسول الله، ثم أعلمك بذلك، ففكرت في نفسي فعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة، وأن لي فيها رزقاً سيأتيني ويكفيني، قال فقلت: أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي، فإنه من الله عز وجل بالمنزل الذي هو به، قال: فجئت، فقال: ما فعلت يا ربيعة؟ فقلت: نعم يا رسول الله أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار؟ قال: فقال: من أمرك بهذا يا ربيعة؟ قال، فقلت لا والله الذي بعثك بالحق ما أمرني به أحد، ولكني لما قلت: سلني أعطك، وكنت من الله في المنزل الذي أنت فيه، نظرت في أمري وعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة، وأن لي فيها رزقاً سيأتي، فقلت: أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي، قال: فصمت رسول الله ﷺ طويلاً، ثم قال لي: إني فاعل، فأعني على نفسك بكثرة السجود. انظر:

- ابن حنبل، الإمام أحمد، مسند أحمد بن حنبل، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، مسند المدنيين، حديث (١٦٦٩٥) ص ١١٨٤ "وللحديث رواية أخرى يقول فيها الصحابي: "ولكنني نظرت في أمري فرأيت أن الدنيا زائلة..." انظر:
- المرجع نفسه والصفحة نفسها، حديث رقم (١٦٦٩٤).

ثانياً: الفكر في التراث الإسلامي

ورد مصطلح الفكر والتفكر بوصفه عملية ونتاج هذه العملية، وذلك في كثير من كتابات العلماء في التراث الإسلامي. ورد في عناوين بعض مؤلفاتهم، نظراً لأن الجهد الذي كان يقوم به المؤلف إنما هو نتاج فكره في موضوع الكتاب، ولا يعني ذلك بالضرورة أن الفكر هو موضوع الكتاب، ومن ذلك الكتب الآتية:

- ١- نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار للحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، دمشق: دار ابن كثير الطبعة الثانية ٢٠٠٨م. والكتاب في تخريج أحاديث الأذكار.
- ٢- نتائج الأفكار القدسية في بيان شرح معاني الرسالة القشيرية لزكريا الأنصاري الشافعي (حاشية مصطفى العروسي) القاهرة: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م. والكتاب في شرح الرسالة القشيرية.
- ٣- نتائج الأفكار في كشف الرموز والأسرار، هامشه: العناية على الهداية، حاشية السعدي على شرح العناية، شمس الدين أحمد بن قودر قاضي زاده أفندي، وبهامشه: أكمل الدين البائرتي، سعدي جلبي سعد الله بن عيثي المثني، طبع المطبعة الكبرى الأميرية، مصر سنة ١٣١٧هـ.
- ٤- نتائج الفكر وثمر المؤلفات أحمد بن يونس الخليلي، القدس: المكتبة البريدية، ١٨٢٧م.
- ٥- نتيجة الفكر في الجهر بالذكر للحافظ السيوطي، بيروت: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٢م. وهو كتاب في الفقه.
- ٦- حسن نتائج الفكر في كشف أسرار المختصر للزرقاني عبد الباقي بن

يوسف، مخطوطات مكتبة جامعة الملك فيصل، الإحساء، المملكة العربية السعودية. وهو كتاب في الفقه.

٧- نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار تأليف الإمام الحافظ المحقق بدر الدين محمود بن أحمد العيني الحنفي (٧٦٢ - ٨٥٥ هـ) تحقيق: السيد أرشد المدني، جدة: دار المنهاج للنشر والتوزيع، ٢٠١١م. وهو كتاب في الفقه.

٨- توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، المؤلف: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني (١١٨٢هـ)، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ٢٠١٠م. وهو كتاب في الفقه.

ومع أن لفظ الفكر ولفظ الأفكار وردا في عناوين هذه العينة من الكتب، فإنَّ أياً منها ليس كتاباً عن موضوع الفكر والتفكير والأفكار. ومع ذلك فإنه يندر أن نجد مؤلفاً من مؤلفات التراث الإسلامي لا يتضمن إشارة إلى ضرورة التفكر والتدبر، سواءً من كتب العقيدة والكلام، أو كتب الفقه والأصول، أو كتب التفسير، فضلاً عن كتب التزكية والتصوف. لكن مؤلفات كثيرة جعلت من الفكر موضوعاً لها، أو تضمنت فصلاً عن موضوعات الفكر والتفكير، والعقل والتعقل، والذكر والتذكر. وسوف نكتفي بالإشارة إلى ثلاثة من أهل العلم بينهم أزمان متباعدة، ولكل منهم نشأته ومدرسته وظروفه، ومع ذلك فإنَّ عرضهم لقضايا العقل والتفكير تكاد تكون متطابقة. وهؤلاء هم الحارث المحاسبي (٢٤٣هـ)، وأبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ)، وابن قيم الجوزية (٧٥١هـ). ونلاحظ أن بين الأول والثاني نحو قرنين ونصف من الزمان، وبين الثاني والثالث نحو قرنين ونصف كذلك.

أول هؤلاء العلماء الحارث المحاسبي الذي تحدث عن العقل ومعانية واختلاف الناس فيه، وأصبح هذا الكتاب منهجه في كتاباته الأخرى، وثانيهم أبو حامد الغزالي الذي كتب فصلاً نفسياً بعنوان "كتاب التفكر" وهو الكتاب التاسع

من ربيع المنجيات من إحياء علوم الدين. وثالث الثلاثة هو ابن قيم الجوزية الذي خصص كتاباً كبيراً في العلم والتفكير هو كتاب "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة".

واحد من كتب الإمام المحاسبي المنشورة، كان بعنوان "كتاب العقل وفهم القرآن" (١) وهو في الأصل كتابان، الأول "ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه"، والثاني "فهم القرآن ومعانيه". أما الأول فيبدو أن الحارث المحاسبي أوضح فيه موقفه من الجدل الذي كان يدور حول صحة الأحاديث المروية بشأن العقل، وذلك في رد فعل على ثقافة العصر الذي عاش فيه، وكان يُعدُّ عصر الاعتزال، وإذا كان المعتزلة ينوّهون بموقع العقل في الدين، ويستندون إلى أحاديث مروية عن العقل، فإن المحدثين بزعامة الإمام أحمد بن حنبل، يواجهون المعتزلة بإنكار صحة هذه الأحاديث. أما موقف المحاسبي الذي بدأ حياته محدثاً، فرأى أنّ هذه الأحاديث تتفق مع دلالة الآيات القرآنية، وأن الصحابة والتابعين وتابعيهم رَوَوْا أقوالاً في العقل لا تخرج عن سياق تلك الأحاديث. وهو في طريقته في هذا الكتاب الصغير في حجمه "العقل" مثل طريقته في كتابه الكبير "الرعاية لحقوق الله" يبدأ بالقرآن الكريم، ثم بالسنّة النبوية، ثم بالآثار المروية عن الصحابة والتابعين، ويؤكد بناءً على ذلك ضرورة أن "يَعْقِل" المؤمن ما جاء في كتاب الله؛ أي أن يتقن فهمه وبيانه، ولذلك نجد عبارته عن فعل العقل تكاد تتكرر في كل فقرة من الكتاب "عَقَلَ عن الله... فالفهم والبيان يسمى عقلاً؛ لأنه عن العقل كان." (٢)

ويختم المحاسبي كتاب العقل بتوضيح دلالة العقل ومعناه ومركزيته في عمل الفرد الإنساني، فيقول: "ولا غَنَاءَ بالعبد عن التفكير والنظر والذكر، ليكثر

(١) المحاسبي، الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). العقل وفهم القرآن، قدم له وحقق نصوصه: حسين القوّتلي، دمشق: دار الفكر، ١٩٧١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٩.

اعتباره ويزيد علمه، ويعلو في الفضل، فمن قلّ تفكُّره قلّ اعتباره، ومن قلّ اعتباره قلّ علمه، ومن قلّ علمه كثر جهله، وبان نقصه، ولم يجد طعم البرّ، ولا بَرْد اليقين، ولا روح الحكمة. وما بلغ علم من درس العلم بلسانه وحفظ حروفه بقلبه، وأضرب عن النظر والتذكر والتدبر لمعانيه وطلب بيان حدوده... وأي سرور ظفر به يعدل سرور العلم، وروح اليقين وعظيم المعرفة وكثرة الصواب، والظفر الذي لا يثبت ولا يُنال إلا بحسن النظر وطول التذكر وتكرار الفكر. (١)

وفي كتاب "فهم القرآن" يبدأ المحاسبي بالحديث عن خلق الله سبحانه للخلق، واصطفاء "آدم وذريته، فأخذ منهم الميثاق بما فطروهم عليه من العقول الرضية، والألباب والفهم، ليُدبروا بها شواهد التدبير، وأحكام التقدير، فألزمهم بذلك حجة من عقولهم." ثم وضع عنواناً "في العقل" وأضاف فيه: "وأنه خاطبهم به من قبل ألبابهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وقال: ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ و﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأنه جعل العقول معادن الحكمة ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعدل العلم، ونور الأبصار... ولم يعطهم الله عز وجلّ اليقين به وبما قال عن رؤية منهم لربهم، ولا معاينة منهم لما وعد وتوعد، ولكن عن الفهم بما قال جلّ وعزّ في كتابه، بالتذكير والتفكير والتثبوت والتدبير، فرددوا النظر، وأجالوا الفكر، وكرروا الذكر، وتدبروا العواقب... (٢)

"ثم أخبرهم أنه أنزل كتابه ليُدبروا آياته بعقولهم ويتذكروا ما قال بألبابهم، ثم قال: ﴿لِيَذَكَّرُوا بِآيَاتِهِ﴾ فأخبر أنه أنزله للتذكُّر والتفكُّر فيه، وخصّ بالتفكير والتذكر أهل العقول، أولي الألباب." (٣)

وفي كتابه الأكبر حجماً والأكثر شهرة، "الرعاية لحقوق الله" يقول المحاسبي في مطلعته تحت عنوان "باب في أول ما يجب على العبد معرفته والتفكير فيه"

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٥-٢٣٦

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٦-٢٦٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٧٥.

"قلت: فما أوَّل ما تأمرني أن أبتدئ به؟ قال: أن تعلم أنك عبدٌ مربوبٌ... فتذكر وتفكر لأي شيء خلقت... فإذا علمت أنك عبدٌ مربوب، ثم عقلتَ لِمَ خلقت... علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة مولاه، وأن الدليل على طاعة ربه ومولاه عز وجل العلم، ثم العمل بأمره ونهيه... لأن الطاعة سبيل النجاة، والعلم هو الدليل على السبيل، فأصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء. قلت: فبم يُنال الخوف والرجاء؟ قال تعظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعد...

قلت: وبم يُنال التخويف؟ قال: بالذكر والفكر في العاقبة؛ لأن الله عز وجل قد علم أن هذا العبد إذا غيب عنه ما قد خوَّفه ورجاه لن يخاف إلا بالذكر والفكر...

قلت: قد تخفى عليّ الفكرة ولا أعرف طريقها، فما الذي يفتحها؟ قال: اجتماع الهمّ مع المطالبة بالعقل، والتوكل على الربّ لا على العقل... فحضور العقل باجتماع الهمّ؛ لأن العقل إنما يشتغل عن الفهم والفكر في المعاد بتفريق الهم في الدنيا، فإذا اجتمع الهم حضر العقل، ولم يعزب على الفكر فيما أحب الله عز وجل.

وكذلك روي عن أبي العالية قيل له: ما يفتح على الفكر؟ قال: اجتماع الهمّ؛ لأنّ العبد إذا اجتمع همّه تفكر، وإذا تفكر نظر، وإذا نظر أبصر." (١)

وفي رسالة المسترشدين يرشد المحاسبي قائلاً: "واعلم أنه ما تزين أحد بزينة كالعقل، ولا لبس ثوباً أجمل من العلم؛ لأنّه ما عُرف الله إلا بالعقل، وما أُطيع إلا بالعلم." (٢) ونختم الإشارة إلى المحاسبي بما أورده في كتاب

(١) المحاسبي، الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). الرعاية لحقوق الله، دراسة وتحقيق: عبد الحلیم محمود. القاهرة: دار المعارف، (د.ت.)، ص ٤٧، ٦١، ٦٥.

(٢) المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). رسالة المسترشدين، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الفتاح أبو غدة، ط ٥، القاهرة: دار السلام، الإسلامية، ١٩٨٣، ص ٩٧-٩٩.

الوصايا: "الزهد متفاوت في قلوب الزاهدين، فكلُّ رجلٍ منهم زهده على قَدْر معرفته، ومعرفته على قدر عَقْلِهِ، وعَقْلُهُ على قدر إيمانه."^(١) فكأنَّه جعل الإيمان رأس الأمر وعنه ينبثق كل من العقل والمعرفة، أو أنه جعل مستوى الإيمان يحدد مستوى التعقل والفهم، ومستوى التعقل هو الذي يحدد مستوى كسبه من العلم والمعرفة.

وفي الحديث عن أثر الإمام المحاسبي في الفكر الإسلامي نكتفي بذكر ما رواه أبو حامد الغزالي في كتابه: "المنقذ من الضلال" من وقوعه في الحيرة والقلق، وسعيه للخروج منها باستقصاء ما عند الفرق التي كانت معروفة في عصره، بدءاً بكتابات المتكلمين، ثم الفلاسفة، ثم الباطنية، وأخيراً الصوفية، فأشار إلى أنه ابتداءً "بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب" لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي...^(٢) ومع أن أبا حامد لم يذكر الكتب التي قرأها للمحاسبي، فإن في كتاب المنقذ من الضلال كلاماً أشبه ما يكون بألفاظه ومعانيه بما جاء في كتابات المحاسبي، فضلاً عن الموضوعات الكثيرة التي طرقتها الغزالي في "الإحياء" على نهج "الرعاية" للمحاسبي.

في "كتاب التفكر" من ربيع المنجيات من كتاب "إحياء علوم الدين"، يتحدث الغزالي عن فضيلة التفكر، وبيان حقيقة الفكر وثمرته، وبيان مجارى الفكر، وبيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى.^(٣)

(١) المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). الوصايا: النصائح، القصد والرجوع إلى الله، بدء من أناب إلى الله، فهم الصلاة، التوهم، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد القادر أحمد عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٦٨، ص ٢٤٧.

(٢) الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد (٥٠٥هـ) المنقذ من الضلال، والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد، بيروت: دار النفائس، ٧، ١٩٦٧، ص ١٠٠-١٠١.

(٣) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (٥٠٥هـ). إحياء علوم الدين، وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٤م، الجزء الخامس، ص ٣-٣٤.

ويؤكد الغزالي أن الفكر هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، ويربط بين الفكر وثمرته فيقول: "وأما ثمرة الفكر: فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر، فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كله، وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكير، وأنه خير من الذكر والتذكر، لأن الفكر ذكر وزيادة... فإذا التَّفَكَّرَ أفضل من جملة الأعمال... فهنا خمس درجات:

أولها: التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب.

وثانيها: التَّفَكُّر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.

والثالثة: حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها.

والرابعة: تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة.

والخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال.^(١)

وينقل أبو حامد الغزالي عن الحسن البصري قوله: "إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، والفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة."^(٢)

أما ابن قيم الجوزية فإننا نختار من كتبه كتابين لتوضيح الطريقة التي عالج فيها قضايا الفكر والتفكير، هما "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة"، وكتاب "الفوائد".

يشير ابن القيم في الكتاب الأول إلى قصة هبوط آدم إلى الأرض، ووعد الله لبني آدم أن يبعث إليهم بالهدى، وأن من يتبع الهدى فلن يضل ولا يشقى، بل تتحقق له السعادة في هذه الدنيا، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَهبطَا مِنْهَا جَمِيعًا

(١) المرجع السابق ص ٧-٨

(٢) المرجع السابق ص ٥-٦

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ [طه: ١٢٣] ثم يؤكد أنّ مراتب السعادة والفلاح إنما تتحقق بأصلين: "قوة الإدراك والنظر، وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام، وقوة الإرادة والحب وما يتبعها من النية والعزم والعمل." (١)

فهذان الأصلان هما "العلم والإرادة، فالإرادة باب الوصول إليه، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه، وكمال كل إنسان إنما يتم بهذه النوعين: همةٌ تُرقيّه، وعلمٌ يبصره ويهديه." (٢)

والكتاب كله بعد ذلك بيانٌ للأصل الأول: وهو العلم وفضله وشرفه، وبيان عموم الحاجة إليه. ويفصّل في وجوه فضل العلم من مئة وثلاثة وخمسين وجهاً. وقد جاء آخر هذه الوجوه بعنوان "قول بعض السلف: تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة". ثم يكتب في مجالات التذكر تفاصيل غطت مائتين وثمانين صفحة. ومن اللافت للانتباه أن تقسيمات ابن القيم لموضوع التفكير تكاد تتطابق مع تقسيمات أبي حامد الغزالي، لكنها أكثر تفصيلاً، بل إنّ كثيراً من الاقتباسات التي ضمنها ابن القيم مادة كتابه "مفتاح دار السعادة" من أقوال السابقين، هي الاقتباسات نفسها التي كان الغزالي قد ضمنها كتابه "إحياء علوم الدين"، رغم ما بين العالمين الجليلين من زمن يتجاوز قرنين ونصف القرن، وعلى ما بينهما من اختلاف في الانتماء الفقهي والتوجه الكلامي والفلسفي.

ويعود ابن القيم إلى الحديث عن التفكير في كتاب آخر له لا يقل أهمية عن كتاب "مفتاح دار السعادة"، ذلك هو كتاب "الفوائد" وفيه يتحدث بقدر من التفصيل كذلك عن علاقة الأفكار والأفعال وما بينهما من عمليات تحوّل

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت ٧٥١هـ) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، الرياض: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م ص ١٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٤.

وتطوّر في ذات الإنسان، فيقول: "مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها." (١) وتتنوع هذه الأفكار في جودتها وفائدتها، وللإنسان قدرة على تتبع ما يخطر له من أفكار، فينتقي منها ما يفيد، ويصرف عن خاطره ما يضر. يقول ابن القيم: "فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحَب الذي يوضع في الرحا، ولا تبقى الرحا معطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها. فمن الناس من تطحن رحاه حبا يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبناً ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه." (٢)

ويتوسّع ابن القيم في بيان علاقة التفكّر بالتذكّر من خلال تأمله في السياقات التي وردت فيها العمليتان في القرآن الكريم فيقول مثلاً في مجال تعقيبه على آيات سورة النحل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: ١٠-١٣] موضحاً موقع التفكّر في قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وموقع التعقل في قوله سبحانه: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وأخيراً موقع التذكّر في قوله عزّ وجلّ: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ يقول ابن القيم: "وأما تخصيصه إياها بأهل التذكّر، فطريقة القرآن في ذلك

(١) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر. الفوائد، القاهرة: مكتبة الجامعة، الطبعة الرابعة ١٩٨٠، ص ٢٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٠

أن يجعل آياته للتبصّر والتذكّر، كما قال تعالى في سورة "ق": ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ اق: ٧-٨] فالتبصرة: التعقل، والتذكرة: التذكر، والفكر باب ذلك ومدخله، فإذا فكّر تبصّر، وإذا تبصّر تذكّر، فجاء التذكير في الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر، فقدّم الفكر إذ هو الباب والمدخل، ووسّط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته، وأخّر التذكّر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل. فتأمل ذلك حق التأمل.

"فإن قلت: فما الفرق بين التذكّر والتفكّر؟... قلت: التفكّر والتذكر أصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة... فأعلم أن التفكّر طلب القلب ما ليس حاصل من العلم من أمر هو حاصل منها، هذا حقيقته، فإنه لو لم يكن ثمّ مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكر فيه، فإذا عرف هذا فالتفكّر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك، وما ينبغي اجتنابه. فالتذكر هو مقصود التفكّر وثمرته... "فإذا تذكرت عاداً بتذكره على تفكّره ما دام عاقلاً؛ لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة. وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب، ويتذكر بها من غفلته فإنّ المضاد للعلم، إما عمى القلب وزواله بالتبصّر، وإما غفلته وزواله بالتذكّر." (١)

"فالفكر هو إحضار معرفتين في القلب، ليستثمر منهما معرفة ثالثة." وهذه المعرفة الثالثة قد تكون خبيراً سمعه دون تيقن تام، أو أن يتيقن ويجزم بصحته وفي الحاليتين يكون له مستويات العلم بالأمر، ما "يسمى تفكراً وتذكراً، ونظراً، وتأملاً، واعتباراً، وتدبراً، واستبصاراً، وهذه معانٍ متقاربة

(١) ابن قيم الجوزية. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، مرجع سابق، ص ٦٠٦-٦٠٧.

تجتمع في شيءٍ، وتفرق في آخر: فيسمى: تفكراً لأنه استعمال الفكرة في ذلك وإحضاره عنده. ويُسمى تذكراً؛ لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه...

"وُيُسمَّى: نظراً؛ لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه. ويُسمَّى: تأملاً؛ لأنه مراجعة للنظر كرّة بعد كرة، حتى يتجلى له وينكشف لقلبه.

"وُيُسمَّى: اعتباراً؛ وهو افتعال من العبور؛ لأنه يعبر منه إلى غيره، فيعبر من ذلك الذي قد فكّر فيه إلى معرفة ثالثة وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يسمى عبّرة؛ إيداناً بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به...

"وُيُسمَّى: تدبراً؛ لأنه نظر في أدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها... وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرّة بعد مرّة ولهذا جاء على بناء التفعّل كالتجرع والتفهّم والتبيين.

"وُيُسمَّى: استبصاراً وهو استفعال من التبصر، وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة." وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر، فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه، ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلًا عند القلب فالتفكر يحصّله والتذكر يحفظه." (١)

"فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكر، فإنه لا بد من تفكر وعلم يكون نتيجة الفكر، وحال يحدث للقلب، من ذلك العلم، فإن كل من علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقى لقلبه حالة، وينصبغ بصبغة من علمه، وتلك الحال توجب له إرادة، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل. فها هنا خمسة أمور: الفكر، وثمرته العلم، وثمرتهما الحالة التي تحدث

(١) المرجع السابق، ص ٥٢٥.

للقلب، وثمره ذلك الإرادة، وثمرتها العمل... فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها... وبالجملة فأصل كل طاعة إنما هو الفكر. وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة.^(١)

يجتهد القارئ عند هذا الحد من المعالجة أن يوضح ما توصل إليه من دلالة مفاهيم التفكر والتذكر والتدبر وما بينها من علاقة أو تمايز

ثالثاً: الفكر توحيد وتزكية وعمران

وقد يكون من المفيد أن نستدرك على المحاسبي وغيره من العلماء الذين عرفوا بكتاباتهم عن التزكية، أن عمليات التعقل والتفكر والتذكر التي يقوم بها الإنسان، من أجل الاتصاف بالتقوى، والزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، لا تعني بالضرورة عدم الأخذ بنصيب الإنسان من الدنيا، فمجالسة العلماء وحضور دروسهم، والرحلة إليهم طلباً للعلم، والسعي في مناكب الأرض، طلباً للأكل من رزق الله، وإتقان متطلبات المهنة في الحياة، من تجارة وزراعة وحرفة، كل ذلك من نصيب الدنيا، وكله يتطلب تعقلاً وتفكيراً وتذكراً، فضلاً عما يلزم المؤمن من التفكر والتذكر في ثواب المجاهدين في سبيل الله والمرابطين على الثغور، والنفرة في هذا السبيل.

فالزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، هو زراعة في الدنيا وحصاد في الآخرة، فالذي يَعْقِلُ عن الله شيئاً مما أمره به، يحرص على تنفيذ أمره، فإذا كان من أمر الله الرحمة بخلق الله، تمثل هذه الرحمة في علاقته بالناس، فإذا "عقل عن الله عز وجل ما ابتدأ العباد به من الرحمة... ألزم قلبه رحمة الأمة، فأحب محسنهم، وأشفق على مسيئهم، ودعا إلى الله سبحانه -إذا أمكنه- مدبرهم، ولم يدخر مالاً عن فقيرهم... من سأله منهم ما يقدر عليه لم يتبرم بطلبه... ومن آذاه وأساء إليه لم يجد في نفسه كراهية للغفو والصفح عنه، يعدهم جميعاً كأقرب الخلق منه،

(١) المرجع السابق، ص ٥٢٦.

كبيرهم مثل أبيه، وصغيرهم كولده، وقرنه كأخيه...^(١) وإذا عقل عن الله أمره بالتعليم والإصلاح، فإنه: "يذكرُ الناس بما قد علمه فينسيه، وينبه المتهاون لما كان قد اشتغل عن العناية بالقيام به، ويبينُّ للزائغ عن طريق الرشd أنه قد تركه."^(٢)

ومن ناحية أخرى يكون من المفيد كذلك أن نشير إلى التعقل والتفكر والتذكر، كما يقوم به المؤمن، طلباً لما يريده من شؤون الدنيا والآخرة، يقوم به غير المؤمن كذلك، طلباً لما يريده من العلم في ظاهر الحياة الدنيا، وبعض الناس يصل بهم إتقان عمليات التفكير في فنون العلم إلى حدِّ العجب. وفي ذلك يروي المحاسبي - بسنده - عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] قال: لا جرم والله لقد بلغ من علم أحدهم بدياه أنه يقلب الدرهم على ظفريه، ويخبرك بوزنه، وما يحسن يصلي.^(٣)

وإذا كان أبو حامد الغزالي قد فصل في التفكر في آيات الله المتلوة وآيات الله المنظورة لتكون نتيجة التفكر على معرفة الله والتقرب بالزهد في الدنيا وطلب الآخرة وذلك في ربع المنجيات من كتاب الإحياء، فإنه قد قدم قبل ذلك كثيراً من متطلبات التفكر في أمور الكسب والمعاش، من أنواع المهن والصنائع والحرف، والمأكل والملبس ومسائل الزواج وآداب المعيشة الاجتماعية. وكان في كل فصل يبدأ بذكر ما يختص بموضوع الفصل من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ثم بأقوال الصحابة والتابعين، وغيرهم من السابقين. وحتى في الحديث عن الزهد تحدث مطولاً عن ضرورات الحياة ودرجات الزهد فيما هو من هذه الضرورات. فثمة ضرورات إذاً، لا بد من الأخذ بنصيب منها، ومن هذه الضرورات ما جرت به عادة الناس في حياتهم، مما يلزم التفكر فيه والقيام بأمره والعلم بمسائله والمهارة في أدائه.

(١) المحاسبي، العقل وفهم القرآن، مرجع سابق، ٢٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٢١٤.

أما ابن القيم فهو كذلك يتحدث عن بعض الأمثلة من نصيب الإنسان في الدنيا، فهو يقول: والله سبحانه "كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة، فيبغض القبيح وأهله، ويحب الجمال وأهله."^(١) ثم يتحدث عن فريق من الناس ضلوا في النظر إلى الجمال، حتى إن "العارف" من هذا الفريق "يصرح بإطلاق الجمال ولا يرى في الوجود قبيحاً، وهؤلاء قد عدت الغيرة لله من قلوبهم، والبغض في الله، والمعاداة فيه، وإنكار المنكر، والجهاد في سبيله، وإقامة حدوده." فهو إذاً لا يرى مشكلة في رجاء الآخرة، والسعي في مدارج السالكين نحوها والقيام بما أمر الله من حب الجمال وبغض القبح، ومنه الحب والكره في الله، والجهاد في سبيله وإقامة حدوده. ويفصل النزاع في مسألة الجمال حين يقول: "وفصل النزاع أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيئة على ثلاثة أنواع: منه ما يحمد ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم، فالمحمود منه ما كان لله وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محموداً إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه، وغيظ عدوه..."^(٢)

ويضع ابن القيم تصنيفاً لأنواع الفكر تحت عنوان "قاعدة نافعة" فيقول: "أصل الخير والشر من قبل التفكير، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والتترك والحب والبغض، وأنفع الفكر: الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفسد المعاد وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجلُّ الأفكار، ويليهما أربعة: فِكْرٌ في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفِكْرٌ في مفسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء."^(٣)

(١) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر. الفوائد، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق ٢٤٣-٢٤٤.

(٣) المرجع السابق ٢٥٨.

ومع هذا الاستدراك، يتوقع من الإنسان المؤمن وهو يستجيب لدعوة رب العالمين المتكررة بالحاح وبأساليب ومفردات متعددة إلى التفكير، والتدبر، والتبصر، والتعقل، والنظر، والفقہ، والاعتبار، أن يبدأ هذه الاستجابة عبر سلسلة من مراحل التعلم والتعمق في الفهم والزيادة في العلم، تتناسب مع التفصيل الذي أوردته الآيات القرآنية في مجالاتها المختلفة: فمنها الآيات الكونية وعددها يزيد عن ألف وثلاثمائة آية في القرآن الكريم، ومنها آيات تفصل خلق الإنسان طوراً من بعد طور، واختلاف الليل والنهار، وبناء السماوات، ومهد الأرض، ونمو النبات، وعجائب الحيوان، ومقصدها الأساس هو التفكير، ومنها آيات القصص والتاريخ والحضارات السابقة، وآيات القصص وهي كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ثلث القرآن،^(١) ومقصدها الأساس هو الاعتبار، وآيات القرآن المتلوة في مجملها على أية حال مقصدها الأساس التدبر: ﴿نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [محمد: ٢٤].

فالتدبر للآيات القرآنية بصورة عامة والتفكير في الآيات الكونية منها، والاعتبار من قصص الغابرين، كل ذلك يهدف إلى أن يقود في نهاية المطاف إلى الإيمان بالخالق؛ بوحديته وأسمائه وصفاته، ومن ثم السعي الحثيث في تزكية النفس بطلب رضوان هذا الخالق الواحد، وتجنب سخطه.

ولكن ما الذي يحصل في الطريق إلى هذه النهاية، وأثناء السعي، وقبل الوصول؟! كيف لا يقود طول التفكير والاعتبار والتدبر، أثناء ذلك السعي، إلى بناء الفكر والعلم والفهم والاكتشاف؟

(١) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم الحراني (توفي ٧٢٨هـ). مجموعة الفتاوى، عناية عامر الجزار وأنور الباز، المنصورة: دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م، ج ١٧، ص ١١٥.
والنص هو: وَقَوْلِهِ لِلنَّاسِ؛ -أَي قَوْلِهِ ﷺ-: {اِحْتَشِدُوا حَتَّىٰ أَقْرَأَ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فَحَشِدُوا حَتَّىٰ قَرَأَ عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.} وَأَمَّا تَوْجِيهِ ذَلِكَ: فَقَدْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ الْقُرْآنَ بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهِ ثَلَاثَةٌ أَثَلَاثٌ: ثُلُثٌ تَوْجِيهِ وَثُلُثٌ قَصَصٌ وَثُلُثٌ أَمْرٌ وَنَهْيٌ.

ومن أين تأتي السنن والقوانين والنظريات، إذا لم تكن هذه صياغات علمية لذلك العلم والفهم والاكتشاف وما يلزم ذلك من قياس وتجريب؟!

وما قيمة هذه العلوم والاكتشافات إن لم يصاحبها تطبيقات عملية، ومنافع حقيقية، تيسر للسالكين سبل السعي في هذه الحياة الدنيا على هذه الأرض، وحمل الأمانة في الدنيا، والقيام بحق الخلافة في الأرض، وإدراك الدلالات العملية لآيات التسخير، والتبصر في آيات التمكين؟

وكيف حقق الله دعوة إبراهيم أثناء بناء البيت الحرام، أن يجعل الله ذلك البلد آمناً يأتيه رزقه من الثمرات إلا عن طريق رحلة الشتاء والصيف، فأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟

فالتجارة والصناعة والزراعة وسن القوانين والتشريعات، التي تضبط الأمن وتحمي الطريق، وتنظيم تفاصيل العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول، وإدارة أمور الاجتماع والاقتصاد والسياسة... كل ذلك علوم نافعة، لماذا لم يسبق إليها المؤمنون بالآخرة وهم في طريقهم إليها يتفكرون ويتدبرون؟ ألم يكن بالإمكان أن تنمو هذه العلوم وتكون امتداداً للبذور التي زرعها السابقون من العلماء في أبواب فقه المعاملات؟

ترى لو كان كل ذلك من كسب المجتمع المسلم، في الوقت الذي تسير فيه القافلة وعيونها على نهاية الطريق إلى الله، أكان ذلك عائقاً دون الوصول؟ نعم، سيكون في الطريق أناس يشغلهم كل ذلك عن التدبر في مآلات الأمور والمصير إلى الله، وقد يصيب بعض هؤلاء السالكين من الغفلة، والغرور، والكبر، والاعتداد بعلم يعلمونه من باب ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧] وقد يكون هؤلاء أكثر الناس: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٦-٧] ومع ذلك فإن المؤمنين أولى بهذا العلم من غيرهم؛ لأنهم يجمعون علم ظاهر الحياة الدنيا وعلم حقيقة الحياة الدنيا وأنها طريق إلى الآخرة، ولو تعلم المسلمون هذه العلوم الدنيوية وكان كل من تعليمها واستعمالها مطابقاً لما أمر الله به... كانت أشرف العلوم

وأنفعها، لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة الله ومرضاته جلّ وعلا، وإصلاح الدنيا والآخرة، فلا عيب فيها إذاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَظَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [أنفال: ٦٠]، فالعمل في إعداد المستطاع من القوة امتثالاً لأمر الله تعالى، وسعيّاً في مرضاته، وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة.^(١)

لو تحقق هذا الجمع بين التوحيد والتزكية والعمران، سوف تصبح الآيات الكونية، والآيات النفسية، والآيات الاجتماعية، والآيات التاريخية، وكل آيات القرآن الكريم عناوين لموضوعات التفكر والتدبر والاعتبار، وموضوعات للمشاريع البحثية المتعمقة التي توسع فضاءات العلم يوماً بعد يوم، وتجعل الأمة المسلمة في موقع الخيرية والقيادة والريادة.

وإذا كان الله سبحانه قد ذكر - في مقام الذم - أولئك الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، فإنّ من العجز أن يقول قائل من الذين يدعون علم الآخرة وهم عن علوم الدنيا هم غافلون: الحمد لله، لهم الدنيا ولنا الآخرة، أو يقول: الحمد لله الذي سخر لنا هؤلاء الكفار الغافلين عن الآخرة، المنشغلين بالدنيا، يستخرجون من أرضنا أنواع المعادن والبترو، وينتجون لنا منها عجائب الصناعات، ويوفرون لنا أطيب المأكّل والمشارب وأحسن الملابس، لنشغل بالآخرة كما انشغلوا بالدنيا! ألا تعساً للطاعم الكاسي!

رابعاً: الفكر إيمان وعلم وعمل

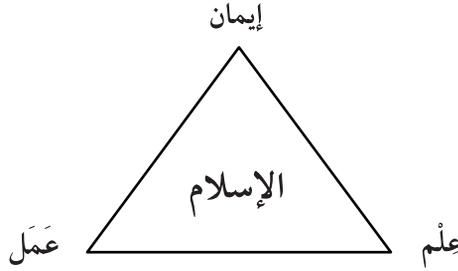
الدين في المفهوم الإسلامي الأساس هو: إيمان، وعلم، وعمل. فأين موقع الفكر من هذه المفاهيم الثلاثة؟

لقد نقلنا فيما سبق نصوصاً للمحاسبي والغزالي وابن القيم حول علاقة

(١) الشنيطي، محمد الأمين. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، (د.ت.)، ج ٦، ص ٥٢٩-٥٣٠.

الفكر والعلم والعمل، في ضوء فهم هؤلاء العلماء وأمثالهم للهدى الإلهي والبيان النبوي. وتبين لنا أن الفكر هو عنصر أساس في هذه الثلاثة. ونذكر في هذا المقام مرة أخرى بنص ابن القيم: "مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار؛ فإنها تُوجِبُ التصورات؛ والتصورات تدعو إلى الإرادات؛ والإرادات تُقتضي وقوع الفعل؛ وكثرة تكراره تُعطي العادة؛ فصالح هذه المراتب بِصَلاحِ الخَوَاطِرِ والأفكار، وفسادها بِفسادِها."^(١)

ولعل النظر في الاقترنات القرآنية بين مفاهيم الإيمان والعلم والعمل يسهم في فهم موقع الفكر في هذه المفاهيم الثلاثة.



١- اقتران الإيمان والعلم

يحلوا للمهتمين بالإعجاز العددي في القرآن الكريم أن يحسبوا عدد المرات التي يذكر فيها لفظ معين في القرآن الكريم، أو اللفظ ومشتقاته ليصلوا إلى نتائج معينة، ولا خلاف على أن هذه النتائج هي اجتهاد في الفهم، يحتمل الصواب والخطأ، ولكن بعض النتائج العددية تلفت الانتباه، وتثير الاهتمام. ومن ذلك مثلاً أن عدد المواضع التي ذكر فيها لفظ الإيمان ومشتقاته هو ٨١١ موضعاً. وعدد المواضع التي ذكر فيها لفظ العلم ومشتقاته

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (٧٥١هـ). الفوائد، تحقيق محمد عزيز شمس، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ، ص ٢٥٢-٢٥٣.

٧٨٢ موضعاً. وعدد المواضع التي وردت فيه المعرفة ومشتقاتها ٢٩ موضعاً، ومجموع عددي الموضوعين هو ٨١١ وهو يساوي عدد المواضع التي ذكر فيها لفظ الإيمان ومشتقاته! (١)

إنَّ العلاقة بين الإيمان والعلم هي في حقيقتها علاقة بين الإيمان والفكر. فالإيمان في الإسلام مسؤولية فكرية تتحقق من تعقل موضوعات الإيمان، ومعرفة حقائقها، وتذكر عناصرها، وتدبر مضامينها، وبهذه المسؤولية تتحقق إنسانية الإنسان وتُحترم كرامته. فالإيمان دون هذه العلم، حطٌّ من مسؤولية الإنسان، وهدر لكرامته. ولا يستوي العالم والجاهل، فالعالم مطمئن بإيمانه، والجاهل يتزعزع إيمانه عند أول اختبار: يقول الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]

لقد قرن الله سبحانه الإيمان والعلم، في كثير من الآيات، وذلك في مثل قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]. وفسر ابن عاشور عطف الإيمان على العلم بقوله: "وعطف الإيمان على العلم والاهتمام به؛ لأنَّ العلم بدون إيمان لا يرشد إلى العقائد الحق التي بها الفوز في الحياة الآخرة...". (٢) وتكرر عطف الإيمان على العلم في آيات كثيرة أخرى منها: قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]. وقوله سبحانه: ﴿لَنْ كُنَ الرَّسَّخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢]

وقد ورد اقتران الإيمان بالعلم في الحديث النبوي الشريف، فقد روى يزيد بن عميرة، "أنَّ معاذ بن جبل، لما حضرته الوفاة، قالوا: يا أبا عبد الرحمن،

(١) نوفل، عبد الرزاق. الإعجاز العددي في القرآن الكريم، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٥، ١٩٨٧م، ص ٥٦.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء ٢١، ص ١٣١.

أوصنا، قال: أجلسوني ، ثم قال: إنَّ العلم والإيمان مكانهما، من التمسهما
وجدهما، قال ذلك ثلاث مرات،..."^(١)

وفي مدى تلازم الإيمان مع العلم يقول ابن القيم: "والإيمان واليقين
يورثان صحة المعرفة وصحة الإرادة، وهما يورثان الإيمان ويمدانه.
ومن هنا يتبين انحراف أكثر الناس عن الإيمان لانحرافهم عن صحة
المعرفة وصحة الإرادة. ولا يتم الإيمان إلا بتلقي المعرفة من مشكاة
النبوة وتجريد الإرادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق، فيكون علمه
مقتبساً من مشكاة الوحي، وإرادته لله والدار الآخرة؛ فهذا أصح الناس
علماً وعملاً، وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الله ومن خلفاء
رسوله ﷺ في أمته."^(٢)

لكن العلم في الرؤية الإسلامية هو العلم بمعناه القرآني الواسع،
الذي يشمل العلم بعلوم الأشياء (العلوم الطبيعية والمادية)، والعلم بحقائق
السلوك والنفوس والمجتمع (العلوم الإنسانية والاجتماعية)، والعلم بالعقائد
ومسائل الإيمان (علوم الشريعة). وكلها يمكن أن تكون علوماً نافعة. وقد
أعلى الله سبحانه من قيمة العلم النافع وحث عليه وفضل العلماء، وذكر
كيف أن الله سبحانه فضّل بعض من اصطفاهم من الناس بعلم نافع، فكانت
قيمة العلم ومنفعته عندما يوظّف العالمُ علمه في عمَل مفيد،؛ فذو القرنين
يوظّف علمه في الهندسة والعمران وعلوم المعادن، ليُنِي جداراً منيعاً
يَحْمِي أولئك الضعفاء بين السدين من فساد يأجوج ومأجوج، ونَبِيُّ الله
يوسف عليه السلام يوظّف بعلمه في الاقتصاد والتموين برنامجاً اقتصادياً

(١) الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. المستدرک علی الصحیحین، بیروت: دار
المعرفة، ١٩٩٨، كتاب العلم، الحديث رقم ٣٤١، ج ١، ص ١٤٦. "وعقبَ الحاكم بقوله: هذا
حديث صحيح على شرط الشيخين، ويزيد بن عميرة السكسكي صاحب معاذ بن جبل، وقد شهد
مكحول الدمشقي ليزيد بذلك، وهو مما يستشهد مكحول عن يزيد متابعه لأبي إدريس الخولاني."

(٢) ابن قيم الجوزية، الفوائد، مرجع سابق، ص ١٤٠.

يَحْيِي بِهِ الشُّعُوبَ الَّتِي كَانَتْ تَسْكُنُ مِصْرَ وَالْمَنَاطِقَ الْمُجَاوِرَةَ مِنَ الْمَجَاعَةِ، وَنَبِيُّ اللَّهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوْظَفُ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنْ عِلْمٍ، فَيُنِي بِعِلْمِهِ فِي النِّجَارَةِ سَفِينَةَ ضَخْمَةً تَنْقُذُ مِنَ آمْنٍ مَعَهُ، وَتَبْقِي عَلَى أَصْنَافِ الْكَائِنَاتِ الَّتِي تَحْتَاجُهَا الْبَشَرِيَّةُ مِنْ أَنْ يَهْلِكَهَا الطُّوفَانُ. وَمِثْلُ هَذِهِ الْقِصَصِ الْكَثِيرَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ دَعْوَةٌ إِلَى الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْعِلْمِ، فَهُوَ مَتَّاحٌ لِمَنْ يَطْلُبُهُ وَيَجْتَهِدُ فِي اِكْتِسَابِهِ.

وَمَعَ أَنَّ أَفْضَلَ الْعِلْمِ هُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَالْعِلْمُ الَّذِي يَقُودُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالتَّصَدِيقِ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ رَسُلَ اللَّهِ عَنْ رَبِّهِمْ، مِنْ عِلْمٍ عَنِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالِاتِّزَامِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، فَإِنَّ النَّصِ الْقُرْآنِي قَدْ وَسَّعَ مَعْنَى الْعِلْمِ لِيَشْمَلَ صُورًا شَتَّى مِمَّنْ تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ، فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ عِلْمَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامَ شَيْئًا فَكَانَ ذَا عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضْنَهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]. وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ قَدْ عَلَّمَ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامَ مَنْطِقَ الطَّيْرِ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦] وَعَلَّمَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامَ صِنَاعَةَ مَلَابِسِ الْحَرْبِ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صِنَاعَةَ بُيُوتٍ لَكُمْ لِنُحَصِّنَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وَعَلَّمَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِيَّايَ تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]. وَعَلَّمَ ذَا الْقَرْنَيْنِ شَيْئًا مِنَ الْهِنْدَسَةِ وَعِلْمِ الْمَعَادِنِ: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [١٥] ءَأَتُونِي زُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ قَالَ انْفِخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ [الكهف: ٩٥ - ٩٦]. وَعَلَّمَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامَ أَنْ يَصْنَعَ الْفَلَكَ بِعَيْنِ اللَّهِ وَوَحْيِهِ: ﴿وَاصْنَعِ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ﴾ [هود: ٣٧].

ولعلَّ من أشرف ما خصَّ الله به العلم من قيمة ورفعة شأن أن أنزل أولى آياته عن العلم، ومهاراته في القراءة والكتابة، وأداته الأساس وهي القلم، وضمَّن هذه الآيات ذكر العلم الذي يُعلِّمه الله للإنسان عن طريق الوحي المنزل، الذي يكتب بالقلم، ويتعلم بالقراءة، والعلم الذي يمكن الله سبحانه الإنسان من تعلُّمه عن طريق النظر والتأمل والقراءة في الكون المخلوق، فقال سبحانه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق: ١-٥].

فالمجتمع الذي يريد الإسلام أن يقيمه هو مجتمع يتكامل فيها الإيمان والعلم، ويقترن فيه "إيمان العلماء" من كافة التخصصات العلمية، و"علم المؤمنين" المتخصصين بها.

قال ابن القيم رحمه الله: "أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبُّه، والمؤهلون للمراتب العاليه." (١)

ولذلك يخطئ بعض الناس حين يظنون أنَّ الفكر والثقافة مجال خاص لاهتمام فئة من الناس، تختلف عن فئة أخرى تنشغل بقضايا الإيمان، وتهذيب السلوك، والتخلق بالخصال الحميدة، وكأنَّ صاحب الفكر ليس مطلوباً أن تظهر عليه مظاهر الإيمان والخلق وحسن السلوك، أو كأنَّ المؤمن التقي الذي يكثر من العبادة ويقل طمعه في الدنيا هو إنسان جاهل لا علم عنده، ولا فكر له ولا ثقافة.

٢- اقتران الإيمان والعمل

في القرآن الكريم إحدى وخمسون آيةً يقترن فيها الإيمان بالعمل الصالح،

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد، مرجع سابق، ص ١٥١.

اقتراناً لفظياً، مثل قوله سبحانه ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ [يونس: ٩]. وثمة آيات كثيرة أخرى تؤكد على ضرورة الاقتران بين الإيمان والعمل، وتستنكر أن لا يوجد هذا الاقتران والاتساق مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلُوبُنَا لَمَّا تَوَّأَمْنَا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ . [الحجرات: ١٤-١٥]، ومثل قوله سبحانه: ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ [الصف: ٢-٣].

والمعنى الشرعي المعروف للإيمان عند العلماء أنه قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان. أو هو نظر وعمل، فبالنظر يتحقق العلم والفكر، وبالعمل تتحقق الاستجابة لمتطلبات النظر من سلوك وممارسة.

يقول ابن القيم: "الإيمان له ظاهرٌ وباطنٌ: ظاهره قولُ اللسان وعملُ الجوارح، وباطنه تصديقُ القلب وانقيادهُ ومحَبَّتهُ. فلا ينفع ظاهرٌ لا باطنَ له، وإن حقنَ به الدماءَ وعصَمَ به المالَ والذريَّةَ. ولا يُجْرئُ باطنٌ لا ظاهرَ له، إلا إذا تعذَّرَ بعجزٍ أو إكراهٍ وخوفٍ هلاك. فتخلفَ العملُ ظاهراً مع عدم المانع دليلٌ على فساد الباطنِ وخلوِّه من الإيمان، ونقصُهُ دليلٌ نقصه، وقوِّته دليلٌ قوِّته. فالإيمان قلبُ الإسلامِ ولُبُّه، واليقينُ قلبُ الإيمانِ ولُبُّه. وكلُّ علمٍ وعملٍ لا يزيد الإيمانَ واليقينَ قوَّةً فمدخول، وكلُّ إيمانٍ لا يبعثُ على العملِ فمدخول." (١)

إن اقتران "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" في القرآن الكريم جاء في غالب المواضع بصيغة الجمع: فالذين آمنوا جماعةً، والذين عملوا الصالحات جماعةً،

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد، مرجع سابق، ص ١٤١.

فالجماعة المؤمنة توحدت على رؤية علمية، ثم جاءت أعمالها الصالحة وفقاً لتلك الرؤية.

ويستخلص عبد الرحمن حللي من ذلك دلالة حضارية لها أهميتها في تحقيق النهوض الحضاري للأمة، فالنهضة شأن الجماعة والأمة حين تقوم بالعمل المطلوب، والنهضة تقتضي تصوراً مشتركاً بين الجماعة، وهو الإيمان، وهذا الإيمان منطلق العمل الصالح.^(١)

٣- اقتران العلم بالعمل

ولا خلاف على أن مفهوم "العبادة" في الإسلام يتسع ليشمل كل الأفعال الاختيارية التي يقوم بها الإنسان طلباً للأجر والثواب والتقرب من الله سبحانه، وتنفيذاً للأحكام والشرائع التي جاء بها دين الله. ومعرفة ما يكون به الفعل تقرباً إلى الله - وليس شهوة نفسية أو بدنية- يحتاج إلى علم، ومعرفة أحكام الله وشرائعه لتنفيذها يحتاج إلى علم. ولذلك تحدث العلماء عن "اقتضاء العلم العمل"^(٢) وعن تلازم العلم والعمل: "العبادة ضربان: علم وعمل. وحقهما أن يتلازما، لأن العلم كالأسس والعمل كالبناء، وكما لا يغني أسس ما لم يكن بناء، ولا يثبت بناء ما لم يكن أسس، كذلك لا يغني علم بغير عمل ولا عمل بغير علم."^(٣) وأوضح من ذلك تصريح النبي ﷺ بأن العمل علم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: "قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله عز وجل"، قال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله"، قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرني عن العلم؟ فقال رسول

(١) حللي، عبد الرحمن. اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم ودلالاته الحضارية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد ٢٧، العدد الثالث، ٢٠١١م، ص ٤٣٩ - ٤٦٣

(٢) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (٤٦٣هـ). اقتضاء العلم بالعمل، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٨٤.

(٣) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (٥٠٢هـ). تفصيل الناشئين وتحصيل السعادت، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٣م، ص ٨٥-٨٦.

الله، صلى الله عليه وآله وسلم: "إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل."^(١)

قال الراغب الأصفهاني: "قال بعض الأدباء: العملُ مقلوبٌ عن العلم، وإنَّ العلمَ فعلُ القلبِ والعملُ فعلُ الجارحة، وهو يبرز عن فعل القلب الذي هو العلم وينقلب عنه."^(٢)

وإذا كان العلم عند غير المسلمين هو "بناء نظري أو نسق معرفي" لا يقتضي بالضرورة ممارسة وسلوكاً عملياً، فإنَّ العلم والعمل عند المسلم متلازمان، بل إن العلم ينزل منزلة العمل، كما رأينا في الحديث الشريف آنفاً، لأن العلم عمل القلب، وهو تفكر ذهني لا يحتاج إلى حركات الجوارح الظاهرة، ولأنه العمل المطلوب من أجل "إنتاج المعارف والوصول إلى الحقائق."^(٣)

والعمل في سياق معين يعني الإحاطة بحقيقة معينة، وممارسة هذه الحقيقة، "فإن معرفة الحقيقة تنزل من العمل منزلة العلم، ولا عمل بغير علم، والعكس صحيح."^(٤)

إن اقتران العلم والعمل شبيهه باقتران الإيمان بالإسلام، فالإيمان من جنس العلم، والإسلام الظاهر من جنس العمل، لذا فإن "الإيمان هو الإذعان إلى الحق: على سبيل التصديق له واليقين، ولهذا وصف الله الإيمان والعلم بوصف واحد فقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

(١) ابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ). جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الدمام: دار ابن الجوزي، ط ١، ١٩٩٤م، باب جمع في فضل العلم، ج ١، حديث رقم ٢١٤، ص ٢٠٢.

(٢) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (٥٠٢هـ). الذريعة إلى مكارم الشريعة، تعليق محمود بيجو، دمشق: دار اقرأ، ٢٠٠١، ص ٣٠٥.

(٣) عبد الرحمن، طه. سؤال العمل: بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢، ص ٢٣٢.

(٤) عبد الرحمن، طه. سؤال العمل: مرجع سابق، ص ١٣.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴿٢٧﴾ [الأَنْفَال: ٢٧]، وَوَجَلَ الْقَلْبُ هُوَ الْخَشْيَةُ لِلْحَقِّ عَلَى سَبِيلِ التَّصَدِيقِ بِالْيَقِينِ، هَذَا أَصْلُ الْإِيمَانِ.^(١)

٤- الأفكار والبرامج

في عالم السياسة في كثير من بلاد العالم حكومات ومعارضة، الحكومات تقدم برامج تقوم على أفكار، وتنفذ هذه البرامج؛ والمعارضة تقدم أفكاراً، وربما تقدم برامج كذلك، لكنها لا تحظى بالقبول لدى الحكومة، أو لدى المجالس التشريعية، لأنَّ عدد الأصوات التي تدعم رأي المعارضة لا يكفي لاتخاذ قرار يلزم الحكومة. فبقى أفكار المعارضة، أفكاراً وحسب، فهل يقلل ذلك من أهمية هذه الأفكار، وهل يعني ذلك أنَّ هذه الأفكار أقل وزناً وأضعف شأناً من أفكار الحكومة، أم أنها أضعف جنداً وحسب؟! ولكن موازين القوى قد تتحول، فتصبح المعارضة السابقة في السلطة وتباشر في تحقيق أفكارها وتنفيذ برامجها. وبذلك تكون الأفكار والبرامج هي ساحة المنافسة، ويميل الناس إلى ما يثبت نفعه منها، ويرغبون عمّا يثبت ضرره.

وفي بعض البلدان لا تملك المعارضة أن تطور برامج لتطوير أفكارها، لأنَّها محرومة من سبل الوصول إلى المعلومات التي تلزم لتطوير البرامج، فالحكومة تحتكر المعلومات، وتستبد بالقرارات، ومع ذلك يمارس إعلامها قذف المعارضة بالعجز عن تقديم البرامج البديلة، وتبقى الأفكار البديلة أفكاراً وحسب، مهما كانت قيمتها وراقيها. وتبقى ممارسات الحكومة هي النافذة حتى لو كانت الأفكار التي تستند إليها هذه الممارسات في غاية التخلف!

بعض الأفكار تكون في زمانها غير قابلة للتطبيق، وربما ينسب أصحابها إلى الجنون. وكثير من أفكار الخيال العلمي كانت بالأمس خيلاً محلقاً، لا ينفع إلا في التسلية والترفيه وسرد الحكايات، لكن بعضها اليوم حقائق عمّ نفعها، ألم

(١) الراغب الأصفهاني. الذريعة إلى مقاصد الشريعة، مرجع سابق، ص ١٢٦

يتحقق حُلم عباس بن فرناس الذي حاول تطوير فكرة الطيران،^(١) وحُلم الحسن بن الهيثم في بناء السد العالي على نيل مصر؟!^(٢)

كانت رسالات الله سبحانه إلى الرسل أفكاراً إصلاحية تتضمن رؤيةً للعالم، كان يراد لها أن تكون أفكاراً يعتنقها الناس، عن الخالق والمخلوقات، وعن الحياة وغاية الإنسان في الحياة، وكانت تتضمن نظاماً وعلاقات بين الناس يتحقق بها الأمن والرزق والعدل، وصور الخير العاجل في الدنيا، ويتحقق بها رضا الله عن أهل الاعتقاد والعمل، ليأجرهم من الخير والثواب الآجل في الآخرة. كانت هذه الرسالات أفكاراً، وممارسات عملية لهذه الأفكار، ولا يزال مئات الملايين من الناس من أتباع هذه الرسالات يحملون هذه الأفكار ويقومون بهذه الممارسات.

وكان الفلاسفة والمفكرون منذ أقدم العصور معينين بتقديم أفكار على مستوى عال من الطموح، وبعض هذه الأفكار السهلة تبقى أحلاماً على امتداد المكان والزمان، رغم إمكانية تحقيقها بالفعل، وبعض الأفكار لا يمكن

(١) عالم مسلم أندلسي (توفي عام ٢٧٤هـ) عرف في مجالات علمية متعددة فهو مهندس وفلكي وفيزيائي وكيميائي وعالم رياضيات. راقب باهتمام ودقة حركة أجنحة الطيور وأجرى عليها حسابات رياضية أخذاً بالاعتبار سرعة الحركة وأثر الرياح، وصنع أجنحة مشابهة لأجنحة الطيور وجرب الطيران بنفسه. فكانت هذه المحاولة واحدة من الأفكار، التي لم تنجح حينها ولكنها تحققت فيما بعد. انظر:

- الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط ٥، ١٩٨٠، ج ٣، ص ٢٦٤.

(٢) كان المصريون منذ أقدم العصور يعانون من الفيضان السنوي للنيل، وكان ذلك معروفاً لدى الحسن ابن الهيثم (توفي ٤٣٠هـ) العالم المسلم المتخصص في الفيزياء والرياضيات والهندسة، ففكر في بناء سد يحجز الكميات الفائضة من المياه ويجعلها في قنوات للري على مدار العام، فقال قولته المشهورة: "لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته." وسمع الحاكم بأمر الله الفاطمي بمقولته فاستدعاه، وطلب إليه أن ينفذ المشروع، فذهب ابن الهيثم إلى المكان الذي حدده في أسوان، وتهيب المسألة لضخامة الجهد المطلوب، فاعتذر وخاف على نفسه من غضب الحاكم فادعى الجنون حتى مات الحاكم. انظر:

- الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج ٦، ص ٨٣.

تحقيقها؛ لأنها تخالف طبيعة الأشياء وسنن الكون، وبعض الأفكار تجد من الإرادة والإمكانات ما يكفي لتحقيقها.

وخلاصة القول في علاقة الفكر بالإيمان والعلم والعمل، أن الفكر عنصر أساس في هذه المفاهيم الثلاثة. وقد لاحظنا أن العلم بمعناه القرآني الواسع يشمل ثلاثة مجالات: العلم بالأشياء، والعلم بالسلوك، والعلم بالعقائد، وكلها يمكن أن تكون علوماً ناعمة. وكذلك الفكر له ثلاثة تصورات، فهو نظر استدلالى، ينتقل من أمور معلومة إلى أمور مجهولة، ونظر تقويمي، يبحث في الأشياء من جهة انتفاع الإنسان بها، ونظر استشرافي يبحث في العواقب والمآلات، فهو في المحصلة:

- نظر في المصالح المادية للإنسان وهو التعقل أو التفكير
- ونظر في المصالح الخلقية وهو الاعتبار أو الافتكار
- ونظر في المصالح الروحية وهو التدبر أو التفكير^(١).

"ويترتب على هذا أن وجه الصلة بين العلم والفكر هو كالتالي:

أ- أن العلم يحتاج إلى الفكر لكي يحصل مشروعته، فالعلم لا يكون مشروعاً حتى يكون نافعاً، ولا يكون نافعاً حتى يحمل في طياته فكراً، وما يطلق عليه اسم العلم النافع، إنما هو العلم الذي يزدوج بالفكر.

ب- أن الفكر يحتاج إلى العلم لكي يحصل مصداقته، فالفكر لا يكون صحيحاً حتى يكون حقيقياً، ولا يكون حقيقياً حتى يحمل في طياته علماً، وما يدعى باسم الفكر الصحيح، إنما هو الفكر الذي يزدوج بالعلم.^(٢)

أما علاقة الفكر بالعمل فيلخصه الراغب الأصفهاني في حديثه عن أقسام الفعل، والفعل عنده أشمل من العمل، على الوجه الآتي: "الفعل الإنساني ثلاثة أضرب، نفساني فقط، وهو الأفكار والعلوم وما ينسب إلى أفعال القلوب، وبدني

(١) عبد الرحمن، طه، سؤال العمل، مرجع سابق ص ٣٠٧.

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٨.

وهو الحركات التي يفعلها الإنسان في بدنه كالمشي والقيام والقعود. وصناعي وهو ما يفعله الإنسان بمشاركة البدن والنفس كالحرف والصناعات.^(١) ومن البدهي أن الأفكار والعلوم التي تقوم القلوب بفعلها هي التي تحفز الإنسان على الفعل البدني، بما فيه من مقتضيات الإيمان والطاعة وحسن والخلق، كما تحفزه على الفعل الصناعي الذي يقتضي إتقان المهن والصناعات المفيدة والقيام بخدمة الناس بما تقتضيه حياتهم.

فالعلم يثمر الإيمان، ويتبع الإيمان عمل وتطبيق، كما يوحي بذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤] فعندما يعلم الذين أوتوا العلم أن هذا القرآن هو الحق الذي أنزله الله سبحانه، يؤمنوا أو يثبتوا على الإيمان وتخضع قلوبهم وتطمئن. وبذلك يستحق هؤلاء المؤمنون أن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم في دينهم ودنياهم.

خامساً: مصطلح الفكر الإسلامي

شاع استعمال مصطلح الفكر ليدل على العطاء المعنوي العقلي لشخص أو لأمة، فإذا قيل الفكر الغربي، فهو الحصيصة الكلية للعقل الغربي، من العلوم والآداب والفنون، ولكن المعنى ينصرف إلى ما يتميز به الفكر الغربي من المنطلقات المذهبية التي تُلَوِّن هذا الفكر بلون غربي. ويظهر هذا الفكر في الغالب في صورة نظريات تفسيرية كبرى، في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وكذلك في عناصر الثقافة العامة التي تسود المجتمع. يرى الغربيون مثلاً أن مرجعية الفكر الغربي هي منجزات الحداثة والتنوير المتمثلة في العقلانية، والحريات الفردية، والديمقراطية، وغير ذلك مما طرأ على الحياة الأوروبية منذ القرن السابع عشر. لكن الفكر الغربي في القرن العشرين أخذ يعتمد على خليط من منجزات الحداثة وما بعد الحداثة، وعلى الثقافة السياسية الأمريكية

(١) الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، مرجع سابق ص ٣٠٤.

على وجه الخصوص، التي أخذت تروج لما يسمّى بالتراث المسيحي اليهودي، بوصفه مرجعية أساسية للفكر الغربي.⁽¹⁾

ويمكن القول: إنّ مصطلح "الفكر الإسلامي" مصطلح حديث انتشر استعماله في القرن العشرين على وجه الخصوص، لتمييز ما يريده المفكرون المسلمون بديلاً أصيلاً عما أخذ ينتشر بين المسلمين من عناصر الفكر الغربي الوافد. ولم يعرف هذا المصطلح في التراث الإسلامي بهذا اللفظ رغم أن مفهوم الفكر والتفكير في القرآن الكريم والتراث الإسلامي، كما رأينا بقدر من التفصيل، مفهوم عريق وممتد على مساحة الزمن. وربما يعود السبب في عدم استعمال مصطلح "الفكر الإسلامي" إلى أن الحاجة لم تكن قائمة لتمييز ما هو إسلامي مما هو غير إسلامي، فواقع المسلمين كان واقعاً إسلامياً في الجملة سواءً في العقائد أو المعاملات، حتى الدولة لم تكن ثمة حاجة إلى إضافة لفظ الإسلامية إليها، فالخلافة الإسلامية، عرفت بأسماء عائلات الحكم: الأموية والعباسية والعثمانية، والمذاهب الإسلامية عرفت بأسماء التوجهات والمدارس الفكرية، فهي مذاهب فقهية، أو كلامية، أو صوفية. والمذاهب الفقهية عرفت بأسماء العلماء الذين أنشأوها، فهي حنفية، وشافعية، ومالكية، وحنبلية... والتمييز بين تنوع العقائد الإسلامية اتخذ عنوان الفرق، والتمييز بين العقائد الإسلامية وغير الإسلامية، اتخذ عناوين مثل الملل والنحل، ثم علم الأديان.

أما الفكر الإسلامي في مجمله فقد غلب عليه في الكتابات المبكرة في التاريخ الإسلامي استعمال مصطلحات أخرى مثل العلم والفقه. وهي مصطلحات سبقت إلى ميدان التدوين والتأليف. فاستعمل مصطلح الفقه مثلاً بالمعنى العام؛ أي مطلق الفهم أخذاً من نصوص القرآن الكريم، من مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لَيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَسْتَفْتَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]، ونصوص الحديث النبوي الشريف، من

(1) Wilcox, Clyde and Robinson, Carin. *Onward Christian Soldiers?: The Religious Right in American Politics*, New York: Threshold Editions, 2010, p. 13

مثل قوله ﷺ: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)،^(١) فكان الفقه في الدين يعني مطلق الفهم ويعني ما تهدف إليه عملية التعليم والتعلم. ومع ذلك فقد عُرف من أهل العلم من الصحابة من تميز بعلم من العلوم دون غيره، فكان أعلم الصحابة بالفرائض زيد بن ثابت، وكان أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وهكذا.

وقد تحول مصطلح الفقه بعد ذلك ليدل على معنى مخصوص هو العلم بالإحكام الشرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية، وهو ما يدل عليه مصطلح الفقه الأصغر، المعروف في كتب الفقه على المذاهب المختلفة، تمييزاً له عن مصطلح الفقه الأكبر الذي قصد به علم العقائد.^(٢)

ومع ذلك فقد عرف تاريخ الإسلام عبر القرون نماذج من العطاء الفكري الإبداعي في ميادين العلوم المختلفة، وذلك بالإضافة إلى ما عرف بعلم الملة من علوم الفقه والأصول وعلوم القرآن وعلوم السنة والسيرة، وعلوم اللغة وآدابها.

وللتمثيل على ما يمكن أن نعده بذوراً فكرية للعلوم الإنسانية والاجتماعية نذكر الجاحظ في القرن الثاني الذي كتب في الفكر الاقتصادي، والحرث المحاسبي في القرن الثالث الهجري الذي كتب في الفكر النفسي، والقابسي في القرن الرابع الذي كتب في الفكر التربوي، والماوردي في القرن الخامس الذي كتب في الفكر السياسي، والزرنجي في القرن السادس الذي كتب في الفكر التربوي، وابن خلكان في القرن السابع الهجري الذي كتب في الفكر التاريخي

(١) البخاري. صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين رقم الحديث ٧١، ص ٣٠ عن معاوية بن أبي سفيان

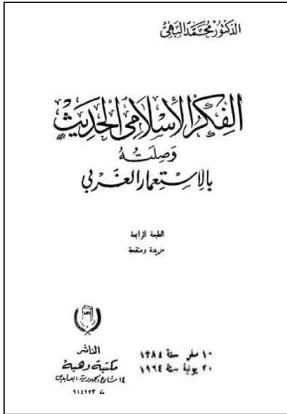
(٢) ينسب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب كتاب بعنوان "الفقه الأكبر". ويبحث الكتاب في مسائل الاعتقاد مثل اختلاف الصحابة، ومعاني الإيمان والإسلام، وفعل العبد، واختلاف الفرق في القضاء والقدر، صفات الله وكلامه وإرادته سبحانه ومسألة حدوث العالم... إلخ. انظر: - الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد (ت ٣٣٣هـ). شرح الفقه الأكبر، شرح الكتاب المنسوب للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ)، عنى بطبعته: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري. الدوحة: وزارة الشؤون الدينية، (د.ت.).

وابن خلدون في القرن الثامن الذي كتب في الفكر الاجتماعي والعمران البشري. ولكن الصورة الأكثر شهرة في وصف تطور العلوم والأفكار وتمايز مجالاتها في العالم الإسلامي كانت صورة انقسام العلوم إلى فئتين: علوم نقلية وعلوم عقلية، فعلم الفقه الأولى علوم شرعية ولغوية تعتمد الرواية والتفسير بالمأثور واستنباط الأحكام من النصوص، وعلوم الفقه الثانية علوم فلسفية نشأت في بداية أمرها نتيجة انشغال كثير من علماء المسلمين بترجمة علوم اليونان والفرس والهند والسرمان وغيرهم. وقد تكون هذه الصورة مجتزأة ومخلّة في وصف مراحل تطور العلوم والأفكار في المجتمع الإسلامي عبر القرون؛ إذ يمكن دراسة هذا التطور مع التمييز بين العلم والفكر. ويمكن كذلك التمييز بين خصائص المدارس العلمية أو الفكرية، المدرسة الفقهية والأصولية، والمدرسة التاريخية، والمدرسة الفلسفية، والمدرسة العرفانية، إلخ، ولكل مدرسة ظروفها التي ازدهرت فيها، وعوامل أسهمت في ازدهارها... إلخ.

ومع ذلك فإنه لا خلاف على أن الأمة الإسلامية تعرضت لموجات من الضعف والتمزق السياسي والفوضى الفكرية؛ مما أسهم في تدهور الحالة العلمية والفكرية في المجتمعات الإسلامية، وساعد على ذلك تعرض هذه المجتمعات للقوى الاستعمارية الأجنبية، منذ سقوط بغداد بيد التتار في منتصف القرن السابع الهجري. ومما أسهم في هذا الضعف كذلك الحروب الصليبية التي بدأت حملتها الأولى في أواخر القرن الخامس الهجري واستمرت طيلة قرنين من الزمان، ثم امتداد الصراع بين العالم الإسلامي والغرب الأوروبي حتى غزوة نابليون إلى مصر عام ١٧٩٨م.

وفي الوقت الذي كانت الحركة الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي في حالة تباطؤ، كانت أوروبا في حالة صعود علمي وصناعي متسارع، مكنتها في نهاية المطاف من استعمار معظم أجزاء العالم الإسلامي. ومع نهاية القرن التاسع عشر وجد العالم الإسلامي نفسه في حالة من التخلف عن العالم الغربي، وبدأ

بعض العلماء يتحدثون عن علاقة الشرق الإسلامي بالغرب الأوروبي، وحاجة العالم الإسلامي إلى الإفادة من علوم الغربيين، وبدأت تطرح أسئلة ملحة حول ما يؤخذ من هذه العلوم وما لا يؤخذ، وبدأت قضية النهضة تتبلور في عدد من بلدان العالم الإسلامي، وأخذت بعض الكتابات الإسلامية تتميز عن الكتابات الفقهية التقليدية، بقدر أكبر من النظر النقدي والتحليل العقلي، وأخذ مفهوم الفكر الإسلامي يتبلور مقابل الفكر الغربي.



ومع ذلك فإن التعليم الإسلامي التقليدي في الأزهر -مثلاً- لم يرحّب بكتابات الفكر الإسلامي، لذلك أنشئت كلية دار العلوم في القاهرة أساساً لتكون بديلاً عن الأزهر في تعليم العربية والإسلام، قبل أن تضم إلى جامعة القاهرة. ولذلك تخرج في هذه الكلية كثير من العلماء الذين عرفوا في ميدان الفكر الإسلامي، وكانت كتبهم كتباً في الفكر الإسلامي في ميادين

عديدة من الدراسات الفقهية والقرآنية، وغيرها من الدراسات الأدبية والسياسية والاقتصادية. ولعلّ من الإنصاف هنا الإشارة إلى أن عدداً من علماء الأزهر كانوا مفكرين كباراً، نذكر منهم على سبيل المثال الدكتور محمد البهي.

ولا يزال من أهل العلم في الدائرة الإسلامية من لا يرتاح للحديث عن الفكر الإسلامي، مفضلاً الحديث عن العلوم الإسلامية في أطرها التقليدية التي ظهرت في القرون الخمسة الأولى. وسوف نجد من يرى أنّ العلم هو ما قال الله وقال رسوله، وسوف نجد من يرى أنّ العلم هو علم العقيدة، وغيره من العلوم تبّع له، ومن يرى أنّ العلم هو الفقه، والأصول هي منهج لاستنباطه، وسوف نرى من يعطي الأولوية لتحقيق المخطوطات ونشرها، وهكذا. وسوف نجد أن كثيراً من هؤلاء يرون مصطلح الفكر هو نكوص عن العلم الحقيقي، وأنّ التركيز

على الفكر الإسلامي القائم على النقد العقلي والنظر المقاصدي، هو استخفاف بالنصوص وهروب من استحقاقاتها.

ومع كل هذا التحفظ لدى فئات من أهل التخصص في علوم الشريعة التقليدية، فإنّ نماذج من المؤلفين والكتاب والنشطاء لا يُشك في انتسابهم الإسلامي، ومرجعيتهم الإسلامية، وجهادهم وتضحياتهم من أجل رفعة شأن الإسلام والدفاع عن قضايا المسلمين، أنجزوا إنجازات مقدرة من العطاء العلمي والفكري والعملي، وجاءوا من تخصصات متنوعة، فكان منهم عسكريون محترفون، وكان منهم مهندسون وأطباء، وعلماء من تخصصات الكيمياء والفيزياء وعلم النفس وغير ذلك.^(١)

إن هذا التنويه بالشخصيات الإسلامية التي عرفت في مجال "الجهاد الفكري" منذ مطلع القرن العشرين، ينبغي أن لا يلفت انتباهنا عن حقيقة أن بعض من عُرف في ميدان الفكر الإسلامي، أو حاول أن يعرّف بنفسه في هذا الميدان، كانوا دخلاء على الفكر الإسلامي، وأشعلوا في ميدانه معارك هامشية، لكنها استغرقت كثيراً من الجهد والوقت، وربما كانت جهود بعضهم ناتجة عن اجتهادات خاطئة، ومحاولات مخلصّة ينقصها العلم، ولكن بعضها الآخر كان عملاً مدبراً ماکراً، يقصد به الإسهام في إحداث البلبلة والفوضى الفكرية في المجتمعات الإسلامية.

سادساً: الفكر والعاطفة

البناء الفكري ليس جدلاً فكرياً جافاً، خالياً من العاطفة والمشاعر، وإنما هو إيمان يدفع إلى العمل؛ إنّه حالة عقلية ووجدانية تنبثق عنها أشكال من السلوك

(١) من حقّ هؤلاء أن يُشار إليهم، ويُعرّف بهم، ولا سيّما للأجيال الجديدة من أبناء الأمة. ويستطيع القارئ أن يتذكر عدداً من أسماء الشخصيات الفكرية في بلده، وربما يلاحظ أنّ التميز في الفكر الإسلامي لم يقتصر على أهل العلم والتخصص في علوم الشريعة، ولكنّه شمل علماء ومفكرين من مختلف التخصصات، وربما يحلو للقارئ أن يجري تمريناً ذهنياً يعقد فيه مقارنة بين عدد المفكرين من فئة التخصص الشرعي وغيرهم من التخصصات الأخرى.

والتعامل مع الأفكار والأشياء والناس، وإذا كان الفكر هو وَعْيُ الإنسان بذاته وبالمحيط من حوله، فإنّ مشاعر الإنسان هي عنصر أساس من عناصر الذات البشرية، فالوعي على هذه المشاعر لا يقل أهمية عن الوعي بالعلم والمعرفة اللازمة لاتخاذ القرار المناسب، أو القيام بعمل محدد.

هل الأفكار مجردة عن المشاعر، وهل يمكن تجريدها عنها، وهل ثَمَّة مصلحة في أن يحدث هذا التجريد لو أنه كان ممكناً؟!

عندما تحكّم على فكرة ما بأنها جيدة أو سيئة، وعندما تُقرّر أنّ تلك الفكرة تتّصف بأنها إيجابية أو سلبية، ألا يعني ذلك أنك تجيب عن سؤال: كيف تُشعر إزاء تلك الفكرة؟!

عندما يكون عليك أن تقوم بعمل من الأعمال، ألا تُشعر بفرق كبير، بين أن تُفرض عليك فكرة معينة لتقوم بذلك العمل بموجبها، وأن تختار بنفسك تلك الفكرة؟!

كتب محمد عبد الله دراز تحت عنوان: "إفناع العقل وإمتاع العاطفة": "وفي النفس الإنسانية قوتان: قوّة تفكير، وقوّة وجدان؛ وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداها فتنبّ عن الحق لمعرفة، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجّل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطيّر إلى نفسك بهذين الجناحين. فيؤتيها حظّها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً... وكل امرئ حين يُفكر فإنّما هو فيلسوف صغير. وكل امرئ حين يُحسّ ويشعر فإنّما هو شاعر صغير... فالذي ينهك في التفكير تتناقص قوة وجدانه، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره، ... هذا مقياس تستطيع أن تبين به في كل لسان وقلم أي القوتين كان خاضعاً لها حين قال أو كتب: فإذا رأيتَه يتّجه إلى تقرير حقيقة نظرية، أو وصف طريقة عملية، قلت: هذا ثمرة الفكرة، وإذا رأيتَه يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيرها، وقبضها أو بسطها، واستشارة كوامن لذتها أو ألمها، قلت: هذا ثمرة العاطفة، وإذا رأيتَه قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر، فتفرّغ له بعد ما قضى

وطرّه من سابقه، كما ينتقل من غرض إلى غرض، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه.

"وأما أن أسلوباً واحداً، يتجه اتجاهها واحداً، ويجمع بين يديك هذين الطرفين معاً، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً، أو كما يسري الروح في الجسد، والماء في العود الأخضر، فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، ولا هو من سنن الله في النفس البشرية... ذلك ربُّ العالمين... وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان، ولا يبغيان... وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت. ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة؟ أو لا تراه في معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب، من تشويق وترقيق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب، وتبكيه وتأنيب؟ يث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها. ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّشْتَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۗ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۗ﴾ [الزمر: ٢٣] (١)

روى البخاري في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: "لا يقضينَّ حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان" (٢) وهذا الحديث الشريف أساس في فهم العلاقة بين الفكر والعاطفة. وروى الإمام أحمد في الموضوع نفسه قوله ﷺ: "حُبُّك الشيءَ يُعْمِي ويُصِم". (٣)

(١) دراز، محمد عبد الله. النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن الكريم، تقديم عبد العظيم المطعني، الكويت: دار القلم، ط٩، ٢٠٠٥م، ص ١٤٨-١٥١

(٢) البخاري. صحيح البخاري. مرجع سابق، "حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عبد الملك بن عمير سمعت عبد الرحمن بن أبي بكر قال: كتب أبو بكر إلى ابنه - وكان بسجستان - بأن لا تقضي بين اثنين وأنت غضبان، فأني سمعت النبي ﷺ يقول: "لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان." كتاب الأحكام. باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، حديث رقم ٧١٥٨ صفحة ١٧٦٨.

(٣) أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م، كتاب الطب، باب في الهوى، عن أبي الدرداء، حديث رقم: ٥١٣٠، ج٤، ص ٣٣٦.

تقول مؤلفة كتاب "إدارة التفكير": إنَّ المشاعر تُجسّد العلاقة بين العقل والروح. وهذه العلاقة تعبر عن الوعي بالذات: "فالمفتاح هو الوعي بالذات؛ إنَّه التحكم في الذات؛ إنَّه التركيز على الهدف الذي تحدُّه الذات، وهذا يتطلب منك أن تقدّر المعادلة التي تكوّن ذاتك؛ إنَّها العلاقة الوثيقة بين العقل والروح والجسد. أليست هذه هي الحالة الطبيعية التي تشعر فيه بالروعة والسعادة، وتشعر بقدرتك على التركيز وأنتك مفعم بالطاقة، والقوة، والثقة؟! ألم تلاحظ أن الأمور التي كانت تغيظك قد اختفت، وأنتك تستطيع أن تفكر بوضوح؟!"⁽¹⁾

وتشبه المؤلفة عملية الوعي بالذات وفق هذه المعادلة، برقصة دائرية يمكن أن تبدأ هذه العملية في أي موقع في هذه الدائرة. فقد يختار الفرد أن يبدأ بتطوير الأفكار وهذا يحسّن من حالته النفسية، ويجعله أكثر نجاحاً في اختيار طعامه وشرابه، وفي طريقة تناوله، وفي ممارسته للتمارين الرياضية التي تنمي روحه. وقد يختار أن يبدأ بتنمية طاقته الجسدية مما يساعد على تنمية روحه، وينعكس ذلك على وضوح أفكاره وعواطفه، وقد يختار أن ينشغل بالروح أولاً، فينعكس ذلك إيجابياً على أفكاره وطاقته النفسية والجسدية، المهم: "عليك أن تختار أن تبدأ، عليك أن تبدأ وحسب!"⁽²⁾

من الأمور المعروفة أن الإنسان عندما يكون قلقاً، أو غاضباً، أو مُحبطاً، أو خجولاً، ويصارع مشاعر الألم، وخبرات المرارة، كل ذلك حالات تعيق القدرة على التفكير المتزن. وثمة مراجع وكتب كثيرة تتحدث عن العلاقة بين الأفكار والمشاعر، لا سيما في ميدان علم النفس العلاجي. وأحد هذه الكتب بعنوان: "الأفكار والمشاعر: كيف تضبط مزاجك النفسي

(1) Lore, Mary. *Managing Thought: Think Differently. Think Powerfully. Achieve New Levels of Success*, New York: McGraw-Hill, 2010. 204.

(2) Ibid., p 225.

وحياتك." (1) ويقوم الكتاب على رؤية بسيطة تشكل قلب العلاج المعرفي للسلوك، "تستطيع أن تغير مشاعرك بتغيير أفكارك".

إن حالات الشعور التي تتاب الإنسان مثل القلق، والغضب، والخوف، والإحباط، والعجز عن الوصول إلى الكمال، والعادات السيئة، والخجل، إلخ، تقود الإنسان إلى مشكلات كثيرة وعجز عن ممارسة الحياة بصورة طبيعية، وربما تقود بعض الناس إلى الانتحار، مع العلم بأن لكل حالة من هذه الحالات إمكانيات علاجية مناسبة. والكتاب في مجمله تمارين ترشد الإنسان إلى كيفية ضبط مشاعره المرصية، والتحكم بما يصاحبها من أعراض جسدية مؤلمة، وممارسة معالجاتها بالتمارين المناسبة، حتى يتمكن من القيام بأعماله ومهامه بصورة طبيعية، ويتخذ قراراته في الحياة بصورة ناجحة.

ويشير مؤلفو الكتاب إلى أن مئات البحوث التي أجريت خلال الثلاثين عاماً الماضية قد أثبتت هذه "البصيرة"، وأنه يمكن بالفعل تطبيقها لتحرير الإنسان من عدد كبير من المشكلات أكثر من أي وسيلة علاجية أخرى. (2)

ومن المهم أن يراقب الإنسان بقدر من الهدوء كيف تقوم المشاعر بتشويه التفكير، وتقوده إلى مغالطات في تفكيره تعمق من المشاعر النفسية التي بدأ بها. فإذا ما سلك وصفات العلاج المناسبة، فإن ذلك سوف يعينه أن يفكر تفكيراً متزناً راشداً ويتخذ قرارات صائبة. (3)

(1) McKay, Mathew; Davis, Martha and Fanning, Patrick. *Thoughts and Feelings: Taking Control of Your Moods and Your Life*, New Harbinger Publications; Fourth Edition, 2011.

(2) Ibid., p 2.

(3) Ibid., p 115.

ومن شعر إيليا أبو ماضي:

أيقظ شعورك بالمحبة إن غفا لولا الشعورُ الناسُ كانوا كالدمى
لاح الجمالُ لذي نُهيَّ فأحبُّه ورآه ذو جهلٍ فظنَّ ورَجَمَا
لا تظلينَّ محبةً من جاهلٍ المرءُ ليس يُحبُّ حتى يُفهما

ويرى مالك بدرى أن الحالة الانفعالية هي أحد الأبعاد المؤثرة في تفاوت الأفراد في درجة التفكير، "فالتفكير يحتاج إلى الطمأنينة والهدوء النفسي والصحة الجسمية والنفسية... وهناك العديد من الأبحاث التجريبية التي تؤكد أن التركيز الذهني وحل المشكلات، يضعف مع ازدياد التوتر والقلق." وتكون الحالة النفسية أحياناً حالات مَرَضِيَّة واضحة، فالعصابيون مثلاً تكون قدرتهم على التفكير والتدبر ضعيفة، والذين ابتلاههم الله بالذهان أو الجنون أو التخلف العقلي أو بذهان الشيخوخة (الحنن) لا يستطيعون التفكير والتدبر.^(١)

سبق أن ذكرنا بعض الأمثلة على مواقف التفكير والتذكر والتدبر في القرآن الكريم، لكن أمثلة العواطف والمشاعر والانفعالات في القرآن الكريم لا تقل أهمية في توجيه النفس وتوازن الشخصية البشرية، فما لم تتفاعل المدركات العقلية والمعتقدات الفكرية مع الحالة الانفعالية، فإنه يخشى أن يغلظ القلب، وتضعف علاقات المودة والأخوة والرحمة بين الناس. والقرآن الكريم مليء بتأكيد المحبة، والمودة، والرفقة، والبر، والإحسان، والرحمة: بين الزوجين، وبين الوالدين والأبناء، وبين أولي القربى، وبين الإخوة في الإيمان، وحتى بين الشركاء في الإنسانية، فضلاً عن الرحمة والرفقة بالحيوان. وقد امتنَّ الله سبحانه على الرسول

(١) بدرى، مالك. التفكير من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية. هيرندن-فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م، ص ٩٠-٩١

ﷺ، بأن جعله لِيَنَّ القلب تجاه أصحابه، فجمعهم حوله، وطلب إليه أن يعفو عنهم ويستغفر لهم: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ونذكرُ في هذا المقام أننا أوضحنا من قبل علاقة الفكر بالإرادة والعمل كما نجدها في التراث الإسلامي.

ومن المهم أن لا ننسى أن التمييز بين العقل والقلب، من حيث الوظائف -كما نجدها في معظم المراجع الحديثة- لا يبدو متفقاً مع ما نفهمه من القرآن الكريم. فهذه المراجع تجعل العقل أداة للفهم والإدراك والعلم والمعرفة، بينما تجعل القلب مكاناً للمشاعر والعواطف والانفعالات، وتجعل موقع العقل في الدماغ، وتتحدث عن تشريح الدماغ، وتحدد مواقع مختلفة فيه لأنواع محددة من الإدراك. وثمة دراسات أخرى تربط بين العقل والقلب في نوع من التفاعل، ولكنها دراسات خجولة إذا قورنت بالنمط العام من الدراسات التي تتحدث عن الدماغ.

إن القرآن الكريم حاسمٌ في اعتبار القلب أداة الفهم والفقهِ والعقل والإدراك، ومن ثم الإيمان أو الكفر، فكما أن العين أداة الإبصار، والأذن أداة السمع، فإن القلب أداة الفقه والعقل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. فالقلوب التي في الصدور هي التي تعقل وليس الدماغ الذي في الرأس. وفي آية سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، نجد أن القلب هو الذي يفقه وليس الدماغ. وفي آية المائدة: ﴿يَأْتِيهَا الرِّسْوَلُ لَا يَخْرُكُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] نجد أن القلوب هي التي تؤمن، والقلوب التي لا يدخلها الإيمان تكون قلوباً

غُلْفًا طبع الله عليها بسبب الكفر، فلا يدخلها الإيمان. وذلك صريح قوله سبحانه في سورة النساء: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بَيَّاتٍ اللَّهُ وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بَغِيرِ حَتَّى وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفًا بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وهكذا فإن القلب هو جهة حمل المسؤولية، سواءً في الفهم والفقهِ والإدراك والتعقل؛ أي فيما يشار إليه بالعلم والمعرفة والفكر، أو في الحب والكره، والخوف والرجاء، والقنوط والأمل، والرعب والطمأنينة، وغير ذلك من الانفعالات والمشاعر والعواطف. وكل ذلك نجده صريحاً في القرآن الكريم. وليس عجباً أن نجد حديث رسول الله ﷺ حاسماً أيضاً في أن مناط الصلاح والفساد هو القلب، كما ورد في الحديث المتفق على صحته: (ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب).^(١)

إنَّ مرجعية النصوص الشرعية، من قرآن كريم وسنة نبوية، في مسؤولية القلب عن الإيمان والكفر، والهداية والضلال، ليست موضع شك. أما الدراسات العلمية والتجريبية في علم النفس، وعلوم الأعصاب، والتشريح، والفيزيولوجيا وغيرها من العلوم الطبية... فإنها تقدم معرفة ظنية، تتقدم مع الزمن، ويصلح بعضها للاستنتاج به في مرحلة معينة، ثم يتواصل التقدم، فنفهم شيئاً مختلفاً عما فهمنا من قبل. وهذا لا يعنى إهمال ما تفيدنا به هذه العلوم، التي ربما تزيدنا معرفة و يقيناً في فهم الآفاق الكونية والأنفس البشرية: ﴿سَأْتِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفُرْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] بل على العكس من ذلك إن التبحر في الدراسات العلمية هي من باب السير والنظر والسعي، وكلها من متطلبات الاستخلاف الحق في هذه الأرض، وأي تقصير في القيام بهذه الأمانة هو تعبير عن التقصير في استلهاام الهداية الذي يدعو إليه القرآن الكريم.

(١) البخاري. صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب بدء الوحي، باب فضل من استبرأ لدينه، ص ٢٠، حديث رقم (٥٢).

خاتمة :

تتبع هذا الفصل مادة الفكر في المصادر الإسلامية، وتبين لنا أن القرآن الكريم اختار أن يعرض فعلَ الفكر في أعلى مستوياته وهو التفكير، وتبين لنا أن الفكر عنصر أساس في كل من الإيمان والعلم والعمل، وأن الفكر هو كذلك فعل أساس في تحقيق القيم العليا التي جاء الدين من أجلها، وهي التعريف بالله الحق (التوحيد)، وبناء الشخصية الإنسانية والمجتمع الإنساني على أساس التقوى (التزكية)، وقيام الحضارة البشرية في جوانبها المعنوية والمادية (ال عمران).

ولاحظنا أنه يندر أن نجد مؤلفاً من مؤلفات التراث الإسلامي لا يؤكد ضرورة التفكير والتدبر، بل إن هناك بعض المؤلفات جعلت من الفكر موضوعاً لها، أو فصلاً من فصولها، فتحدثت عن الفكر والتفكير، والعقل والتعقل، والذكر والتذكر. كما فعل الحارث المحاسبي والغزالي وابن القيم وغيرهم. كما لاحظنا أن تاريخنا الإسلامي عرف عبر القرون نماذج من العطاء الفكري الإبداعي في الميادين كافة، فكانت بذوراً فكرية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، منذ الجاحظ ومروراً بالمحاسبي والقاسبي، ثم الماوردي والزرنجي، ووصولاً إلى ابن خلكان وابن خلدون وغيرهم، كل في مجاله وتخصصه. وقد استدركنا على بعض التصورات الخاصة بالفكر البشري، لا سيما تلك التي تفصل بين الفكر والعاطفة، أو بين العقل والقلب، أو تلك التي اختلطت على أصحابها معرفة أداة الفكر والعقل في الكيان البشري.

نأمل أن نكون قد مهدنا بهذا الفصل للحديث عن البناء الفكري لدى الإنسان الذي سوف يتصف بالفكر، فيكون مفكراً، وتحقق فيه مستويات من البناء الفكري، والعوامل المؤثرة في خصائص هذا البناء، وستكون الفرصة سانحة لتعرّف الحدود والمساحات المشتركة بين ذلك

الإنسان الذي اكتمل بنيانه الفكري، فجاز وصفه بالمفكر، والآخر الذي يوصف بأنه عالم أو مثقف أو فيلسوف أو غير ذلك من الصفات.

الفصل الثاني

البناء الفكري ومستوياته

مقدمة

أولاً: البناء الفكري، بناء ولكنه في الفكر

ثانياً: مراحل بناء الفكر ومستوياته

ثالثاً: حوار العلم والفكر

رابعاً: حركة الفكر وفكر الحركة

خامساً: المدارس الفكرية

خاتمة

البناء الفكريُّ ومُستوياته

مقدمة:

تناول الفصل الأول من الكتاب مفهوم الفكر والمفاهيم ذات الصلة المباشرة بهذا المفهوم، وذلك في المصادر الإسلامية على وجه التحديد من قرآن كريم، وسنة نبوية، واجتهادات العلماء. ويتخصص هذا الفصل الثاني بالحديث عن البناء الفكري، وتمثلاته في الاصطلاحات المعاصرة. وينظر إلى البناء الفكري، بوصفه "عملية" تتم وفق تصور معين، وتتم بمراحل متتابعة، وتصل إلى مستويات متعددة، يكون كل مستوى منها علماً على شخصية من الشخصيات المعروفة في الثقافة المعاصرة، فهناك المفكر، والمثقف، والعالم، والداعية، والمصلح، والفيلسوف، ولكل منهم بناؤه الفكري.

كما ينظر الفصل إلى البناء الفكري بوصفه تغيراً في الزمان، وحركة في المكان، وهو وصف للفرد، ووصف للجماعة، ووصف للأمة. ولذلك تناولنا بالمعالجة العلاقة بين حركة الفكر وفكر الحركة، وتحدثنا على البنى الفكرية للحركات والمدارس الفكرية وما يميز كلاً منها عن غيرها.

وقد شهد التاريخ الإسلامي استخداماً مكثفاً لمصطلحات مثل العلم والفقہ، بصورة تجعل بعض الناس ينفرون من استخدام مصطلحات أخرى مثل مصطلح الفكر مؤشراً على قيمة العطاء الذي يحمله الفرد أو الجماعة، ولذلك جرى التأكيد على أننا لا نود أن نجعل هذه المصطلحات متقابلة وبديلة لبعضها بعضاً. فالسياق هو الذي يحدد المصطلح المناسب، ولكل مصطلح قيمته والمقام الذي يصلح له أكثر من غيره، وسوء الاستخدام يمكن أن يقع على أي مصطلح.

وقد لاحظنا أن التفاوت في مستوى البناء الفكري لا يتوقف على الأفراد،

بل يمكن أن يطال الجماعة والمجتمع والأمة، وأن هذه التفاوت يمكن أن يوصف بين حَدِّي الغنى الفكري والإفلاس الفكري. والتفاوت لا يقتصر على مستوى البناء الفكري، بل يكون أيضاً في مدى الاهتمام بعالم الأفكار، بالمقارنة بالاهتمام بعالم الأشياء أو عالم الأشخاص.

وقد مرت الأمة في تاريخها بمراحل ودورات من التقدم والتخلف في الاجتهاد والتجديد الفكري. ولذلك وجدنا أن جهود الإصلاح الفكري الإسلامي لم تتوقف عبر العصور. ولم يخل هذا التاريخ كذلك من حركات شابتها انحرافات فكرية، أشغلت الأمة واستنزفت طاقاتها الفكرية والعملية.

أولاً: البناء الفكري، بناءً ولكنه في الفكر

البناء الفكري، عنوانٌ من كلمتين: بناء، وفكر، وهما كلمتان مفتاحيتان في النشاط البشري، كل منهما مصدر لفعل، وكل منهما يشير إلى الفعل وإلى نتيجة ذلك الفعل؛ فالفكر موضوع يتم بناؤه، والبناء عمل موضوعه الفكر. والعمل بالفكر من أشرف الأعمال، والفكر لا يدخل إلى الإنسان جسمًا كاملاً، ولا يأخذه الفرد ممن يعطيه إياه كتلة كاملة، لتنتقل ملكيته من المُعْطِي إلى الآخِذ، إنما يَبْنِيهِ الإنسان بناءً، لبنةً بعد أخرى.

مفهوم البناء يصاحبه التخطيط والتصميم والتنظيم، ويقابله التكديس والتجميع العشوائي، ومفهوم الفكر يصاحبه العلم في تَمَكُّن، والثقافة في إحاطة، والوعي في رشد، ويقابله تقليد بلا علم، وتبعية بلا هدى، وتعصب أعمى دون نظر، فالذي لا يملك فكراً إنما يقوم بما يقوم به من أعمال انقياداً لهوى متَّبِع، سواءً كان هوى نفسه، أو هوى غيره.

البناء عملية، وهو ناتج لهذه العملية؛ عملية تتم بمنهج وطريقة، وناتج لهذه العملية يظهر بخصائص ومواصفات محددة. عملية البناء تعنى عملية الانتقال من حالة قائمة إلى حالة منشودة؛ فثمة هدف، وخطة للوصول إلى الهدف، يتم تنفيذها في خطوات محددة. أما البناء بمعنى الناتج من عملية البناء، فهو تركيب

من مواد أو مكونات، بمقادير ونسب، تتصل ببعضها بعلاقات وروابط، وتظهر في صورة تنظيم محدد يمكن وصفه وصفاً نوعياً وكمياً.

ولتقريب مفهوم البناء الفكري إلى الذهن يمكن المقارنة بين البناء المادي والبناء الفكري من حيث ضرورة وجود تصور مسبق في الحالتين، للغرض من البناء ومواده وعناصره وطريقة بنائه والخطة الزمنية لتنفيذه... إلخ، ومع ذلك فإن ثمة فوارق أساسية بين النوعين من البناء تختص بالتمايز الجوهرية بين المادة والإنسان، فالبناء الفكري بناء للإنسان يتصف بالحركة والتطور والتغير والنمو من داخل الإنسان، وتشكل شخصية الفرد الإنساني من بنائه الفكري، وبنائه النفسي. وفي الوقت الذي يختص البناء الفكري بالقناعات العقلية والمعتقدات، وما تتضمنه من حقائق ومفاهيم ومبادئ ونظريات، فإن البناء النفسي يختص بالجانب الانفعالي والوجداني من الإنسان، حيث تتحكم الإرادة والدوافع والمشاعر في السلوك العملي للإنسان، وكما أن الإنسان يحتاج إلى تربية وتنمية في الجانب الفكري - العقلي، فإنه يحتاج إلى تربية وتنمية في الجانب النفسي - الوجداني، ولكل من الجانبين مواد وطرقه في التربية والتنمية.

والفكر هو نتاج عملية التفكير، وعملية التفكير نشاطٌ ذهني داخلي يقوم به الإنسان بصورة واعية أو غير واعية، وهذه العملية تتضمن مرور الخواطر والتخيلات والمدرجات الحسية أو الانفعالية، التي تسبق أو ترافق قيام الإنسان بأي سلوك أو تصرف خارجي. لذلك فالفكر جهد بشري يلحقه الصواب والخطأ، فلا يتصف بالعصمة ولا القداسة. ويقدر ما يكون هذا الفكر مستنداً إلى نقلٍ صحيح وعقلٍ صريح، ومنسجماً مع الطبائع والوقائع، يكون الفكر أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ.

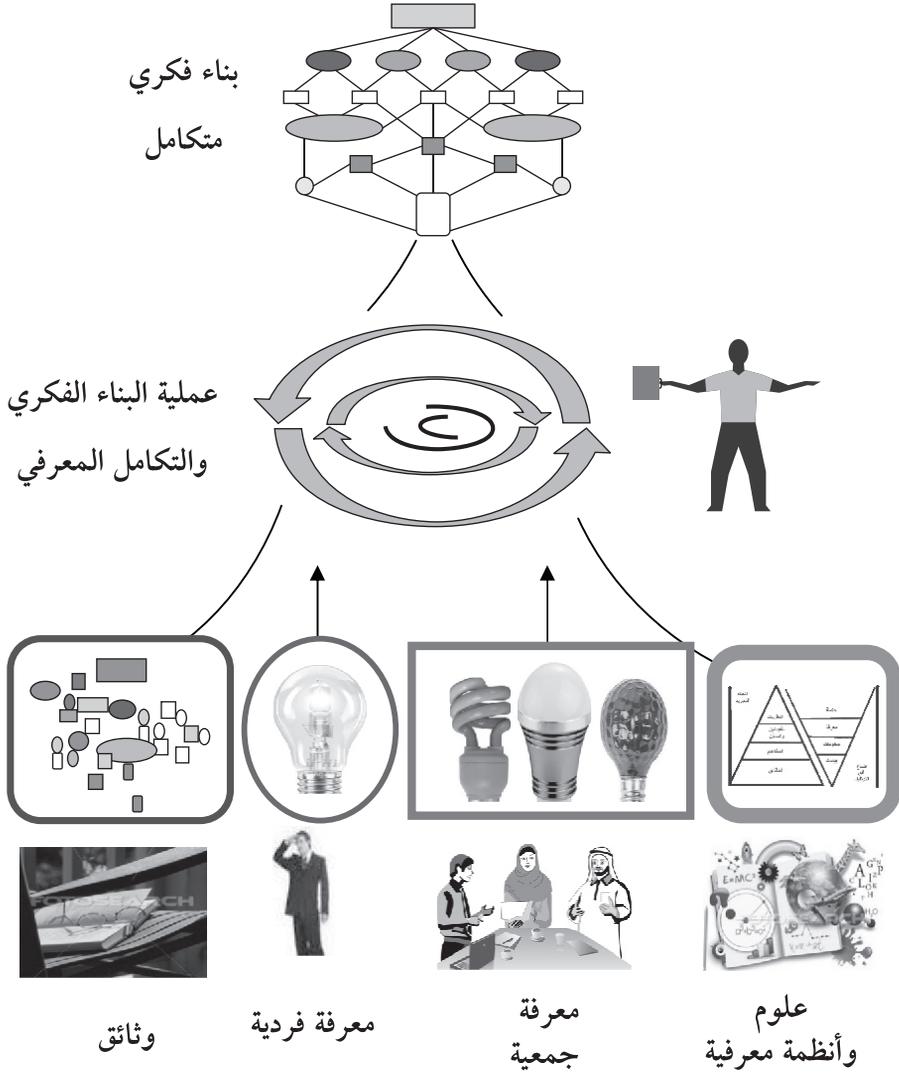
ومع أن الإنسان يقوم بالتفكير بصورة دائمة، فإن فهم عملية التفكير والأعضاء التي تقوم بها يحتاج إلى قدر كبير من الجهد، وكثير من جوانب هذه العملية لا يزال غامضاً، وبحوث علم النفس الارتقائي وعلم نفس الأعصاب، ونظريات

التعلم البشري... تقدم إشارات غير كافية في بيان دور الدماغ والقلب وعوامل البيئة الخارجية. ومع ذلك فقد تم التمييز بين أنواع من التفكير لكل منها دوره وأهميته في تكييف حياة الفرد الإنساني وبناء مقومات المجتمع الإنساني، ومن هذه الأنواع: التفكير العميق، والتفكير المتشعب، والتفكير الإبداعي، والتفكير المقاصدي، والتفكير الاستراتيجي، والتفكير النقدي، والتفكير السببي، إلخ.

وتَمَيَّزُ البشر بالفكر أمرٌ مشهود ومعروف منذ أقدم الأزمان؛ لأنه صورةٌ من صور وَعْيِ الإنسان بذاته وبما هو خارج عن ذاته، يقول ابن خلدون: "اعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى مَيَّزَ البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأً كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه؛ ذلك أن الإدراك -وهو شعور المدرك في ذاته مما هو خارج عن ذاته- هو خاص بالحيوان فقط من بين سائر الكائنات والموجودات، فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها، بما ركَّبَ الله فيها من الحواس الظاهرة: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسِّه، وذلك بقوى جعلت له في بطون دماغه، ينتزع منها صور المحسوسات ويجول بذهنه فيها، فيجرد منها صوراً أخرى. والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحسِّ، وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب، وذلك معنى الأفتدة في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْتِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]. والأفتدة جمع فؤاد وهو هذا الفكر." (١)

وبين الفكر الذي هو فطرة طبيعية في الإنسان، والمنطق العقلي الذي هو أمر صناعي، واللغة البشرية التي يكتسبها الإنسان بالتعلُّم، صلةٌ وثيقة. يقول ابن خلدون: "الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته... ثم إنَّ الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية، تصفُّه لتعلُّم

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن. مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ج٣، ص ١٠٠٨-١٠٠٩.



مخطط تمثيلي يوضح مصادر البناء الفكري وعملية البناء

سدادَه من خطئه... فالمنطق أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها... ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلّم، وهي معرفة الألفاظ ودلالاتها على المعاني الذهنية، تردها من مشافهة الرسم بالكتاب^(١)، ومشافهة اللسان بالخطاب...^(٢)

ويميز عالم النفس الإسلامي مالك بدري بين التفكير بوصفه عملية مرور الخواطر في الذهن البشري بصورة تقليدية عادية، والتفكير الذي عدّه منزلة أرقى من التفكير، فهو جهد مقصود للوصول إلى الحقيقة في أمر يطلب الإنسان إدراكه، وذلك عن طريق تعقّل الأمر، وتصرف القلب، وطلب الدليل والتأمل فيه. والتذكّر نوع من التفكير يتضمن استحضار الذهن ما كان يعلمه الإنسان عن الموضوع، وما يقابله ويقاربه فلا يغفل، وليكون التذكر موعظة وتبصرة. أما التدبّر، فإنّه يتجاوز كل ذلك إلى النظر في عواقب الأمور.^(٣)

ثانياً: مراحل بناء الفكر ومستوياته

يتعمق "مالك بدري" في قراءة مادة التفكير في التراث الإسلامي، ثم يستحضر حال الإنسان المؤمن في علاقته بالله عز وجل، ويستنتج من خلال ذلك وجود أربع مراحل يمكن أن يمر بها التفكير البشري. يشترك سائر الناس من مؤمنين وغير مؤمنين في المرحلتين الأولى والثانية، وينتقل المؤمنون إلى المرحلة الثالثة، وينتقل بعضهم إلى المرحلة الرابعة، ولا يطلق "مالك بدري" أسماء محددة على المراحل الثلاثة الأولى، باستثناء المرحلة الرابعة التي يسميها

(١) أي فعل الكتابة.

(٢) ابن خلدون. مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ١١١٢-١١١٣.

(٣) بدري، مالك. التفكير من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية. مرجع سابق، ص ٣٥-٤٧. ينصح بدراسة هذا الكتاب الصغير، ففيه بيان تفصيلي لعلاقة الفكر بالتفكير والتفكير والتدبر والتذكر، وهي دراسة تفصيلية تجمع إلى النصوص الدينية معطيات التراث الإسلامي وعلم النفس المعاصر ونظريات التعلّم، وعلاقة التفكير باللغة، وعلاقة التفكير بما هو معروف عن الطريقة العلمية، في بحوث العلوم المادية والتطبيقية.

مرحلة الشهود.

في المرحلة الأولى يتفكّر الإنسان في المعارف التي يكتسبها بالإدراك الحسي المباشر، عن طريق الحواس، أو عن طريق تخيل الوقائع الحسية، أو عن طريق الظواهر العقلية المجردة، فيدرك دلالات هذا الإحساس ومعانيه، ويتبين القوانين والعلاقات القائمة بين الأشياء والأحداث والظواهر، ويكتسب من ذلك علماً نظرياً، ويقيم على أساسه تطبيقات عملية مفيدة. وهي معرفة مهمة للغاية بطبيعة الحال، لكن "بدري" يصف هذه المعرفة بأنها معرفة باردة. ونحن نجتهد في إطلاق مسمّى "مرحلة الإدراك المادي" على هذه المرحلة.

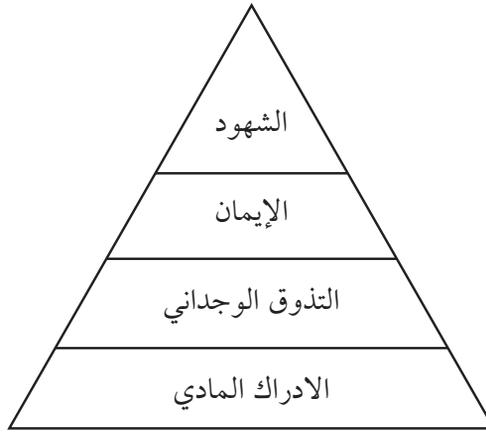
وفي المرحلة الثانية من التفكّر يدقّق الإنسان النظر في ألوان المعرفة التي اكتسبها في المرحلة الأولى، ويتجاوز في تفكره تلك الحالة الباردة من الإدراك، إلى هزة في القلب، تتدفق معها المشاعر ويصل إلى حالة من الانفعال الدافئ، والإحساس المرهف، بالخصائص الجمالية، ودقة الصنع، وبهاء المنظر، ويكتسب بذلك حالة من التذوق والتقدير. ويمكن أن نسمي هذه المرحلة "مرحلة التذوق الانفعالي".

ولا شك في أنّ مرحلتي التفكر الأولى والثانية يصل إليهما أيُّ فرد يحاول الوصول، بصرف النظر عن إيمانه بوجود خالق عليم حكيم، أو عدم شعوره بالحاجة إلى هذه الإيمان.

وفي المرحلة الثالثة من التفكّر ينتقل من تذوق الجمال وتقديره في ذاته، إلى الصانع الحكيم الذي أبدعه أو مكّن الإنسان من إبداعه، ويتفكر من ثمّ بالصفات العلية للخالق المبدع، ويستشعر الاعتراف بعظمته وفضله، والخشوع لجلاله، والإخلاص في عبادته. ولا بأس في أن نسمي هذه المرحلة مرحلة الإيمان.

أما المرحلة الرابعة من التفكّر، فإنّ المؤمن ينتقل من إدراك الصانع الحكيم

للإنسان والعالم، والإخلاص في عبادته واستحضاره في قلبه، ودوام ذكره ومراقبته له، وازدياد خشيته لربه وتعظيمه لجلاله، إلى الحد الذي يذهل فيه الإنسان عما حوله، وربما يترقى مع مواصلة التأمل، والذِّكْر، والحُبِّ، والشفافية الوجدانية إلى استشعار وجوده مع الملاء الأعلى، فيرى ما لا يستطيع أن يتحدث عنه أو يتكلم فيه. وهذه هي المرحلة التي يسميها الصوفية حالة "الشهود"، ويسميها ابن تيمية "الشهود الصحيح"^(١) ولا شك في أن هذه المرحلة لا يصلها إلا خاصة الخاصة من المؤمنين.

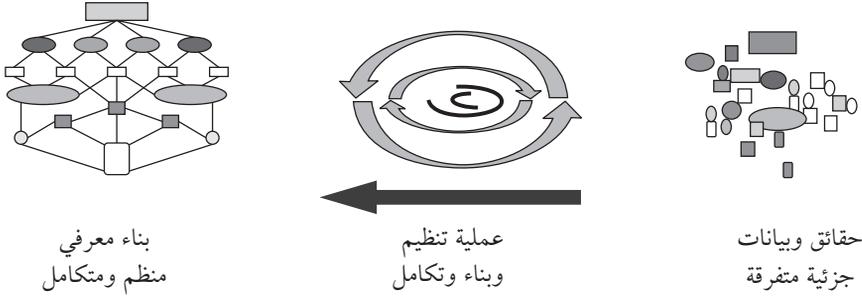


مستويات التفكير

ولمالك بن نبي فكرة لطيفة في التمييز بين البناء والتكديس، وذلك في حديثه عن البناء الحضاري؛ إذ يتحدث عن العالم الإسلامي الذي بقي دهرًا طويلاً خارج التاريخ، لكنه انتبه في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، على صيحات إصلاحية تدعو إلى النهوض الحضاري. لكن جهوده في السعي إلى ذلك اكتفت باستيراده منتجات الحضارة من الآخرين، والحضارة

(١) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، مرجع سابق، توحيد الأولوية، الجزء الثاني، ص ٢٢٤.

في حقيقتها منتجات مادية لها روحها وفكرها وأدواتها وأنظمتها، التي لا تباع ولا تعار؛ لأنها تمثل الخصائص الذاتية للحضارة وللمجتمع الذي يبني تلك الحضارة. والمجتمع الذي يستورد المنتجات مع فكرها وروحها يكون قد فقد هويته الحضارية، وأصبح امتداداً للمجتمع الذي استورد منه منتجاته، أما المجتمع الذي يستورد منتجات الحضارة دون روحها وفكرها، فإنه يقوم بتكديس هياكل لا روح لها، وتجميع أكوام من الأشياء لا فكر فيها.



من التكديس إلى البناء

إنَّ الحضارة في كل مجتمع -في رأي مالك بن نبي- هي التي تلد منتجاتها، وتطبعها بروحها وفكرها، والعالم الإسلامي لم يتمكن من بناء حضارة، لأنَّه اقتصر على تكديس المنتجات المادية.

وبناء الحضارة عند مالك بن نبي يتم وفق معادلة تتفاعل فيها ثلاثة عناصر هي:

- الإنسان، بما يمثله من طاقات الفكر والإبداع.
- والتراب الذي يمثل الإمكانيات المادية والاقتصادية.
- والوقت الذي يتم فيه نمو الخبرة وإنضاجها.

ولا يتم التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة إلا بعامل مساعد هو الشعلة الروحية التي تتمثل بقوة العاطفة، وطاقة الوجدان^(١).

(١) ابن نبي، مالك. شروط النهضة، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦، ص ٦٣.



مكونات البناء الحضاري عند مالك بن نبي

فالبناء الحضاري في المجتمع يتم عندما يقوم: عالم الأشخاص بإبداع عالم الأفكار التي يستخدمها الأشخاص في إنتاج عالم الأشياء. وكل الأشخاص يموتون، ومعظم الأشياء تبلى وتتضاءل قيمتها، أما الأفكار فمنها الحية التي لا يستغنى عنها مهما مر عليها الزمن، ومنها الميتة التي يمكن الاستغناء عنها دون أيّ خسارة، ومنها المميّنة التي لا بد من التخلص منها.

يمكنك التفكير في علاقة العوالم الثلاثة ببعضها عندما تحاول التمييز بين طريقة الناس في تقدير قيمة كتاب محدد. فبعض الناس يحرصون على الحصول على الكتاب ووضعه في مكتباتهم؛ لأنه مجلد كبير يوحى بالمهابة ويستحق شكله الصدارة. وآخرون يحرصون على الحصول على الكتاب؛ لأنّ مؤلفه علم مشهور، له عندهم قدرٌ ومكانة، وصنف ثالث يحرص على الحصول على الكتاب لا لحجمه وشكله، ولا لاسم مؤلفه وشهرته، وإنّما لموضوعه وأفكاره.

ويمكنك الآن التفكير في مثال آخر يبين العلاقة بين العوالم الثلاثة، وتفاوت طرق تقدير الناس لكل منها.

إنّ أيّ عالم من هذه العوالم الثلاثة ليس عالماً واحداً متجانساً، فعالم الأشخاص هو عالم السياسيين، وعالم التجار، وعالم الإعلاميين، إلخ؛ وعالم الأشياء هو عالم الأطعمة، وعالم المساكن، وعالم السيارات، وعالم الفضاء، إلخ؛ وكذلك فإنّ عالم الأفكار هو عالم الفقه، وعالم الاقتصاد، وعالم التاريخ، وعالم الفن، إلخ. وكل عالم من هذه العوالم هو -من ثمّ- أبعد ما يكون عن الانسجام والتجانس، بل هو أقرب في كثير من

الأحيان إلى التناقض الفكري وصراع المصالح. فهل ثمة وسيلة للنظر في "بناء فكري" يتجاوز التناقض والاختلاف، ويكشف عن أفكار تجد لها القبول والانتشار على نطاق واسع ضمن هذه العوالم، في نطاق جغرافي محدد

ونطاق تاريخي محدد؟ وما الخصائص التي لا بد أن تتمتع بها الأفكار التي تجد هذا القدر من الانتشار ومن ثم التأثير والفاعلية؟

ونختم التنويه بجهود مالك بن نبي بإشارته إلى واحد من الفروق اللطيفة بين العلماء من جهة والمثقفين من جهة أخرى، فعمل العلماء ينتهي بإنشاء الأشياء وفهمها، وعمل المثقفين يستمر في تجميل الأشياء وتحسينها.

وفي محاولة بيان مستويات الفكر وتوزع قدراته بين الناس نجد أن من السهل تمييز الإنسان الذي يتخصص في علم معين، فيقال عنه إنه متخصص في ذلك العلم، وإذا تعمق في تخصصه، وأحاط به، وبدأ يُبدع فيه، ويضيف إليه، ويحلُّ مشكلاته، فيمكن أن يقال عنه إنه عالم في ذلك التخصص. وقد يلمّ العالم المتخصص بقدر من العلم في تخصصات أخرى قريبة من تخصصه وضرورية له، ولكن لا يشترط في العالم المتخصص عادة أن يكون قادراً على الحديث في المسائل العامة خارج إطار تخصصه.

ومن الناس من يكون صاحب تخصص ويكون عالماً في تخصصه، ومع ذلك فإنّ لديه من الاهتمامات الأخرى، اللغوية أو الفنية أو السياسية، وقدراً من المعرفة والاطلاع، والقدرة على التفكير والحديث في المسائل العامة، فيوصف هذا الشخص بأنه مثقف. وإذا كان العالم المتخصص يصل إلى هذه الصفة عادة بالدراسة الأكاديمية المنتظمة، والبحث المنهجي المتخصص، فإنّ المثقف يبني قدراته الثقافية في الغالب بجهود ذاتية من قراءات ومحاورات مع الآخرين. ولذلك فإنه قد يبني ثقافته دون أن يكون عالماً متخصصاً في أي موضوع محدد.

ويميل بعض الباحثين إلى الحديث عن الفكر والثقافة بوصفهما مفهومين متقاربين إلى درجة التطابق، فيعطفون الثقافة الإسلامية على الفكر الإسلامي في مواقع كثيرة، ونأخذ مرجعاً واحداً مثلاً على هذه الظاهرة، ولو تتبعناها لوجدنا مصداق ذلك في أمثلة كثيرة أخرى. أورد المرجع المشار إليه النصوص الأربعة الآتية في أماكن متقاربة: "كان لا بد من بيان ... على صعيد الفكر

الإسلامي والثقافة الإسلامية.^(١) "نحاول... الحديث عن أبرز خصوصيات الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية."^(٢) "ليس من صواب الرأي، بل هو إلى الجهل بخصوصيات الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية أقرب"^(٣)، "حديثنا الموصول عن أبرز خصائص الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي."^(٤)

كما يميل بعض الباحثين إلى الكتابة عن الفكر أو عن الثقافة بالمضامين نفسها. وستجد ذلك في عناوين الكتب الموجهة لمقررات تعليمية جامعية، في "الفكر الإسلامي" أو "الثقافة الإسلامية" فالمضمون في غالب الأحيان مضمون واحد. ويبدو أن الأمر يرتبط بالعنوان الذي يأتي فيه الحديث، مقالة أو كتابة، فإن العنوان عن الثقافة زاد ذكر كلمة الثقافة مع قليل من ذكر الفكر، وإن كان العنوان عن الفكر والتفكير، زاد ذكر الفكر مع قليل من الثقافة.

ما محور التمييز بين الفكر والثقافة؟!

وما علاقة العمق والسعة في تحديد الفرق بين الفكر والثقافة؟

وما علاقة القدرة على العطاء، والقدرة على الاكتساب في توضيح هذا الفرق؟

كيف تتحول الثقافة إلى فكر، وكيف يتحول الفكر إلى ثقافة؟

ومن الناس من يكون صاحب علم متخصص، ولديه بعض الفكر، وربما بعض الثقافة، لكنه يوظف ذلك كله في محاولة التأثير في أكبر عدد من الناس، لينقلهم مما هم عليه من حالة فكرية أو سلوكية إلى حالة أخرى يدعو إليها، ويشجع على الالتزام بها، ويمارس من أساليب متنوعة من محاولات التأثير؛ كتابة، وخطابة، وحديثاً، وحواراً، إلخ. وهو يحرص على اللقاء بالناس

(١) زرزور، عدنان. طبيعة التفكير والتجديد في الثقافة الإسلامية، عمان: دار الأعلام، ٢٠٠٧، ص ٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣١.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٣.

في أماكن وجودهم، وعلى التفاعل المباشر معهم. والصفة التي تغلب على هذا الشخص هي الداعية. فهو يدعو الناس إلى الفكر الذي يتبناه، أو فكر الحزب أو الجماعة التي ينتسب إليها، أو يدعوهم إلى أنماط معينة من السلوك الأخلاقي أو الاجتماعي. ولا يشترط أن يكون الفكر الذي يدعو إليه من إنتاجه، لكنه يتبناه ويدعو إليه. وقد تكون القضايا التي يدعو إليها الداعية قضايا جزئية محددة تتناول سلوك الأفراد، وتختص ببعض الفضائل، وتحمل قدراً من الحرارة والرصيد العاطفي. وقد تكون قضايا عامة تختص بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، والرغبة في حل المشكلات التي يعاني منها هذا الواقع، والأمل في تغييره نحو الأحسن، وتكون رؤيته التغييرية واضحة ومحددة وجديدة وطموحة، وعندها يطلق على هذا الشخص وصف المصلح.

وتبقى فئة من الناس في أقلها عدداً بالمقارنة مع الفئات المشار إليها سابقاً، يكون لأحدهم علم متخصص، وربما يكون لديه بعض الثقافة، وبعض الأفكار الإصلاحية، لكن الذي يتميز به عن غيره هو أنه يقصر اهتمامه على بناء رؤية نظرية للمسائل والقضايا العلمية والعملية. ففي حين يبحث العالم المتخصص في المسائل الجزئية المحددة للعلم، فإن هذا الشخص يعيد وضع الجزئيات في صياغات فكرية كلية، وي طرح أسئلة عامة، وينتقد الصياغات الفكرية السائدة، ويكتشف التناقضات الكامنة فيها، وي طرح أنظمة مفاهيمية جديدة، وبدلاً من الحديث عن مشكلات مجتمع محدد أو بيئة محددة، فإن اهتمامه ينصرف إلى المجتمع الإنساني والبيئة الكونية... مثل هذا الشخص يسمى الفيلسوف. وأهم ما يميز الفيلسوف هو روحه النقدية التي تجعله يمارس الشك فيما ألف الناس مما يعدونه من الحقائق، ومن ثم فهو يكثر التأمل والبحث وإعادة النظر في كل ما يقرأ ويسمع.^(١)

إنَّ الأشخاص الذين يحملون هذه الأوصاف التي ذكرناها: العالم - المتخصص، والمثقف، والداعية - المصلح، والفيلسوف، موجودون في كل

(١) الطويل، توفيق. أسس الفلسفة، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٦، ص ٢١٧.

مجتمع، ولكل منهم موقعه وضرورته. لكن هذه الأوصاف ليس بينها حدود فاصلة ولا تراتبية تفضيلية، ومن السهل أن نميّز أشخاصاً يملكون مستويات متفاوتة من خصائص كل فئة. وثمة أوصاف أخرى ربما تقع ضمن هذه الفئات أو خارجها، فللأديب، والباحث، والكاتب، والمحلل، والمستشار، والخبير، والفني... صفات تلحق بأي شخص من الفئات المذكورة، أو تميز فئة قائمة بذاتها.

وقد تبين لنا أن الفكر هو المضامين المميّزة التي تصف حالة الشخصية التي نسميها المفكر، ومع ذلك تكون بعض هذه المضامين مشتركة -في مستويات متفاوتة- مع الشخصيات الأخرى: العالم والمثقف والفيلسوف... إلخ. لكن هذه المضامين تكون واضحة ومستقرة لدى كل شخصية من هذه الشخصيات، حتى إنك تستطيع أن تصف البنية الفكرية، أو البناء الفكري، في كل شخصية منها، وتستطيع أن تتحدث عن درجة الغنى والثراء الفكري لدى أمثلة ونماذج وأسماء من أية فئة من فئات الشخصية المشار إليها، فتقارن مثلاً بين مستويات العمق والتنوع في الغنى الفكري بين عدد من المثقفين، أو بين عدد من العلماء... إلخ. وإذا جاز لنا أن نتحدث عن الغنى الفكري، لماذا لا يجوز لنا أن نتحدث عن الفقر الفكري، أو الفراغ الفكري، أو الإفلاس الفكري، أو العقم الفكري... لنصف بذلك حالة الضعف الفكري الذي يتصف بها فرد من الأفراد، أو فئة من الناس، أو مجتمع من المجتمعات، أو جيل من الأجيال...؟!

ولنجرب فحص المضامين الفكرية لشخصيات ذات أثر ملموس في المجتمع المعاصر، ربما يكون أثرها أكبر من أثر العلماء والمثقفين والفلاسفة؛ من هؤلاء مثلاً العاملون في قطاعات الاقتصاد والإعلام والسياسة. ما المضامين الفكرية لشخصية اقتصادية ملكت الملايين، وقفزت إلى مواقع صنع القرار في بعض المؤسسات، أو تحكمت في الأسواق، وربما سخرت لنفوذها فريقاً من الإعلاميين، وربما أخضعت لمصالحها نخباً من السياسيين؟

لتذكر أمثلة من الإعلاميين الذين لا يعدو نصيبهم من الفكر أن يكون

ألفاظاً من المدح أو الهجاء! يَمْنَحُونَهَا وَفَقَ عمليات الدفع أو المنع، ومقادير هذه العمليات! ما المضامين الفكرية التي تحرك هؤلاء!؟

ولنتذكَّر ما يحدث بعد التحولات الكبيرة في المجتمع من قيام عشرات الأحزاب السياسية، يتجمع في كلِّ منها عشرات الشخصيات، ثم لا يلبث كل حزب أن يتشظى إلى عدة أحزاب. ما الخرائط الفكرية التي تتوزع عليها هذه الأحزاب؟ وتبني على أساسها برامجها الحزبية التي تتقدم بها إلى الجماهير في مواسم الانتخابات؟ وما مصير هذه الأحزاب بعد ظهور نتائج الانتخابات!؟

إنَّ ظاهرة الإفلاس الفكري لدى الغالبية العظمى من شخصيات المال والاقتصاد والأعمال، وتجار الإعلام، وصالونات السياسة، تكاد تمسح من ذاكرتنا أسماءً مذكورة، وشخصياتٍ مرموقةً، في الاقتصاد والإعلام والسياسة، عُرف كل منها برصيد من الفكر، الذي يتَّصف بقدر من الوضوح والنضج والاستقرار. لكنَّ التحدي الذي أواجهُ به قارئ هذه السطور أن يسمِّي ثلاثة من أسماء الشخصيات في بلده من أعلام الفكر الاقتصادي، وثلاثة من أعلام الفكر الإعلامي، وثلاثة من أعلام الفكر السياسي! لعلَّ من ينجح في ذلك يتبيَّن له أنَّ الحديث عن ظاهرة الإفلاس الفكري، حديث مبالغ فيه، أو هو حديث خرافة يا أم عمرو!

ثالثاً: حوار العلم والفكر

وإذا كان حديثنا في هذا المقام عن الفكر، فنأمل أن لا يخطر ببال القارئ أنَّ الإعلاء من شأن الفكر هو تقديس للأفكار التي يأتي بها الإنسان، فحديثنا هنا عن الفكر الإنساني الذي هو مظنة الصواب والخطأ، ولكننا نأمل كذلك أن نلتمس ما كان صواباً من الفكر، وفق المرجعية الإسلامية التي نتبناها، فالصواب من الفكر صوابٌ؛ لأنَّه حقٌّ في ذاته، ولأنَّه -في مجال الفكر الإسلامي- موافق لما كان معلوماً من الدين بالضرورة، ولأنَّه فهمٌ صحيح في ذاته، وعميق في مستواه، ومفيد عند تطبيقه.

ونأمل كذلك أن لا يكون حديثنا عن الفكر عزوفاً عن الحديث عن العلم، فبعض طلبة العلم، لا سيّما العلم الشرعي، يفضّلون استخدام مصطلح العلم، والدخول إليه من أبوابه المألوفة في متون العلم وكتب التراث، بدءاً من الحديث عن فضل العلم والعلماء، والحث على طلب العلم. وبعض طلبة العلم الشرعي يرددون أن العلم هو ما قال الله تعالى، وما قال رسوله ﷺ. وبعضهم ينقلون عن أساتذتهم ومن كتبهم روح التعصب لفرع من فروع العلم، فيرون أن أشرف العلوم هو علم الفقه، أو علم الحديث، أو علم التفسير... إلخ، وفي ذلك يتنافس المتنافسون. والأولى أن يكون شرف العلم ما كان العلم من أجله؛ من ارتقاء في مقدار الصلة بالله والنفع لخلق الله، ويزداد شرف أي علم عندما تقوى الرغبة فيه، وتلحّ الحاجة إليه^(١).

وفي المقابل فإن بعض المثقفين أو من يدعون الثقافة، وبعض المفكرين أو من يدعون الفكر، يظنون أن التخصصات العلمية سواءً كانت في علوم الشريعة أو العلوم الطبيعية أو حتى العلوم التطبيقية هي سجون علمية لا تتعامل إلا مع جزئيات العلم وتفصيله، بينما تحرّم من يكون في داخلها من أنسام الثقافة ورياح الفكر، التي يكون معها الاهتمام بقضايا المجتمع والأمة، والإسهام في جهود إصلاح الواقع وتطويره. وإذا كان في بعض الظن حق، فإننا لا ينبغي أن ننسى أسماء علماء بارعين في علومهم، وهم في الوقت نفسه في قمة الثقافة أو في قمة الفكر.

والذي نوّكد عليه هنا أننا لا نقارن بين العلم والفكر، لنعطي الأفضلية لأحدهما على الآخر، مثلما أننا لا نقارن بين الفكر والثقافة، أو بين الفكر والدعوة، أو بين الفكر والفلسفة، إلخ، لنعطي الأفضلية للفكر على الثقافة أو الدعوة أو الفلسفة، أو أي من العناوين الأخرى. ويمكننا أن نقول: إن العلم فكر، وإن الثقافة فكر، وإن الفلسفة فكر، فكل ذلك فكر إنساني، وكله نتيجة للتفكير

(١) النملة، علي بن إبراهيم. الفكر بين العلم والسلطة: من التصادم إلى التعايش، الرياض: العبيكان للنشر، ط٢، ٢٠٠٧م. ١٢-١٦.

الذي يقوم به الإنسان، ولكنه فكر بمستويات مختلفة وبمواصفات مختلفة، وربما يكون كله حقاً، ونجتهد في أن نتعامل معه بوصفه فكراً إسلامياً.

وليس لدينا ما يسوغ رفض القول الآخر الذي يرى أن الفكر علم، وأن الثقافة علم، وأن الفلسفة علم، على أساس أن العلم في سياق المعرفة البشرية هو ما عَلمَه الإنسان في مستوى من المستويات أو موضوع من الموضوعات. وجاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نهج البلاغة: "... وَلَا عِلْمَ كَالْتَفَكْرِ، ... وَلَا شَرَفَ كَالْعِلْمِ..."^(١)

والتمييز بين العلم والفكر على أساس مدى توافر المنهج في أيّ منهما لا يفيد كثيراً؛ لأنّ المنهج يمكن أن يكون ادعاءً لا حقيقة، وأنّ المنهج قد يكون صراطاً مستقيماً إلى الحقيقة، وقد يكون طريقاً إلى الضلال. والتمييز بين المفهومين على أساس مدى توافر الدليل، لا يفيد كثيراً؛ للسبب نفسه، فقد يكون الدليل واضحاً في تأييد العلم أو تأييد الفكر، وقد يكون وهماً لا قيمة له في تأييد أيّ منهما.

وهذا لا يعنى بالضرورة التطابق بين مفهومي العلم والفكر؛ لأنّ مهمة التمييز بينهما تقف عند المصطلح وليس المفهوم، فمصطلح العلم قديم، ونقصد به ذلك القدر من المعرفة الذي يكتسبه الإنسان عن موضوع معين، بصورة مقصودة، وهدف محدد، ويتصف بقدر من التنظيم، ويتم بمنهجية محددة، وهذا العلم يمكن أن يطلق على علم أصول الفقه، أو علم الكيمياء التحليلية، سواءً بسواء. وعلى هذا يكون للعلم مؤسساته ومدوناته وبرامجه ومناهجه. ولا يسمى علماً، في الاصطلاح، ذلك الذي يلتقطه الفرد من معلومات غير منظمة وغير هادفة، تأتيه من طرق شتى: سماعاً أو قراءة، أو نتيجة تفكير سطحي أو عميق.

(١) ابن أبي طالب، علي (أمير المؤمنين رضي الله عنه). نهج البلاغة، مختارات الشريف الرضي، شرح: الإمام محمد عبده، بيروت: دار المعرفة، ج٤، ص ٢٧.

أما الفكر فهو مصطلح حديث نقصد به مجموع المدركات والآراء والأحكام، التي يصل إليها التفكير البشري، سواءً كان عن طريق التعلّم المنهجي المؤسسي أو كان نتيجة التصورات أو العمليات الذهنية الداخلية التي يقوم بها الإنسان حول موضوع معين، وذلك بهدف فهم الموضوع وتحليل عناصره وأسبابه ونتائجه، وعلاقة هذا الموضوع بالواقع الراهن، وما يمثله من مشكلات، أو فرص أو تحديات، وما يلزمه من اقتراحات ومعالجات.^(١)

وإذا كان العلم يهتم بالموضوع، من حيث هو، وينشغل في بيان عناصره وجزئياته وتنظيم ما يتوافر عنه من معلومات ومعارف تفصيلية، فإن اهتمام الفكر ينصب على علاقة الموضوع بالواقع، وسبل معالجة الموضوع من أجل تحسين الواقع.

ولا نملك مبرراً لحصر مفهوم العلم في علوم الشريعة وفروعها. إننا نستطيع أن نتعلّم علم أصول الفقه، وعلم الكيمياء التحليلية ضمن رؤية كلية إسلامية، في جامعة إسلامية في بلد إسلامي، أو في جامعة إسلامية أوروبية أو أمريكية. ونستطيع أن نتعلّم العِلْمين ضمن رؤية كلية غير إسلامية، في جامعة من جامعات العالم الإسلامي، أو في جامعة أوروبية أو أمريكية.

قد يكون من المناسب في هذا المقام تذكّر أسماء شخصيات عرفت بالعلم والفكر في الوقت نفسه. ولتكن أمثلة هذه الشخصيات متنوعة من حيث التخصص العلمي في علوم الشريعة (التفسير والحديث والعقيدة والفقه...)، أو العلوم الاجتماعية (الاقتصاد، والاجتماع، والتربية...) أو اللغوية (النحو والصرف والأدب والنقد...) أو الطبيعية (الجيولوجيا والكيمياء والفيزياء...) أو التطبيقية (الطب والهندسة والزراعة...).

وعلى هذا الأساس نتساءل من هو المفكر؟

عندما يوصف شخص ما بأنه مفكر، فما الذي يعنيه ذلك الوصف؟ إنَّ

(١) ربما يلاحظ القارئ أننا لم نحصر دلالة العلم أو الفكر في نص محدد بأقواس "..."، للتأكيد على أننا لا نقصد وضع تعريف "جامع مانع"، كما أشرنا إلى ذلك في مقدمة الكتاب.

ذلك لا يعني أن المفكر هو أي شخص يمارس عملية التفكير، فكل الناس يقومون بهذه العملية بوعي أو دون وعي، ومن ثم فكل الناس يملكون فكراً. لكن وصف المفكر يطلق على الشخص الذي يمتلك بناءً فكرياً يتصف بالوضوح والانسجام والتكامل، والقدرة على إنتاج الفكر بصورة يتميز بها عن الغالبية العظمى من الناس، وتسمح بتسمية ذلك الشخص مفكراً. فأين هو موقع المفكر ضمن مجموعة الأشخاص الذي تطلق عليهم أوصاف أخرى ذات صلة مباشرة بالفكر؟

لكن السؤال الذي يلحّ في سياق هذا الحديث يختص بالمفكر، أين يقع المفكر من هذه الأوصاف؟ هل يقع ضمن فئة من هذه الفئات، أم يحتل موقعاً متميزاً مختلفاً تماماً عنها؟

هل تعرف أحداً يطلق على نفسه صفة المفكر؟ هل ثمة فرق بين من يطلق على نفسه صفة مفكر، ومن يصفه غيره بهذا الوصف؟ استحضر أسماء عدد ممن يطلق عليهم وصف المفكر، وابحث عن تخصصاتهم العلمية، ونوعية إنتاجهم من الكتب والبحوث، وطريقة عرضهم للموضوعات التي يتحدثون عنها. ما الذي يميّز هؤلاء عن غيرهم من الأشخاص الذي يعدّون من النخبة المُفكِّرة؟ ربما يمكنك الآن تحديد عدد من المواصفات الرئيسة للمفكر.

أول ما يخطر في البال هو أن المفكر ربما يجمع كثيراً من صفات الفئات المذكورة، ولو بدرجات متفاوتة. فكثير ممن أعطيت لهم صفة المفكر بدأوا حياتهم الفكرية علماء متخصصين، لكنهم انتقلوا بعد ذلك من الانشغال بجزئيات التخصص العلمي، إلى القضايا العامة للمجتمع، وبدلاً من الانشغال بالمشكلات الآنيّة والملحّة التي ينشغل بها المثقف في العادة، انتقلوا إلى وضع هذه المشكلات ضمن سياقها التاريخي والاجتماعي، لبناء فهم أفضل لها، وللبحث

عن معالجات لأسباب المشكلات بدلاً من مظاهرها، ولتكوين رؤية كلية لجهود الإصلاح والتغيير المنشودة. لكن المفكر مع ذلك لا يتخلى عن الاهتمام بالواقع الذي يريد إصلاحه، وعن تقديم صياغات فكرية تشبك مع الواقع القائم للوصول إلى الطموح المنشود. إن "إطلاق الوصف "مفكر" يعني تميّزاً في

الثقافة والاطلاع، والنزوع نحو الإصلاح والتطوير.^(١)

ولا يبدو أنّ ثمة علاقة مباشرة بين الهوية الفكرية للمفكر والتخصص العلمي الذي بدأ تشكُّله الفكري فيه. لكنّ المفكر مثقف بالضرورة، ويمكن النظر إلى المشروع الفكري للمفكر على أنه مشروع إصلاحي، يتبنّاه المصلح، وربما يقترب من الفيلسوف في رؤيته الكلية وقدرته على اكتشاف المشكلات القائمة في الصياغات الفكرية والعملية السائدة، وفي بحثه عن حلول لها. كما يقترب من الفيلسوف في درجة القلق التي تتنابه في سعيه الدائم للفهم والتفسير، والنظر إلى الأمور من زوايا مختلفة. وهو بهذا القلق يتعد عن العالم الذي يقف على المسائل اليقينية في علمه، وعن الداعية الذي يعرض أفكاره بثقة لا يخالجه شك، وحماس لا يتنابه تردد. لكن المفكر يندمج بصورة مباشرة في القضايا العامة للمجتمع، فيتميّز عن الفيلسوف الذي لا يفعل ذلك بالضرورة.

ونظراً لأنّ كلاً من الفيلسوف والمفكر في الغالب يبدأ رحلته الفكرية في مجال محدد من العلم المتخصص، فإنّ طبيعة هذا العلم تؤثر في اللغة التي يضع بها كل منهما صياغته الفكرية، وفي المنهجية التي يتبعها في هذه الصياغة. وربما يظهر ذلك واضحاً في الأعمال الفكرية لمفكرين من أمثال: إسماعيل الفاروقي

لديك قائمة من أسماء عدد من الأشخاص، حاول أن تصنف هؤلاء الأشخاص ضمن ستّ فئات: عالم، مفكر، داعية، مصلح، فيلسوف، مثقف. إذا وجدت صعوبة في التحديد الدقيق للفئة التي ينسب إليها الشخص، فلا مانع في البداية من تصنيفه في فئتين أو أكثر، ثم تحاول التدقيق لوضعه في فئة محددة واحدة.

(الفلسفة والأديان المقارنة) وإدوارد سعيد (الأدب المقارن)، وسيد قطب (اللغة والنقد الأدبي)، وعلي شريعتي (علم الاجتماع)، وطارق البشري (القانون والقضاء)... إلخ.

لقد اتبعنا -فيما سبق- في الحديث عن خصائص المفكر منهجاً نظرياً، تضمن تعرّف الخصائص التي تطلق على فئات من الأشخاص. وربما نصل إلى النتيجة نفسها لو

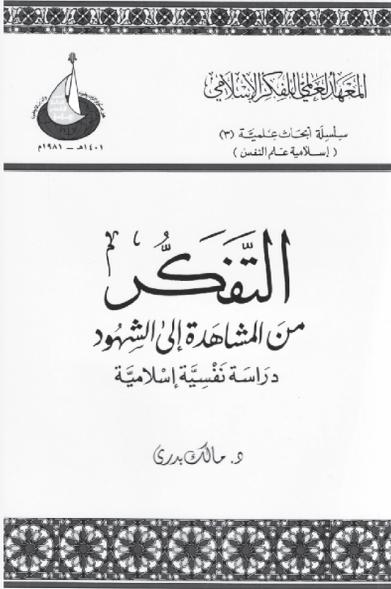
(١) النملة، علي بن إبراهيم الحمد. الفكر بين العلم والسلطة: من التصادم إلى التعايش. مرجع سابق،

اتبعنا منهجاً آخر، يحدد في البداية عدداً من الأشخاص الذين عرف كل منهم بصفة المفكر، ثم حللنا الخصائص الفكرية والعملية التي يتصف كل منهم بها. ولعل القراء الأعزاء يقومون بهذا التمرين، فيحدد كل منهم عدداً ممن يُعَدُّهم هو مفكرين ويقوم بعد ذلك باستخلاص خصائص المفكر.

أمثلة على كتب ينصح بقراءتها

التفكير من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية

الكتاب دراسة نفسية مبسطة للتفكير من منظور إسلامي، حاول فيه المؤلف توضيح قيمة التفكير العبادية من وجهة نظر علم النفس الحديث، ومناقشة قيمة التفكير في توجيه سلوك الإنسان وصياغة دوافعه وعاداته، وعلاج اضطراباته وإثراء حياته النفسية والروحية.



في هذا الكتاب الصغير، بيان تفصيلي لعلاقة الفكر بالتفكير والتفكير والتدبر والتذكر، وهي دراسة تفصيلية تجمع إلى النصوص الدينية معطيات التراث الإسلامي وعلم النفس المعاصر ونظريات التعلم، والفروق بين الأفراد في درجات التفكير، وعلاقة التفكير باللغة، وعلاقة التفكير بما هو معروف عن الطريقة العلمية، في بحوث العلوم المادية والتطبيقية.

تكوين المفكر



قد يوحي عنوان الكتاب بأنه دليل عمل لأي شخص يريد أن يصبح مفكراً، أو لآية مؤسسة تريد أن تتخصص في إنتاج المفكرين؛ ومن ثم فهناك آلية واضحة ومقننة للوصول إلى هذا الهدف. لكن المؤلف يحذر من هذا الفهم المتسرع، ويؤكد أن المفكر يتكون بطريقة تلقائية وغير مقصودة. ومع ذلك فإن من المفيد أن يعتني الشخص بنفسه

"من خلال جهوده الحثيثة في القراءة والتأمل والبحث والكتابة والحوار" حتى "يصبح مع الأيام صاحب رؤية خاصة وطرح متميز"، ويتصف بشيء مما "يشتغل عليه المفكرون من العناية بإصلاح الشأن العام ومحاولة فهمه وتحليل أسبابه والعمل على الارتقاء به". يحاول المؤلف أن يميز خصائص كل من المفكر، والفيلسوف، والمثقف، والعالم، والداعية، والمصلح، وأن يوضح معنى التفكير، وأنواعه، ومستوياته، ومعيقاته، وعلاقته باللغة والإبداع.

سوق فكرك

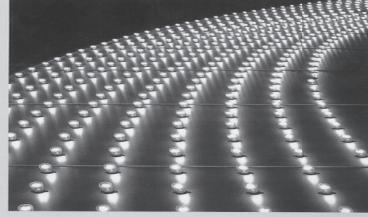
تسويق الأفكار جولة بين العلوم



د. عبد الله بن سالم باهه

علي بن إبراهيم النملة

الفكر بين العلم والسلطة من التصادم إلى التعايش



العبيد
Obeyon

القراءة الفكرية

هذان كتابان عن الفكر، لكل منهما غرض مختلف عن الآخر. الدكتور علي بن إبراهيم النملة أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض متخصص في علم المكتبات المعلومات. والدكتور عبد الله بن سالم باهه مشرف تدريب في إدارة التدريب التربوي بالرياض، ومتخصص في إدارة الأعمال والإعلام (التسويق).

الكتاب الأول في الأصل مجموعة مقالات قصيرة في الجرائد اليومية، يجمعها خيط واحد عبّر عنه عنوان الكتاب. والكتاب الثاني كتاب منهجي متماسك في محتواه وفي الغرض منه، وهو مادة للتدريب.

الكتابان يتحدثان عن الفكر، بتفاصيل كثيرة، ولكن لكل منهما فكرة مركزية يريد المؤلف أن يقدمها للقارئ، وقد لا تكون الفكرة مبسطة في عبارة من عبارات الكتاب بصورة مباشرة، وإنما قد تكون متضمنة بصورة غير مباشرة، تكشف عنها "القراءة الفكرية" للكتابين. القراءة الفكرية هي قراءة القارئ، وقد لا تكون متطابقة بالضرورة مع فكرة المؤلف.

رابعاً: حركة الفكر وفكر الحركة

حاولنا أن نوضح مضمون الفكر والتفكير، والخصائص التي يتصف بها المفكر، في سياق الخصائص التي تتصف بها شخصيات أخرى، ضمن الحقل الدلالي للخصائص، التي تلتقي أو تتقاطع مع قضايا الفكر وخصائص المفكرين. وفي هذا السياق بدأنا في تحديد مجال الاختصاص العلمي وموقع المفكر منه. ولاحظنا أن المفكر ربما يبدأ عمله الفكري بالتبحر في ميدان تخصصه، ثم يتوسع في الإلمام والاهتمام بتخصصات أخرى، ويأخذ في صياغة فهمه لبعض عناصر المعرفة العلمية المتخصصة، لتكون مادة ثقافية عامة، ثم يبدأ في عملية الترقى بهذه الثقافة لصياغة مفاهيم وروى فكرية تتصف بالتحديد والتركيز والعمق، وتصوغ منها خطاباً فكرياً محدداً يقدم إجابات عن الأسئلة وحلولاً للمشكلات، بصورة تختلف جوهرياً عن ألوان الخطاب السائد.

لكن التشكل الفكري عند الفرد لا يحدث بصورة مستقلة عن الظروف التي تتشكل فيها نفسية الفرد وعقليته. فثمة عوامل عديدة تسهم إيجاباً أو سلباً في هذا التشكل. ويتحدث التربويون وعلماء النفس عن أثر العوامل النفسية والبيئية على شخصية الفرد والطريقة التي تتشكل فيها هذه الشخصية، ولا شك في أن بعض الأفراد يتأثرون أكثر من غيرهم بهذه العوامل، ويتأثرون بهذه العوامل في بعض مراحل النمو أكثر من مراحل أخرى. ونظراً لأن المفكر أو الشخص الذي يمتلك قدرات فكرية محددة لا يولد حاملاً لهذه الصفة، وإنما يبدأ كما يبدأ أي فرد بشري: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨)، فإنه يكون قد تأثر في مراحل تشكُّله الفكري بعوامل متعددة، فالأسرة توفر للفرد بيئة نفسية واجتماعية تؤثر في هذا التشكل؛ إذ يشرب، بوعي أو دون وعي، مشاعر الانتماء للدين والطائفة والمذهب، وتصبح هذه المشاعر فيما بعد حقائق فكرية يجري تبنيها بقوة أحياناً، وتستنفّر من أجلها الحجج والأدلة الفكرية. وقد تؤثر هذه البيئة سلباً

على الفرد، وتحدث رد فعل عكسي، حين تتولد لديه كراهية لما عرفه في بيئته من أفكار، ويبحث جاهداً لنقضها، والتبرؤ منها.

ولا شك في أن التنشئة الأسرية لا تكون على صورة واحدة، فبعض الأسر تحمل أفكاراً محافظة، وتمارس التشدد في التأكيد على أهمية الانسجام الفكري ضمن العائلة، ولكن بعض الأسر تمارس قدراً من الحرية، وتوفر أجواءً متنوعة من الخبرات التي تعطي للفرد فرصة لتكوين أفكاره بنفسه. وبعض الأسر توفر بيئة فكرية غنية، تتمثل في مكتبة ذات كتب قيمة، وعلاقات بقيادات فكرية متنوعة، ولا شك في أن مثل هذه البيئة تسهم في التشكل الفكري للفرد الذي نما فيها.

وإضافة إلى العوامل المتمثلة بأفكار الأسرة والعائلة، فإن التعليم المدرسي يتضمن أيضاً عوامل نفسية تسهم في تنشيط التشكل الفكري أو تحبطه. وفي الدراسة الجامعية فإن الفرصة المتاحة لطالب معين أن يدرس مادة مع أستاذ متميز، ربما تكون عاملاً حاسماً في التشكل الفكري لذلك الطالب.

وتكون خبرات الحياة التي يمر بها الفرد في حياته سبباً في البناء النفسي للفرد بصورة معينة، يكون فيها متفائلاً أو متشائماً، فتتلون أفكاره بالتفاؤل أو التشاؤم. ولا شك في أن روح التفاؤل أو التشاؤم تشكل عند الفرد والجماعة أفكاراً حاسمة تكون الأساس في اتخاذ قرارات مهمة، ويكون لها ما بعدها من نتائج إيجابية أو سلبية.

ويؤثر انتماء الفرد إلى مدرسة فكرية أو حركة ذات مرجعية فكرية على صورة البناء الفكري للفرد. ولذلك من المهم فهم العلاقة بين الحركة بالفكر، وكيف يكون الفكر عنصراً في بناء الحركة، وذلك سعياً لفهم ما بين الفكر والحركة من المشترك في المكونات، ومن التفاعل في الوظائف.

ومن الملاحظ أن بعض المنتمين للحركات الإسلامية أو الجماعات الإسلامية يشعرون بشيء من الضيق عندما تذكر الحاجة إلى الفكر المتميز

القادر على تحقيق التغيير المنشود، وتصبح ألفاظ العقيدة والدعوة والعلم التي يمتلئ بها خطاب الحركة وأدبياتها ومناهج تربية أفرادها، مصطلحات إسلامية أثيرة، بينما يرون في لفظ الفكر مصطلحاً دخليلاً يراد به أن يحل محل تلك المصطلحات الإسلامية الأثيرة، ويرون أن شأن الفكر والمفكرين هو شأن التنظير الذي لا يحمل همّ الواقع، ويجلس في الأبراج العاجية المنبئة عن المسائل العملية والمعاناة اليومية التي تصبغ حياة الحركة وأفرادها. مما ولد الحاجة إلى التساؤل عن علاقة الفكر بالحركة، وعلاقة الحركة بالفكر، ومن ثم الحديث عن "فكر الحركة وحركة الفكر."

ونستطيع أن نقرر سلفاً صعوبة تصور حركة لا فكر لها، ويبقى السؤال عن نوع الفكر الذي تتبناه الحركة، وحضور المفكرين في صفوفها، وقيمة الفكر في جهودها، وبرامجها في تنمية الفكر وتجديده وتوسيع آفاقه، لتمكين الحركة من الفهم السليم للتحديات والتطورات المتلاحقة، وتطوير البرامج اللازمة لمواجهتها. ومع أننا نستطيع أن نقول إن الفكر هو حركة العقل، حين يبدع عقل المفكر فكرته، وبذلك يكون الفكر والحركة مفهوميين متلازمين، فإننا نستطيع كذلك أن نتصور وجود أفكار تفتقد الحركة بعد إنتاجها، لغياب من يحملها ويتحرك بها، وفي هذه الحالة فلن يكون لهذه الأفكار من القيمة والأهمية ما يمنحها الحركة المنشودة في التأثير والفاعلية والتغيير.

لقد أصبح لفظ الحركة لفظاً أثيراً في جهود الإصلاح في العالم العربي والإسلامي منذ مطلع القرن العشرين، لظهور حركات إصلاحية تهتم بالشأن الإسلامي العام، لا سيما بعد أن وصل حال الأمة إلى درجة كبيرة من الضعف والتخلف، وظهرت على مسرح العالم قوى بلغت درجة كبيرة من القوة والتقدم، وانتهى الأمر إلى تمزق جسم الأمة إلى دويلات قومية أو قطرية، ووقعت هذه الدويلات تحت السيطرة السياسية والاقتصادية والعسكرية للدول الأوربية. فكان همّ دعاة الإصلاح هو مقارعة القوى الأجنبية، أو نظم الحكم التي خضعت

لهذه القوى، والدعوة إلى استعادة الهوية الإسلامية في مجالات الحياة العامة. وتشكلت من أجل ذلك حركات وأحزاب اهتمت بالتكوين الحركي لأعضائها، وتمتين العلاقات فيما بينهم، وحشد طاقاتهم للتوسع والمغالبة والصراع، وغلب على نشاطات هذه الحركات روح التمرد على الواقع المناقض للمثل الإسلامية، والتميز عن النمط العام من الناس الذي غلب عليه الخضوع لمتطلبات الحياة الخاصة وضغوطها.

فحركات الإصلاح إذن تقوم على أفكار إصلاحية، يسعى أصحابها إلى الحركة بها لتغيير واقع الأمة أو المجتمع. وحتى ينتقل الفكر إلى الحركة لا بد من توافر شرطين: الأول أن يتبنى هذا الفكر أناس يتحركون به في الواقع القائم وينتقلون به من الفكر إلى العمل في هذا الواقع، والثاني أن يظهر أثر هذا الانتقال تغييراً في الواقع، ويتنزل إليه ليأخذ موقعه في حيز التنفيذ. فالفكر الذي لا يجد من يتبناه يصعب أن نتصور له حركة في الواقع. وقد يتبنى الفكرة شخص واحد ويعمل بها وحده، أو ينشئ لها مؤسسة لتوسيع دائرة الفكرة وتمثلاتها في الواقع، وقد يتبناها مجتمع فتتسع دائرة فعل الفكرة في الواقع. وبطبيعة الحال فإن حركة الواقع بالتغيرات التي تطرأ عليه والمشكلات التي تواجهه تكون أساساً لتوليد أفكار للتكيف مع التغيرات، ولإيجاد حلول للمشكلات. فثمة علاقة تبادلية بين الفكر والواقع.

وكثير ممن أُرِّخ للحركات الإسلامية عدّها ظاهرة جديدة في تاريخ المسلمين، نشأت نتيجة التغير الكبير الذي طرأ على واقع الأمة الإسلامية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهي التغيرات التي انتهت بإلغاء الخلافة. والسبب في ذلك أن هذا التأريخ يعالج الظاهرة الحديثة من جهة ويعالج المصطلح من جهة أخرى. وبهذه الصورة من التحديد التاريخي لنشأة الحركات الإسلامية يكون المفهوم أقرب إلى الحديث عن السعي لإعادة الاعتبار لمفهوم الأمة، ومحاولة تشكيل الصورة المنشودة لهذه الأمة في فكر هذه الحركات.

ولو حللنا واقع الحركات المعاصرة سواءً كانت حركات اجتماعية أو سياسية أو فكرية أو عسكرية، فإننا سوف نلاحظ أن مصطلح الحركة يشير أساساً إلى الرغبة في تغيير الواقع السائد، وبذلك فإن مفهوم الحركة يعنى وجود جماعة أو تنظيم يتحرك في الواقع القائم من أجل تغييره، ويستخدم من أجل ذلك وسائل معينة للتغيير. وبذلك يمكننا القول إن هذا المفهوم كان حاضراً في التاريخ الإسلامي منذ بدء الرسالة الإسلامية، إذا اعتبرنا أن الحركة هي جهد للتغيير في الواقع، فإننا يمكن اعتبار توالي الرسائل السماوية حركة للدين، وبعثاً للهداية الربانية، وتجديداً في الشرائع. وبذلك تكون رسالة محمد ﷺ، حركة بعث وتجديد في الدين الإلهي، لمعالجة حالة النسيان والضلال الذي انتهت إليه البشرية، والانحراف الذي طرأ على أتباع الرسائل السابقة.

لقد كان الإسلام حركة في الواقع القائم حين نزوله، وبعد استتباب الأمر للدولة والمجتمع الإسلامي، على صورة معينة للفهم والممارسة، نشأت حركات معارضة، لا سيما في نهاية خلافة عثمان رضي الله عنه، ودعا بعضها إلى فرض ما تبنته هذه الحركات من فهم مخالف لما كان سائداً، واستخدمت العنف في محاولة تحقيق رؤيتها الثورية المعارضة. فحركة التمرد على عثمان انتهت باستشهاده، وحركات الثأر لدمه قادت إلى معارك بين صحابة رسول الله ﷺ، والخوارج الذي خرجوا على رابع الخلفاء الراشدين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كانوا حركة معارضة مسلحة، ثم كانت حركات المطالبة بأحقية آل البيت بالخلافة في العهد اللاحقة، ومنها حركة الحسين بن علي رضي الله عنه المسلحة التي انتهت كذلك باستشهاده. وكانت "ثورة الزنج" في جنوب العراق، حركة ثورية مسلحة ذات مطالب في التغيير، وهي حركة أنهكت الدولة العباسية على مدى خمس عشرة سنة.

وبقي مفهوم الحركة حاضراً على مدار التاريخ الإسلامي. وبعض هذه الحركات كانت تعد نفسها حركات إسلامية، تسعى إلى صياغة نظام الحكم وواقع المجتمع وفق الرؤية الإسلامية التي تراها. وفي هذا السياق كانت حركات التغيير والإصلاح التي اتصفت بطابع سياسي، مثل حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد (١٧٠٣-١٧٩١)، وحركة شاه ولي الله الدهلوي في الهند (١٧٠٢-١٧٦٢)، وحركة عثمان دان فوديو في نيجيريا (١٧٥٤-١٨١٧)، وحركة محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧-١٨٥٩) في شمال إفريقيا (١٨٥٩-١٨٧٨)، وحركة محمد أحمد المهدي في السودان (١٨٤٣-١٨٨٥)، وغيرها، إضافة إلى حركات كثيرة قبلها وبعدها أخذت توجهاً طريقياً صوفياً، كان منها النقشبندية، والشاذلية، والقادرية، وفي مراحل لاحقة الخلوتية، والإدرسية، والتجانية، والسمانية، والختمية... إلخ. وهذا يعني أن مرجعية قيام هذه الحركات كانت مرجعية داخلية وتحددت ظروف نشأتها وتوجهاتها بالأحوال والظروف التي كانت تمر بالأمة الإسلامية، وكانت في معظم الأحيان حركات إصلاح وتجديد للشأن الديني والدنيوي للأمة الإسلامية.

ولكن حركات أخرى نشأت في العالم الإسلامي تأثرت بحالة الأمة الإسلامية من حيث حاجتها إلى الإصلاح، وفي الوقت نفسه كان تتطلع إلى التهديد السياسي والفكري الذي تمثله حالة الأمم الأوروبية، وتأثر بعض قطاعات الأمة بهذا المؤثر الخارجي. وكثير من الدراسات ترجع تأثر هذه الحركات الإسلامية اللاحقة بالجهود التي بذلها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده اللذين حاولا إنشاء تنظيم إسلامي عالمي باسم "العروة الوثقى" وتعاونوا على إنشاء مجلة بالاسم نفسه. واستمر تأثير ذلك عبر جهود محمد رشيد رضا ومجلة المنار، ثم عبر جهود حسن البنا وإنشاء حركة الإخوان المسلمين.

كان هدف الحركات العديدة التي نشأت في القرن التاسع عشر، الدعوة إلى الإصلاح والتغيير في نظام الحكم في دولة الخلافة العثمانية، بعضها

يحمل توجهات إسلامية وبعضها يحمل توجهات قومية، وبعضها يطلب حماية الأوربيين للحفاظ على المسيحية في الشرق الإسلامي. ولكن بعض الحركات لم تكن تحمل رؤية سياسية للواقع، وإنما تأسست في صيغة جمعيات إسلامية اجتماعية، تستهدف التوعية الدينية والخدمة الاجتماعية، في ظل تراجع دور الدولة عن تقديم الخدمات، وتزايد حاجة المجتمع إليها. ومن هذه الجمعيات ذات النشأة المبكرة الجمعية الخيرية الإسلامية التي أنشأها الإمام محمد عبده عام ١٨٩٢م، "وكانت هذه الجمعية هي أول عمل اجتماعي في مصر في تلك الفترة، وكانت بداية لتأسيس حركة إصلاح اجتماعي واسعة هدفها خلق مجتمع قادر على التضامن."^(١)

وفي مطلع القرن العشرين أخذت بعض الحركات تنشأ من أجل الدعوة إلى التمسك بالدين وصياغة الشخصية الإسلامية، دون الاشتغال بالسياسة. وكان منها مثلاً: الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية، عام ١٩١٢.

ولا نود الاستطراد في الحديث عن الحركات والأفكار التي تبنتها هذه الحركات، فهناك دراسات عديدة حاولت التأريخ لنشأة الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، وتصنيف هذه الحركات من حيث توجهاتها الفكرية، ومحاور اهتماماتها، يكفي أن نشير إلى البحث الذي نشرته مجلة المسلم المعاصر سنة ٢٠٠١م.^(٢) ولكننا نولي بعض الاهتمام بمصطلح حركة الفكر وفكر الحركة.

(١) المهدي، محمد المختار. الجمعية الشرعية.. صفحة من العمل الأهلي، في ذكرى إنشائها في ١ من المحرم ١٣٣١هـ، انظر الرابط:

- <http://www.startimes.com/f.aspx?t=5577732>

(٢) الزفتاوي، عصام الدين. حوارات حول حركة الفكر الإسلامي المعاصر خلال القرن العشرين - دراسة وتحليل، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩٨، السنة ٢٥، أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٠م، ص ١٣٩-١٨٧.

ورد عنوان "فكر الحركة وحركة الفكر" في كتاب للعلواني كان في أصله ورقة عمل قدمت للندوة الأولى لمستشاري المعهد العالمي للفكر الإسلامي المنعقدة في واشنطن عام ١٩٨٩. وكان هذا العنوان واحداً من العناوين الأربعة التي تضمنها الكتاب، لكنه لم يزل حظاً مماثلاً من التوضيح كما نالت العناوين الثلاثة الأخرى، فقد اقتصر عنوان فكر الحركة وحركة الفكر على صفحة ونصف الصفحة. مما يوحي بأن الفكرة كانت حاضرة في ذهن المؤلف، وكان يريد أن يثيرها في ذهن القارئ، لتؤخذ بالاعتبار. ويبدو أن العلواني كان يريد بهذه الفكرة شيئاً مختلفاً عن الدلالة التي ينصرف إليها الذهن في غالب الأحيان. فقد ركزت إشارته الموجزة على ما سماه المؤلف "حركة الأمة" وما تحتاجه من الجهد لبلورة "المنظومة الفكرية الإسلامية المعاصرة والبديلة" والهدف هو "أن نغذي حركة الأمة بالزاد الفكري المطلوب الذي تفتقر إليه".^(١)

ثم جاءت الإشارة إلى حركة الفكر من خلال التأكيد على الحاجة إلى تتبع حركة الفكر الإسلامي "منذ نزول التكليف القرآني: "اقرأ" وحتى يومنا هذا، تتبعاً دقيقاً يمكننا من معرفة سيرورة هذا الفكر ومكوناته والعوامل المتنوعة التي أثرت فيه، ورصد إيجابياته وسلبياته، وطرائق تكوينه وتشكيله، ونقده... باعتباره استجابة للواقع الذي عليه الناس... فهو يقتضي الاجتهاد المستمر للتطوير والتعديل".^(٢)

ثم عاد المؤلف للتأكيد على حركة الأمة من خلال التأكيد على الحاجة إلى قيام "مؤسسات متخصصة... لتزويد حركة الأمة بما تحتاجه من توعية فكرية، والعمل على تشكيل القيادات الفكرية في الساحة الإسلامية... ذلك

(١) العلواني، طه جابر. إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات: ورقة عمل، سلسلة إسلامية المعرفة رقم ١٠، هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامية، ط ٢، ١٩٨٤، ص ٤٣.

(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

أن المشكلة المطروحة في كل عصر، هي: إلى أي مدى يستطيع العقل المسلم أن ينتج أفكاراً حسية محرّكة للأمة، قادرة على وصلها بالقيم الهادية لها في الكتاب والسنة.^(١) فالأزمة التي تعاني منها الأمة هي "أزمة فكرية؛ أي إيجاد الفكر المنبثق عن الإطار المرجعي ملاحظاً معه الزمان والمكان والإنسان؛ الفكر المتقن لعمليات تنزيل هذه القيم في الواقع؛ الفكر القادر على رسم وبناء منهج التنزيل في الواقع، وحراسة ذلك المنهج بمنهج التجديد المستمر، والوعي الدائم على السنن. فكيف نصنع هذه الأفكار ونحولها إلى أفكار حية تضبط حركة أمتنا في ضوء معطيات العصر وحاجاته؟"^(٢)

وقد تطور عنوان: "حركة الفكر وفكر الحركة" في التعديلات التي أدخلت على الكتاب في طبعاته اللاحقة، ليصبح العنوان: المشروع تجديد لفكر الحركة وتنشيط لحركة الفكر " لكنّ المفهوم بقي حاضراً، وذلك عندما أثبت ما أورده في الطبعة الثانية من ضرورة تتبع حركة الفكر الإسلامي... ولوصل حركتنا به. " ثم تقرير أنه: " لا يمكننا... أن نتجاوز هذه المهمة الجماعية، مهمة تزويد حركة الأمة بما تحتاجه من فكر، والعمل على بناء حركة الفكر في الساحة الإسلامية والمعاصرة."^(٣)

فالعلواني لم يكن معنياً بفكر الحركة بمعنى الأفكار التي تتبناها الحركات الإسلامية، بقدر ما كان معنياً بفكر الأمة وحركة الأمة بهذا الفكر، ومن ثم حركة الفكر في الساحة الإسلامية.

أما الريسوني فقد أورد في مقالة قصيرة العنوان نفسه "الحركات الإسلامية

(١) المرجع نفسه، ص ٤٤

(٢) المرجع نفسه ص ٤٤.

(٣) العلواني، طه جابر. إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، هيرنندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٥، ٢٠٠٩م، ص ٨٨.

في فكر الحركة وحركة الفكر. " معالجة مختلفة جاءت ضمن أوراقه النقدية.^(١) وقد لاحظ الريسوني أن نشأة الحركات الإسلامية المسكونة بالهم السياسي قد رافقه ضعف في تكوين العلماء والمفكرين والباحثين. ومن ظهر في الحركات من هؤلاء ظهر عرضاً، فقد "تشكلت الحركات الإسلامية في قياداتها وصفوفها واهتماماتها وأولوياتها على أساس هموم الدعوة والتربية العملية، وعلى أساس الجهاد والجنديّة وما يتطلب ذلك من بذل وتضحية."

ومن ثم فإن ما نشأ في فكر للحركة كان فكراً "في خدمة الحركة ومتطلبات المعركة، فكر يدافع عن خط الحركة، وعن مواقف الحركة، وعن تعليمات الحركة، وعن اختيارات الحركة، وعن مصلحة الحركة. فكر يواجه ما هو يومي وينهمك فيما هو آني، وينضبط للتوجيهات والتعليمات والمتطلبات. فهذا هو "فكر الحركة"، وهو في الحقيقة أقرب إلى ما يسمى -بصفة عامة- بالفكر الحزبي أو العقلية الحزبية. وفكر الحركة بهذا المعنى هو فكر موجه وتابع ومقيد، سواء في قضاياها وموضوعاته أو في مواقفه واختياراته." ولذلك "فقد عجز فكر الحركة هذا على عن مواكبة التطورات والمستجدات، سواء داخل الحركات الإسلامية نفسها أو فيما حوالها. وعجز من باب أولى عن أن يكون هو صانع التطورات ومبدع الاجتهادات."

وإذا كان الريسوني يتفهم ظروف نشأة الحركة الإسلامية في صورة "حركة تحريرية... بحاجة ماسة إلى فكر نضالي منضبط وتمدّبه باختياراتها، فإنه يقرر أن الحركة الإسلامية: "قد أصبحت اليوم مدعوة وملزمة بأن تكون حركة اجتهادية تجديدية، في نفسها وفي مجتمعها، فلذلك أصبحت في أمس الحاجة

(١) وردت هذه المقالة على الموقع الإلكتروني للدكتور أحمد الريسوني مؤرخة في ٢٠٠٥/٥/١١ م ضمن سلسلة من المقالات في نقد الحركة الإسلامية، وقد نشرت المقالة في مواقع إلكترونية كثيرة وشارك في الحديث عنها والإشارة إليها كثير من الكتاب. انظر المقالة في موقع الريسوني على الرابط:

- <http://www.widesoft.ma/raissouni/def.asp?codelangue=6&info=347>

إلى الفكر الحر وإلى الفكر المبدع، فهي بحاجة إلى أن تطلق وتدفع "حركة الفكر" من غير خضوع وتبعية لفكر الحركة.

الحركة الإسلامية اليوم بحاجة إلى فكر يقود حركتها بكثير من الحكمة والرشد، في ظل التحديات المتجددة، والتطورات المتلاحقة، ويصعب أن ينمو هذا الفكر ويتجدد دون قدر كبير من الحرية في "التفكير من خارج الصندوق". وهي بحاجة إلى الاحتفاظ بالعناصر التي يبدو أنها "تغرد خارج السرب"، وتأخذ ما تقول به في الحسبان. وهي بحاجة إلى الاستعانة بعناصر من خارج الحركة لتنظر إلى المشكلات التي تحتاج إلى حلول من زوايا نظر لم تعهدها الحركة. فكثير من القضايا التي تحاول الحركة أن تقدم فيها رؤية هي قضايا "معولمة"، تتأثر بعوامل داخلية وخارجية كثيرة، وتحتاج إلى خبرة متخصصة، وإطلاع واسع، ومتابعة حثيثة، قد لا يتاح لأجهزة الحركة أن توفرها. وبهذه الصورة تصبح الحركة الإسلامية حركة مفتوحة الفكر، غنية المصادر، سريعة التكيف، تحتضن كفاءات الأمة وتوظفها وترشد حركتها.

حين يسبق الفكرُ الحركةَ وتقود حركةُ الفكر فكرَ الحركة يزداد الأمل بتحقق الحركة بالرشد والبصيرة، وتتمكن من تقديم المبادرات واقتراح البدائل و"السيناريوهات"، وصناعة الأحداث، والاحتفاظ بجمهور من المفكرين على ما بينهم من تنوع في الرؤى الفكرية، وتكون الحركة في حالة إنتاج متجدد، تضيف إلى رصيدها المتنامي من الفكر والعطاء.

وحين تسبق الحركةُ الفكرَ، ويُقيد فكرُ الحركة حركةَ الفكر، فيخشى أن يكون ذلك مقدمة للبحث عن المبررات والمسوغات والحجج، وتضطر الحركة إلى البقاء في موقع ردود الفعل، وانتظار وقوع الأحداث والنتيجة في تفسيرها، والارتهان إلى لون من الفكر يكون طارداً للكفاءات الفكرية من الألوان الأخرى، وتتجمد الحركة في موقع الاستهلاك الذي يستنزف ما لديها، فتضطر إلى الاستيراد والتبعية، وتقع في براثن التخبط والاضطراب.

خامساً: المدارس الفكرية

شهد النصف الثاني من القرن العشرين مجموعة من الشخصيات التي اهتمت بالفكر الإسلامي، بعضها كان ضمن الحركات والأحزاب والتنظيمات الإسلامية، وبعضها تعامل مع الفكر الإسلامي من موقف ناقد للتوجهات الفكرية التقليدية سواءً السلفية التراثية أو التجديدية العصرية، واتخذ مساراً متحرراً من هذه التوجهات، يجتهد في ممارسة المنهجية التي عرفتها مذاهب الحدائث الغربية، أو مذاهب ما بعد الحدائث، وكانت بعض هذه الممارسات علنية صريحة، وبعضها ضمنية باطنية.

واستخدم مصطلح "المشروع الفكري" لوصف إنتاج الكاتب أو الباحث. فثمة مشروع فكري لمحمد الغزالي، ومشروع فكري لخالد محمد خالد، وفي مرحلة من مراحل تمايز هذين المشروعين قامت معركة فكرية بينهما دارت رحاها على صفحات كتابين، (من هنا نبدأ، ومن هنا نعلم). ومن بعض أساتذة الجامعات الذين يعدون أقرب إلى العلماء في موضوعات اختصاصهم العلمي، من عرف بالفكر أكثر مما عرف بالعلم، وربما يكون سبب ذلك هو طبيعة التخصص الفلسفي، وعرف كل منهم بمشروعه الفكري الذي يميزه، ومن هؤلاء: إسماعيل الفاروقي، ومحمد أركون، وحسن حنفي، ومحمد عابد الجابري، وطه عبد الرحمن، وفهمي جدعان، على ما بين هؤلاء من اختلاف في المضامين والتوجهات الفكرية. ومن هؤلاء من ترك تخصصه العلمي في الطب أو الهندسة أو الجيولوجيا، وانشغل بقضايا فكرية أنتج فيها إنتاجات ملموسة أشغل فيها مساحة من الاهتمام الفكري، ومن هؤلاء مصطفى محمود، ومالك بن نبي، وزغلول النجار.

وبطبيعة الحال كان بعض هؤلاء يتحدث عن نفسه بوصفه صاحب مشروع فكري، وبعضهم يتواضع، فيترك لغيره أن يصفه بهذا الوصف، وبعضهم يغالي في وصف نفسه بأنه رائد مدرسة فكرية لها تلاميذها وأتباعها.

وفي العقود الماضية ظهرت شخصيات متعددة كان لها اهتمام ملحوظ بالشأن الفكري الإسلامي العام، ثم أنشأ بعضهم مؤسسات لتدريب المهتمين بأفكارهم على امتلاك بناء فكري محدد. كما ظهرت اهتمامات بالشأن الفكري عند كثير من الناشطين في العمل الدعوي والخيري - التطوعي، فضلاً عن مواقع إلكترونية عديدة متخصصة في مسائل الفكر والتفكير والتنمية الفكرية، والبرامج التعليمية والتدريبية ذات الصلة الثقافية العامة، أو العلمية - الأكاديمية التي تنتهي بدرجات علمية.

الجزء الأكبر من الحديث فيما سبق تناول الحديث عن الفرد الإنساني من حيث اتصافه بالفكر، ومن ثم يمكن أن نقول: إن لدى ذلك الفرد بناءً فكرياً معيناً، أو أنه مفكر. لكن البناء الفكري يمكن أن يكون صفة لمجموعة من الناس يشتركون في أنهم يملكون بناءً فكرياً واحداً، أو ينتمون إلى مدرسة فكرية واحدة. والمدرسة الفكرية قد تكون جمعية إصلاحية، أو حركة دينية، أو حزباً سياسياً، أو جماعة علمية في تخصص معين، وقد تكون تياراً فكرياً واسعاً يشمل قطاعات كبيرة من المجتمع، أو تغلب على المجتمع كله. وقد يغلب على أتباع المدرسة الفكرية منهج محدد في النظر إلى الأمور وممارسة التفكير والبحث والسلوك ضمن هذا المنهج، كما هو الحال في المدرسة الصوفية أو المدرسة السلفية، أو الفلسفية. كما قد تتميز مناهج النظر بين المدارس الفكرية في صورة مذاهب فقهية مختلفة.

وفيما يلي أمثلة على عدد من المدارس الفكرية:

١ - جماعة الإخوان المسلمين

لنحرب تحليل مواصفات مجموعة من الناس يمتازون بقدر كبير من التجانس في البناء الفكري المشترك، إن معظم أفراد جماعة الإخوان المسلمين يشتركون في مجموعة من الأفكار الخاصة بنظرتهم إلى المجتمع، والدولة، والتاريخ، والغرب، وفي تحديد نوعية الجهود المطلوبة للإصلاح والتغيير الاجتماعي

والسياسي. ولا شك في أنّ المنهج التربوي للإخوان، والثقافة التي يتلقونها من الكتب والجرائد والمجلات والنشرات المعتمدة لديهم، كل ذلك يشكل الأساس لاشتراكهم في قدر كبير من البناء الفكري. فالجماعة تعتمد التربية أساساً للإصلاح والتغيير، بدءاً من الفرد، ثم الأسرة، ثم المجتمع، ثم الدولة. وتتعاون الجماعة مع غيرها في مشاريع التربية والإصلاح تحت شعار "نتعاون في ما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه". وتسلك الجماعة سبيل التنافس السياسي والحزبي في الوصول إلى مواقع صنع القرار، وتؤمن بالتدرج في تطبيق أحكام الإسلام، وترى أن المجتمعات التي يعيش فيها المسلمون مجتمعات مسلمة أصابها انحراف في كثير من الجوانب، وبدرجات متفاوتة. وتدعو إلى استقلال الدول الإسلامية، وعدم تبعيتها السياسية أو الاقتصادية للدول الأخرى، ولا مانع من التعاون مع الدول الأخرى على أساس المصالح.^(١)

٢- حزب التحرير الإسلامي

وصورة البناء الفكري المشترك لدى حزب التحرير الإسلامي أكثر وضوحاً مما هي عند الإخوان؛ إذ يرى الحزب أنّ قضيته الأساسية هي إقامة الخلافة

(١) البيانات والمراجع المتوفرة عن الإخوان كثيرة، ولكن للاطلاع على كون الجماعة مدرسة فكرية يمكن الاكتفاء بثلاثة مراجع من توجهات مختلفة، وهي:
- عبد الرحمن، محمد. منهج الإصلاح والتغيير عند جماعة الإخوان المسلمين، القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٦م.
- العوا، محمد سليم. حسن البناء ومدرسة الإخوان المسلمين الفكرية، محاضرة بجمعية مصر للثقافة والحوار بتاريخ ٢٦ مايو ٢٠٠٩م، يمكن مشاهدة المحاضرة أو تحميلها على الرابط التالي:

<http://www.amlalommah.net/aml-6098.html>

- Vidino, Lorenzo. Five myths about the Muslim Brotherhood, *Washington Post*, Sunday, March 6, 2011.

والكاتب إيطالي متخصص في شؤون الإسلاميين، وباحث زائر ومستشار في كثير من مراكز الأبحاث الغربية، وكثيراً ما يدعى لتقديم منشوراته إلى صناع القرار في الولايات المتحدة وأوروبا.

الإسلامية عن طريق إنشاء تكتل سياسي، يقوم بالصراع الفكري، ومقارعة الحكام. فالحزب لا يعترف بشرعية نظم الحكم القائمة في البلاد الإسلامية وبعدها نظماً كافرة، ومجتمعات المسلمين هي دار كفر، ولا يؤمن بالنظم الديمقراطية وسيلة إلى الإصلاح، ويعتمد أساليب التثقيف السياسي، والصراع الفكري، والكفاح السياسي، ومقارعة الحكام، وعدم مشاركتهم في الحكم، وعدم مساعدتهم في الإصلاح الاقتصادي أو الاجتماعي أو التعليمي أو الخلقي... ولا يجوز تطبيق الأحكام بالتدرج، بل يجب تطبيقها جميعها دفعة واحدة، أساساً للتغيير. ويتنظر الحزب وصول الصراع السياسي إلى درجة من التوتر تؤدي إلى قيام سلطة سياسية باتخاذ قرار في اعتماد نظام الحكم الإسلامي، وإعادة الخلافة الإسلامية.⁽¹⁾

٣- مدرسة فرانكفورت في الفلسفة

وهي الأساس لمعظم النظريات والاتجاهات النقدية لما بعد الحداثة، وخاصة في الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا وحتى في الأدب والفن والموسيقى، وتقوم فلسفتها على نظرية نقدية معيارية للمجتمع، تحاول هذه النظرية النقدية فهم وتشخيص أسباب الأوضاع السيئة في الواقع الاجتماعي.⁽²⁾

٤- مدرسة شيكاغو في الاقتصاد

تشير إلى المنهج الذي اعتمده أعضاء قسم الاقتصاد في جامعة شيكاغو معظم القرن العشرين، وتبني المدرسة نمطاً محدداً في الاقتصاد، يوصف بأنه نموذج كلاسيكي جديد في الليبرالية، لا سيما فيما يختص باقتصاد "السوق

(1) حزب التحرير. حزب التحرير، بيروت: دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٠م، ص ١٨-١٩، ٤٣، وانظر كذلك:

- حزب التحرير. مفاهيم حزب التحرير، (د.م.)، (د.ن.)، ط٦، ٢٠٠١م، ص ١٥-١٦.

(2) Wiggershaus, R. *The Frankfurt School*, Cambridge, Mass.: Massachusetts Institute of Technology MIT Press, 1994

الحر" يختلف نسبياً عن النمط المغرق في المنهج الرياضي الشكلي، ويتجاوز فكرة التوازن العقلاني العام نحو تحليل توازن جزئي قائم على النتائج. وتعتمد المدرسة مبدأ تقليل الضرائب وتنظيم القطاع الخاص، وتختلف عن اقتصاد السوق الحر الخالص، بدعمها لدور الحكومة في تنظيم السياسة المالية.⁽¹⁾

٥- مدرسة فيينا الوضعية

وقد أسسها مجموعة من العلماء والفلاسفة الألمان والإنجليز بزعامة "كارناب" Rudolf Carnap، وذلك في الربع الثاني من القرن العشرين، وتعتمد الفلسفة الوضعية المنطقية التي أسسها "أوجست كونت" Auguste Comte. ويعتقدون بأن قضايا كل العلوم البشرية غير المنطق لا بد أن تؤيد بالحس والتجربة. ولكن القضايا المنطقية - التي تحدد طريقة تفكير البشر وتعصمه عن الخطأ في الفكر - هي القضايا والأصول العلمية الوحيدة التي لا يجب أن تثبت بالحس والخبرة؛ لأنها تعلمنا طريقة التفكير الصحيح. وتستبعد المدرسة الميتافيزيقا من مجالات الاهتمام العلمي والفلسفي، وقد عانت المدرسة من ضربات قوية على يد الجيل الثاني من فلاسفة العلم من أمثال "توماس كوهن" Thomas Kuhn، و"ويلارد كواين" Willard Quine.⁽²⁾

٦- مدرسة إسلامية المعرفة

ويتبنها المعهد العالمي للفكر الإسلامي وعدد من المؤسسات الأخرى في العالم الإسلامي، وترى أن مشكلة الأمة الإسلامية حالياً هي مشكلة فكرية

(1) Ovdrtveltdt, Johan Van. *The Chicago School: How the University of Chicago Assembled the Thinkers Who Revolutionized Economics and Business*, Chicago: Agate B2; First Trade Paper Edition, 2009. See on the failure of the model of Chicago School in:

- Cassidy, John. Letter from Chicago, "After the Blowup", *The New Yorkers*. January 11, 2010, p. 28

(2) Stadler, Friedrich. (Editor). *The Vienna Circle and Logical Empiricism: Re-evaluation and Future Perspectives* (Vienna Circle Institute Yearbook), New York: Springer 1 edition, 2003

تنعكس على سائر المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الأخرى، وأن مصدر هذه المشكلة هو النظام التعليمي الذي يجعل المعرفة التي يتم تعليمها في مؤسسات التعليم المدرسية والجامعية، مجردة من الأساس الديني والقيمي، وأن التعليم الديني حين يقدم في هذه المؤسسات يتم بصورة مجردة عن المعرفة المعاصرة.

وترى مدرسة "إسلامية المعرفة" ضرورة إصلاح الفكر الإسلامي، بإعمال التجديد والاجتهاد في تنزيل الهدي القرآني والنبوي على الواقع زماناً ومكاناً وتنقية التراث مما لحق به من قصور وجمود لا يزال يشكل أزمة في العقل المسلم المعاصر. وفي الوقت نفسه ترى المدرسة دراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية، تخلصها مما لحق بها من مشكلات معرفية ومنهجية من جهة، وتعمل الرؤية الإسلامية في صياغاتها النظرية والفلسفية، من جهة أخرى.

ونظراً لأن واحدة من مشكلات العلوم الاجتماعية في الغرب هي محاولات إخضاعها للمنهجية العلمية الصارمة التي لا تؤمن إلا بالخبرة الحسية، فإن الرؤية الإسلامية التي تعتمد التكامل بين الخبرة العقلية والحسية في فهم النصوص الدينية من جهة، وفهم وقائع العالم الطبيعية وطبائع النفس الإنسانية والمجتمع الإنساني، من جهة أخرى، سوف لن تقدم المعرفة البشرية للمسلمين بصورة مناسبة وحسب، وإنما تُسهم في حل مشكلات فلسفة العلم ونظرية المعرفة في العالم الغربي نفسه.^(١)

٧- المدرسة السلفية

في إطار الحديث عن المدارس الفكرية، هل يمكن أن نعدّ التوجهات السلفية المعاصرة مدرسة فكرية؟

(١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي. إسلامية المعرفة: المبادئ العامة - خطه العمل - الانجازات، هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨٩م.

في الكلام عن تاريخ مصطلح السلفية، ترد مصطلحات عديدة منها: أهل الحديث، وأهل السنة والجماعة، والطائفة المنصورة، والحركة الوهابية. ويرد الكلام عن الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، الذي وُصف بأنه إمام أهل السنة، وصاحب المذهب المعروف في الاعتقاد والفقهِ، والخبرة المتميّزة في مواجهة الفلسفة والاعتزال والتصوف، وأنموذج الثبات والصبر الطويل في المحنة المعروفة بفتنة خلق القرآن. ويرد الكلام كذلك عن شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، والمعارك العلمية والعملية التي خاضها، دفاعاً عن بلاد الإسلام وسنة رسوله ﷺ. ويرد الكلام كذلك عن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ) الذي حاول إحياء تراث ابن تيمية، وأقام دعوة إصلاحية تحارب البدع والخرافات والتوسل بالقبور، ثم تحالف معه محمد بن سعود أمير الدرعية، وهو التحالف الذي استمر عبر الدولة السعودية الأولى والحالية. وبذلك ظهر مصطلح الوهابية الذي أصبح يطلق على البعد الديني من الدولة السعودية.

وثمة مراجع وكتب متخصصة تتحدث عن نشأة السلفية، وظروف انتشارها وكيفية انتقالها من وصف علمي يرغب معظم العلماء والدعاة أن يتشرفوا به، إلى أسماء مؤسسات وجماعات وتنظيمات ودول تحتكر هذه الصفة، وتنفيها عن غيرها.

لقد كثر الكلام في العقد الأخير من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين عن السلفية بتوجهات متضاربة إلى حد كبير، فثمة أنظمة ودول ترفع شعار السلفية، وتجد من يعارضها بالسلاح بحجج سلفية، ومن يدافع عن هذه الأنظمة بحجج سلفية. وتتمايز في هذا الإطار سلفيات علمية، وسلفيات جهادية، وسلفيات سياسية... إلخ.

لقد اختلط مفهوم السلفية بالمعاني السلبية بتأثير عوامل متعددة منها الإعلام الرسمي في العالم العربي، والإعلام الأجنبي الذي جَهد في تشويه صورة الإسلاميين عموماً وحركات المعارضة السياسية للأنظمة الدكتاتورية،

وللنفوذ الأجنبي. ومنها الكتابات التي أصدرها كثير ممن يصنفون أنفسهم أو يصنفهم غيرهم بالحدائين والعلمانيين والليبراليين. ومنها ممارسات فئات إسلامية مختلفة ترفع شعار السلفية وتمارس خطاباً إقصائياً، وتلجأ إلى العنف مع المخالفين سواءً حكاماً أو محكومين. إنَّ الشائع عن المدرسة السلفية لا يخلو من كثير من المشكلات التي يعود مصدرها لمدونات تاريخية، ومواقف سياسية. لكن الأكثر أثراً في اختلاط الأمور اليوم، بشأن السلفية، هو المعارك الإعلامية، والجماعات المتعددة التي تعلن انتسابها للسلفية، رغم التباين الشديد في توجهات هذه الجماعات وممارساتها.

ونكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى مثال واحد على نوع من المعالجة للفكر السلفي، دفاعاً عنه،^(١) ومثال واحد آخر على نوع من المعالجة رفضاً للتحزب والتمذهب بهذه الصفة.^(٢) ففي الكتاب الأول يُعرّف الكاتب السلفية بصورة لا جدال حولها، فيقول: السلفية هي: "الاتجاه المقدّم للنصوص الشرعية على البدائل الأخرى، منهجاً وموضوعاً، الملتزم بهدي الرسول ﷺ، وهدي أصحابه علماء وعملاً، المطّرح للمناهج المخالفة لهذا الهدى في العقيدة والعبادة والتشريع." وبهذا التعريف يكون من حق معظم الجماعات الإسلامية ومعظم العلماء المسلمين، أن يُعدّوا سلفيين. ومن ثم فلا مشكلة في تبني الاتجاه السلفي، ما دام يتسع لنتائج الاجتهاد في تفسير النصوص وتطبيقها. والكتاب الثاني، لا يناقش آراء الجماعات السلفية وأفكارها، ولكنه يقرر أنّ عصر السلف نبراس للأمة المسلمة الواحدة، ويتساءل عن حق أية جماعة في الخروج على إطار الأمة لتبتدع من السلفية إطاراً جديداً لجماعة إسلامية متميزة، في ضوء ما أحدثته التحزب تحت هذا الإطار من آثار على صعيد الواقع الإسلامي وفي مجال الدعوة الإسلامية.

(١) الزيندي، عبد الرحمن بن زيد. السلفية وقضايا العصر، الرياض: مركز الدراسات والإعلام/ دار إشبيلية، ١٩٩٨م.

(٢) البوطي، محمد سعيد رمضان. السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دمشق: دار الفكر، وبيروت: دار الفكر المعاصر، ط ١١، ٢٠٠١م.

ومع كل ما ذكرنا فإنّ التعريف المشار إليه للسلفية لا يمنع من عدّه عنواناً لمدرسة فكرية في مواجهة مدارس أخرى تعتمد المصالح خارج إطار النصوص الشرعية، وتستبعد الهدي النبوي في ترشيد تنزيل النصوص على الواقع، وتستورد أنظمة وأفكاراً وممارسات تخالف المعروف من الإسلام بالضرورة. ليس ثمة ما يمنع من الحديث عن مدرسة فكرية بهذه المواصفات، لا سيما إذا عزلنا المضامين الفكرية والعلمية لهذه المدرسة عن المواقف السياسية، وما أنتجته من أشكال الصراع بين أصحاب الأهواء، والتضارب بين مصالحهم الحزبية.

وتتميز المدرسة الفكرية غالباً بوجود عدد من الرواد التي يُرجع إلى كتاباتهم في توضيح مقولات هذه المدرسة، يشتركون في مجموعة من الأفكار، ومجموعة من الآمال والطموحات، التي يسعون إلى تحقيقها، بقدر من التعاون والتنسيق بين المنتمين إلى المدرسة. وتتميز المدرسة كذلك بوجود جمعية مهنية أو علمية، تضم المنخرطين بهذه المدرسة والقرييين منهم. وتعدّ الجمعية عادة مؤتمراتها الدورية التي تُعمل رؤيتها في بحث القضايا التي تراها مجال الاهتمام في الدراسة والبحث والمناقشة. وبعض المدارس تتوفر على إدارات للنشر ودوريات ثقافية أو علمية تنشر الأدبيات التي يتم إنتاجها ضمن هذه المدرسة.

فالبناء الفكري ضمن المدرسة الفكرية الواحدة هو مجموعة الأفكار (المعتقدات) والآمال (المشاعر) التي تشكل رؤية الإنسان الفرد لنفسه، ولمجتمعه، ولتاريخ هذا المجتمع وحاضره ومستقبله، ولواقع العالم من حوله، وتاريخ هذا العالم، ولمنهج التغيير المطلوب لإصلاح الواقع في مجتمعه وحل مشكلاته. ويشترك أعضاء المدرسة الفكرية الواحدة بمجمل هذه الأفكار والآمال.^(١)

(١) أرجو أن لا يؤخذ هذا النص بوصفه التعريف "الجامع المانع"، بل يؤخذ على أنه صيغة من الصيغ التي نعبّر بها عن مفهوم البناء الفكري، بمناسبة التمييز بين عنصريين في هذا البناء وهما: المدركات الاعتقادية، والمدركات الانفعالية.

صحيح أن الأفكار والآمال في المدرسة الفكرية الواحدة قد لا تكون متطابقة تماماً، نظراً للاختلافات الفطرية بين الأفراد وتميز كل منهم عن الآخر، لكن القدر المشترك بين مجموعة الأفراد في المدرسة الواحدة يكفي لجعلهم مجموعة واحدة، متميزة عن الأفراد في خارج المجموعة، أو عن المجموعات الأخرى.

ويتم الحديث أحياناً عن النخبة في المجتمع، حيث إن كل مجتمع يمكن أن نميز فيه بين النخبة والعامية، وأحياناً يلزم التمييز بين النخب، فنقول: "النخبة السياسية"، أو "النخبة الاقتصادية" أو "النخبة الفكرية". وفي هذه الحالة فإن النخبة الفكرية في المجتمع لا يشترك أفرادها بالضرورة في بناء فكري موحد، بل يمكن أن نميز في داخل النخب مثلاً بين مدرسة فكرية إسلامية، ومدرسة فكرية علمانية، لكن الذي تشترك فيه هذه المدارس في أنها تحمل أفكاراً تميزهم عن العامة، على افتراض أنه يصعب أن نقول عن العامة، إنها تمتلك بناءً فكرياً محدداً.

خاتمة:

من خلال عناوين وفقرات هذا الفصل يتبين لنا أن مفهوم البناء ينبغي أن يصاحبه تخطيط وتصميم، وأن مفهوم الفكر ينبغي أن يرافقه قدر كبير من العلم والثقافة، فالذي لا يملك فكراً إنما هو متبع لهوى نفسه أو غيره. وعملية البناء ما هي إلا عملية انتقال من حالة قائمة إلى حالة منشودة؛ ملتزمة بخطة وأهداف، يتم تنفيذها في خطوات واضحة، وأما البناء فهو مكونات بنسب ومقادير، وتتصل ببعضها بعلاقات وروابط.

وتبين كذلك أن التفكير أرقى من التفكير، لأنه جهد مقصود للوصول إلى الحقيقة، وأن التذكر نوع من التفكير، لأنه يتضمن استحضار الذهن بما كان يعلمه الإنسان عن الموضوع، أما التدبر، فإنه يتجاوز كل ذلك إلى النظر في عواقب الأمور.

أما عن مراحل التفكير فقد قسمها بعض الباحثين إلى أربعة مراحل، الأولى أنَّ الإنسان يتفكر في المعارف التي يكتسبها بالإدراك الحسي أو التخيل، وهي ما يمكن تسميته بمرحلة الإدراك المادي، والثانية أن يدقق الإنسان النظر في ألوان المعرفة، ويمكن تسمية هذه المرحلة بالتذوق الانفعالي، أما المرحلة الثالثة من التفكير فهي أن يتفكر بصفات الله الخالق المبدع، والاعتراف بفضله وعظمته، ويمكن تسمية هذه المرحلة بالإيمان، والرابعة أن ينتقل المؤمن من إدراك الصانع الحكيم إلى مواصلة التأمل، والذكر، والحُب، والشفافية الوجدانية إلى استشعار وجوده مع الملاء الأعلى، فيرى ما لا يستطيع أن يتحدث عنه، أو يتكلم فيه. وهي ما يمكن تسميتها بحالة الشهود.

إن مهمة التمييز بين الفكر والعلم تقف عند المصطلح وليس عند المفهوم، فمصطلح العلم قديم، يمكن أن يطلق على علم أصول الفقه، أو علم الكيمياء أو غيره، وأما الفكر فهو مصطلح حديث نقصد به مجموع المدركات والأحكام التي يصل إليها التفكير البشري بهدف فهم الموضوع وتحليل عناصره وأسبابه ونتائجه، وعلاقة هذا الموضوع بالواقع.

وإذا كان الفكر هو حركة العقل فإنَّ بين الفكر والحركة تلازماً، يقضي بأن يقود الفكر أي حركة تبتغي الإصلاح والتغيير، فتكون حركة الفكر هي التي تقود فكر الحركة، ولا تكون الحركة أسيرة لمتطلبات التنظيم الحركي الذي ربما يفقد القدرة على الغنى الفكري والمبادرة والمبادأة بأفكار التجديد والتطوير.

لقد تبين لنا أنَّ للبناء الفكري قواعد وأسساً، وله مصادر وأدوات وأساليب... وإذا أتيح لعدد من الأفراد أن يقيموا بناءهم الفكري على أساسها، فإننا نتخيل أن يكون هؤلاء الأفراد في مدرسة فكرية واحدة، ومع ذلك فإننا لا ننسى أن الفروق الفردية بين الناس ستجعل أبناء المدرسة الفكرية يتمايز بعضهم عن بعض رغم ما بينهم من مشتركات. ونحن نقدر أنَّ الحاجة قائمة للأميرين معاً: للمشاركات

الفكرية، من جهة، وللتمايز في المواهب والقدرات والميول الفردية، من جهة أخرى. والتوازن بين هذين الأمرين ضروري؛ فالمشتركات تسمح بالتعاون في تحقيق أهداف مشتركة للجماعة والمجتمع والأمة، والتنوع يسمح بالتكامل بين الخبرات المتنوعة بين أفراد الجماعة وفئات المجتمع ومجتمعات الأمة.

الفصل الثالث

البناء الفكري للمجتمع والأمة

مقدمة

أولاً: الهوية الفكرية

ثانياً: البناء الفكري بين الجمود والتجدد

ثالثاً: تسويق الأفكار

رابعاً: حاجة الأمة إلى القيادة العلمية والفكرية

خاتمة

البناء الفكري للمجتمع والأمة

مقدمة:

الأمة في المصطلح القرآني هي الجماعة أو الطريقة أو الدين، ولكن اللفظ في اللغة العربية الشائعة اليوم -وما يقابل هذا اللفظ باللغات الأخرى- أصبح ذا دلالات مختلفة، فتعني مجموع الناس في مجتمع محدد، أو دولة محددة، فيقال الأمة المصرية، ويقال الأمة الأمريكية؛ وتعني مجموع الناس في دين واحد، فيقال الأمة الإسلامية، والأمة اليهودية، وهكذا. أما المجتمع فهو مجموعة من الناس يعيشون في محيط جغرافي محدد، ويجمعهم نظام مشترك يلتزمون به، يدير شؤونهم ويحدد علاقاتهم ببعضهم وعلاقاتهم بالمجتمعات الأخرى، وقد يكون بين أفراد المجتمع انسجام عام في واحد أو أكثر من العوامل المؤسسة للمجتمع مثل الدين أو اللغة أو القومية. وقد يكون بين المجتمعات من هذه العوامل ما يجمع جميع أو معظم من يعيش في هذه المجتمعات في دائرة أكبر. فيكون الحديث عن شعب يعيش في عدد من المجتمعات، وقد يطلق على الشعب وصف الأمة بمعيار محدد عرقي أو لغوي أو ديني. فيكون الحديث عن الأمة العربية التي يجمعها العرق واللغة، وتجتمع في تكوينها فئات من أهل الأديان المختلفة، وتعيش في مجتمعات متعددة، أو يكون الحديث عن الأمة الإسلامية التي يجمعها الدين، وتجتمع في تكوينها فئات من أهل اللغات والأعراق المختلفة وتوجد في مجتمعات ودول وقارات مختلفة.

ونلاحظ أن بعض العوامل وراثية لا تسمح للإنسان أن يخرج من دائرة الانتماء الإرادي إلى مجتمع أو أمة، مثل مكان الولادة أو اللغة أو القبيلة أو العرق، وبعض هذه العوامل يختارها الإنسان اختياراً إرادياً حراً مثل الدين، والفكر.

والهوية الفكرية يصح أن تكون وصفاً تتصف به أية جماعة صغيرة أو كبيرة، ويحدد هذا الوصف مجموع الأفكار التي يتبناها أفراد هذه الجماعة، وطرق التفكير التي يستعملونها، ومن ثم البنية الفكرية التي تتضمن منظومة المعتقدات والقيم وأنماط السلوك. وتتشكل هذه البنية من مصادر مختلفة، تعود إلى الموروث التاريخي، أو أساليب التنشئة التربوية والاجتماعية، أو التثقيف القسري للنظام السياسي، أو غير ذلك من الآثار.

نحاول في هذا الفصل الوقوف على بعض هذه العوامل التي تشكل الهوية الفكرية للفرد والمجتمع، ودور الفرد والنخبة في إبداع الفكر ودور البيئة المؤسسية في احتضان الفكر ورعايته وتسويقه، وفي بناء رأس المال الفكري للمجتمع والأمة، وموقع الأمة المسلمة في الريادة الفكرية.

أولاً: الهوية الفكرية

كما أن الله سبحانه خلق كل فرد إنساني بصورة تميّزه عن الفرد الآخر، رغم وجود كثير من الصفات المشتركة بين الأفراد، كذلك جعل الله الناس قبائل وشعوباً، تختلف فيما بينها في اللغة، واللون، والدين، والتقاليد. والمجتمعات البشرية الحالية تتمثل في كيانات سياسية تسمى (دولاً): لها حدودها الجغرافية والسياسية، ولها خصائصها ومقوماتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، ولها ثقافتها وعاداتها في المأكل والملبس والمشرب.

وقد يتميز في المجتمع الكبير للدولة مجتمعات فرعية، تتميز على أساس البيئة الحضارية، بادية وحضر، أو الطبقة الاقتصادية، أغنياء وفقراء، أو فئات عمل ومهن، ونقابات مهنية، إلخ.

وتحرص المجتمعات عادة على المحافظة على هويتها الفكرية والثقافية من خلال عدد من الأساليب والوسائل والإجراءات، منها:

١- برامج التربية والتنشئة الأسرية التي يتعلم فيه الفرد اللغة الأم، وكثيراً

من القيم والأعراف الاجتماعية.

٢- برامج التعليم العام التي يتعلم فيها الفرد أساسيات العلم والمعرفة عن تاريخ بلده، وجغرافيته، وأنظمتها، والحقوق والواجبات التي يجب أن تقوم بين أفراد المجتمع وفئاته.

٣- مؤسسات المجتمع الرسمية أو الأهلية، التي يكون لها اهتمامات خاصة في مجال ثقافي أو سياسي أو اجتماعي، ولكنها مع ذلك تسهم في بناء الهوية الوطنية لأبناء المجتمع، بما فيها من عناصر فكرية وثقافية. ومن هذه المؤسسات على سبيل المثال: الأحزاب السياسية، والجمعيات والنقابات المهنية، والمنظمات الشبابية والرياضية، والمكتبات العامة، وغيرها.

٤- التشريعات والقوانين التي على الفرد أن يلتزم بها، بصورة تحقق تماسك المجتمع، وتحافظ على مصالحه، والعقوبات التي يمكن أن يتعرض لها الفرد إذا خالف هذه الأنظمة والقوانين.

مثل هذه الأساليب والوسائل تشترك في صياغة عقول الأفراد في المجتمع ونفسياتهم، وأنماط السلوك لديهم، بصورة تستطيع أن تميز هوية الفرد وانتماءه إلى مجتمعه. فالبناء الفكري لمجتمع ما يتحدد بمجموع الأفكار والمشاعر وأنماط السلوك المشتركة بين أفراد ذلك المجتمع، وتكون مختلفة عنها في مجتمع آخر، وبذلك يكون للمجتمع الآخر بناء فكري آخر.

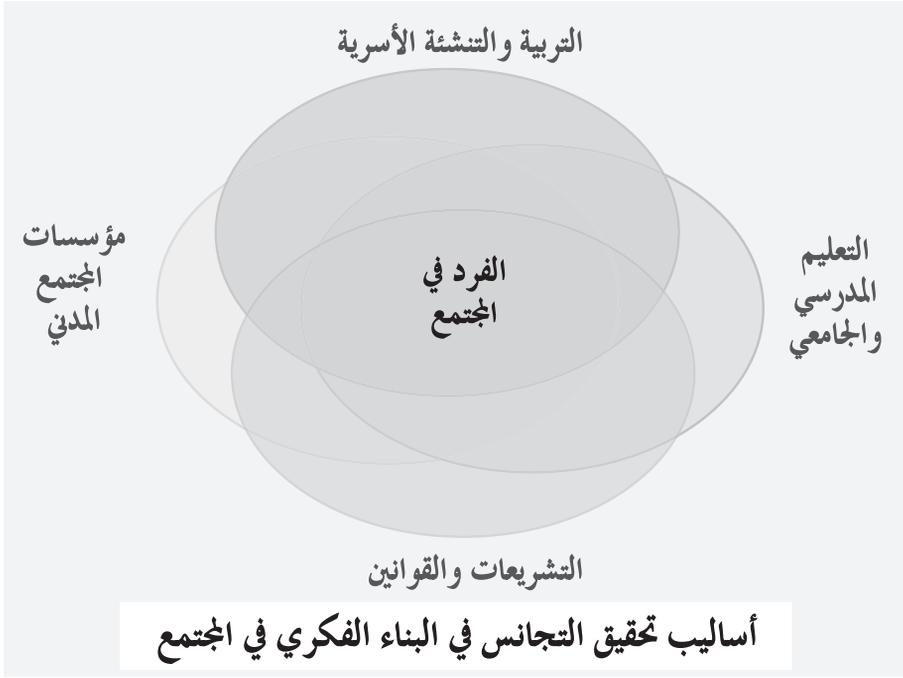
وفي مجال الحديث عن البناء الفكري للأمة يلزمنا أن نلاحظ أنّ مفهوم الأمة لم يعد مفهوماً منضبطاً في أصوله ودلالاته اللغوية أو الدينية، فالمجتمع من الناس داخل الدولة يمكن أن يسمّى نفسه أمة، ويحاول أن يعيد بناء تراثه وأصوله التاريخية من أجل أن يسوغ به هذه التسمية. وقد بدأت هذه الظاهرة تغزو المجتمعات البشرية بعد سلسلة من المخاضات العسيرة التي مرت بها

أوروبا، وبناء الدولة الوطنية ضمن حدود سياسية لم تكن معروفة في السابق في عهد الإمبراطوريات، ونظم الحكم الدينية. ثم انتقلت هذه الظاهرة إلى القارات الأخرى بعد تقسيم تركة الاستعمار إلى دول، أو دويلات، لكل منها حدود سياسية، وعلمٌ ذو ألوان، ونشيدٌ وطني، ونظامٌ حكم. ولا شك في أن رسم هذه الحدود سواءً في أوروبا أو آسيا أو إفريقيا لم يكن على أساس التمايز والنقاء العرقي أو اللغوي أو الديني، ومع ذلك فقد أصبح كل مجتمع أمة قائمة بذاتها (nation).

لكن مفهوم الأمة في الإسلام مفهوم ديني متعدد الجوانب، يمكن أن يتحدد في شخص واحد يقوم مقام أمة في حملها للرسالة الدينية: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ كَانَتْ أُمَّةٌ﴾ [النحل: ١٢٠]، أو جماعة من الناس تقوم بمهمة دينية محددة: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، أو أتباع محمد ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، أو مجموع أتباع الأنبياء الذين جاءوا برسالة التوحيد: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] أو المجموع البشري بكل تنوعاته: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

وعندما نتحدث عن الأمة الإسلامية، في دلالاتها المحددة في القرآن الكريم والحديث النبوي والتراث الإسلامي، التي عرفت في تاريخها معاني الوحدة، والتماسك، والتكافل والتناصر، ثم عرفت في واقعها المعاصر التمزق إلى دول ومجتمعات، وإلى طوائف ومذاهب، وإلى أعراق ولغات...، فإن علينا أن نتخيل معنى البناء الفكري للأمة في كلتا الحالتين.

فالأمة الإسلامية الواحدة، كما يريد لها دينها الواحد؛ تتوحد في عقيدتها، وعباداتها، وتتوحد في شعائرها ومشاعرها، وفي أحكامها وأنظمتها الشرعية، وتتوحد في آمالها وآلامها، "كالجسد الواحد"، ومن ثم فلا شك في أنها تملك



من وحدة البناء الفكري ما يميز أي مجتمع من مجتمعاتها، وأي فرد من أفرادها بهويته وانتمائه إلى هذه الأمة. لكنَّ الأمة الممزقة إلى مجتمعات ودول، مختلفة في ولاءاتها، متخاصمة على حدودها، متنافسة على مصالحها، لم تنجح في أن يجمعها جامع، ويجتهد كل جزء منها في التميز على الأجزاء الأخرى ولو في مجال "التداول في البيان"!^(١)

وبقدر ما تشترك مجتمعات الأمة في أساليب التنشئة، وبرامج التعليم، وإقامة المؤسسات العامة والخاصة، وأنظمة الحياة، بقدر ما يتوحد بناؤها الفكري.

ثانياً: البناء الفكري بين الجمود والتجدد

تتميز بعض الحركات بأنها تبني مدارس فكرية تستمر بعد وفاة مؤسسها، وتضرب جذورها عميقاً في واقع الفكر وواقع المجتمع، ثم تستقر المدرسة الفكرية فترة طويلة دون تجدد يُذكر. وعلى ما في هذه الأفكار الأولى التي تكونت على أساسها المدرسة الفكرية، وعلى ما اتصفت به القيادة التي كوَّنتها من عبقرية في البناء، فإنَّ الجمود على تلك الأفكار الأولى قد لا يكون صفة إيجابية.

إن ذلك لا يعني إنكار فضل المؤسس، والتهاون في الاعتراف بعبقريته في صياغة أفكار الحركة، بحيث ترتبط بهوية المجتمع وانتمائه الفكري ارتباطاً وثيقاً، أو لعبقريته في صياغة تنظيم الحركة في صورة أفكار صالحة للتبني وقابلة للبقاء. يقول سيد قطب عن حسن البناء مؤسس حركة الإخوان المسلمين:

"حسن البناء.. إنها مجرد مصادفة أن يكون هذا لقبه.. ولكن من يقول: إنها مصادفة، والحقيقة الكبرى لهذا الرجل هي البناء، وإحسان البناء، بل عبقرية البناء؟ لقد عرفت العقيدة الإسلامية كثيراً من الدعاة.. ولكن الدعاية غير البناء.."

(١) البخاري. صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل للنبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وفيه سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ: "...قال متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربَّتها، وإذا تناول رعاء الإبل البُهْم في البيان..."، حديث رقم ٥٠، ص ٢٣.

وما كل داعية يملك أن يكون بناء، وما كل يوهب هذه العبقرية الضخمة في البناء. هذا البناء الضخم.. الإخوان المسلمون.. إنه مظهر هذه العبقرية الضخمة في بناء الجماعات.. إنهم ليسوا مجرد مجموعة من الناس، استعجاش الداعية وجداناتهم، فالتفوا حول عقيدة.. إن عبقرية البناء تبدو في كل خطوة من خطوات التنظيم.. إنها عبقرية البناء، تمتد بعد ذهاب البناء!"^(١)

لا شك في أن تطوراً مهماً حصل في دوائر المدرسة الفكرية التي أسسها حسن البنا وتكونت على أساسها جماعة الإخوان المسلمين منذ أكثر من ثمانين عاماً، وهي تشهد اليوم حضوراً كبيراً في الساحة الإعلامية والسياسية، المحلية والإقليمية والدولية، وتخرج أفكارها من حالة إلى حالة، وتصبح موضوعاً للحوار والجدل، بين المؤيدين والمعارضين، وسوف يتطلب كل ذلك جهوداً فكرية جديدة، ربما يرافقها إعادة صياغة وتكييف ليس لمواجهة التحديات التي ربما واجهت مثلها من قبل وحسب، وإنما للتأكيد على حركية الفكر الإسلامي الذي تتبناه، وعلى ضبط التوازن بين الثوابت والمتغيرات في هذا الفكر، وأخيراً لبقائها مدرسة فكرية متجدرة، وليس حزباً تطيح به الأحداث إلى غير رجعة.

إن حضور الفكر الإسلامي في التاريخ كشف عن صعوبة حصر هذا الفكر في مدرسة فكرية واحدة، تنشأ ضمن محددات الزمان والمكان. فانتساب هذا الفكر إلى الإسلام لا يسوغ لبعض المتحدثين عن الإسلام الاكتفاء بالتأكيد على أن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان، ومن ثمّ فعلى المسلمين أن يتمسكوا بدينهم، فهم ليسوا بحاجة إلى شيء آخر غيره أو معه، حتى يطيب عيشهم وتُحلّ مشكلاتهم. وإذا كان ذلك تعبيراً عن حقيقة اعتقادية لا مجال للتردد في الانطلاق منها، فهل ذلك يعنى أنّ الطريقة التي يفهم بها المسلمون دينهم، ويصوغون أفكاره، ويطبقون أحكامه، في البلدان المختلفة، والأزمان المتتالية، هي صورة واحدة تتصف بالثبات والاستقرار، وتخلو من الاختلاف والتنوع والتجدد؟

(١) قطب، سيد. دراسات إسلامية، القاهرة: دار الشروق، ط ١١، ٢٠٠٦م، ص ٢٢٥-٢٣٠.

إنّ التغيّر حقيقة من حقائق الكون، فساعة الزمن في هذه الحياة الدنيا، لا تتوقف عقاربها. ويكفي أن يكون مرور الوقت عاملاً أساسياً في التغيّر الذي يصيب الأشخاص ويؤثر في رؤيتهم للأشياء والأفكار. وبمرور الوقت ينمو الإنسان ويمر بخبرات جديدة، فيزداد في العلم، ويتطور في الخبرة والتجربة، وهو في ذلك يتذكر أموراً وينسى أخرى. لذلك لا نتخيل معنىً للجمود في فكر الإنسان على وجه الحقيقة. ومع ذلك يكثر الحديث عن الحاجة إلى التجدد والتجديد، وضرورة التوقف عن الجمود، ويتجدد الحديث عن الانفتاح والانغلاق في كل مناسبة للحديث عن الفكر الإسلامي، فماذا يعنى ذلك؟

يدعو الفرد المسلم ربّه: ربّ زدني علماً، ويردّد: لا بارك الله لي في يوم طلعت عليّ شمسهُ ولم أزد فيه علماً. والزيادة في العلم فضيلة وما زال العالم عالماً ما طلب العلم، فإن ظن أنه علم فقد جهل، ويكفي الجهل منقصة أن يتبرأ منه من هو واقع فيه، ويكفي العلم فضلاً أن يدعيه من لا نصيب له فيه.

وفي التاريخ الإسلامي تطورت العلوم ونمت معارف العلماء، ولم يشعر المجتمع الإسلامي في أيّة فترة من فترات التاريخ أنّ الحاجة إلى تفسير جديد للقرآن الكريم قد انتهت، بل استمر العلماء يكتبون في التفسير، ويكتبون في الفقه، ويكتبون في العقائد، ويعملون العقل في روايات الحديث النبوي، فيصحّحون ويضعّفون. ولم يثبت أن باب الاجتهاد قد أغلق، وإن ادّعي ذلك.

والتجديد حقيقة من حقائق العلم في الإسلام، والله سبحانه يبعث في هذه الأمة في كل عصر من يجدد لها دينها، ويكفي مفهوم التجديد فخراً أن كل التيارات الفكرية تدّعيه وتبرز إسهامها فيه. والتجديد واحد من المفاهيم الكلية في النظام الفكري الإسلامي، وهدف منشود من أهدافه، ومطلب عزيز لضمان بقاء المجتمع قائماً وحاضراً في ساحة الفكر البشري.

وللتجديد ثمّلات متعددة، فمنه اجتهاد جديد في فهم نص، أو تنزيل النص على الواقع؛ ومنه انتقال بالفكر الإسلامي من معالجة المسائل الجزئية

في حياة الأفراد والمجتمعات إلى الانشغال بالقضايا الكلية والمسائل العامة للأمة والبشرية؛ ومنه توظيف الوسائل والأدوات التي تستجد في واقع المجتمع الإنساني في تعميم المعرفة بالدين، والتبشير به والدفاع عنه، ومنه تطوير المفاهيم وتنظيم الأفكار ضمن ضوابط منهجية تحدُّ من الفوضى الفكرية، وتوفر إطاراً مرجعياً للحركة الحرة داخل هذا الإطار، دون انفلات من ثوابت الدين ومقاصده في تحقيق مصالح الأمة. وهكذا.

ونحن نفهم حديث غربة الدين^(١) على وجه من التجديد، فبدأ الإسلام غريباً غير معروف، وغير مألوف لمن شهد غربته الأولى، لذلك كان أكثر الناس يجحدون الدين ويستنكرون ما يدعو إليه، حتى لو استيقنته أنفسهم. والحديث يوحى بأنه ستأتي على الناس أزمنة يعود فيها الإسلام غريباً كما بدأ، الأمر الذي يتطلب تجديد الدعوة إليه والتبشير به، وأحياء ما اندثر من علومه. ولعل ما قام به أبو حامد الغزالي من "إحياء علوم الدين" كان من هذا الباب، ولذلك كان اختياره عنوان كتابه على هذه الصورة.

فالجمود يمكن أن يصيب الصورة العامة التي يكونها جمهور الناس عن الدين، أو العلم، أو الفكر، ويصيب العلماء في مرحلة زمنية معينة، ويصيب فئة من الناس دون أخرى، ويصيب فرداً دون آخر. وكذلك التجدد يمكن أن يقع لصورة الدين أو العلم أو الفكر عند الناس، كما يقع لطبقة العلماء، أو فئة منهم دون أخرى، أو لفرد من الناس دون آخرين.

وإذا كان الجمود هو التمسك بصور من الفهم لم تعد تكفي لبيان صلة

(١) مسلم، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. عناية أبو صهيب الكرمي، الرياض: دار الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً.. رقم الحديث ١٤٥، ص ٨٣. "إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، وجاء في إحدى روايات الإمام أحمد بن حنبل، في مسنده، دار الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، من حديث عبد الرحمن بن سنة في مسند المدنيين، رقم (١٦٨١٠) ص ١١٩٥: "قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يُصلحون إذا فسد الناس."

الفكر بالحياة، وإصلاح الواقع المعيش، ومن ثم يفقد الفكر قيمته، ويضطر الناس إلى البحث عن فكر آخر.. إذا كان الجمود كذلك، فإنَّ التجدُّد لا يكون في البحث عن نظم جديدة في الاعتقاد والفكر والمناهج والمرجعيات، ومن ثمَّ التخلص من النظم الأصلية القديمة، وإنما يكون الحق في الموازنة والاعتدال، بين التمسك بأصول الدين ومبادئه وثوابته، وقواعد الفكر ومناهجه من جهة، والتجدد في تطوير الفهم في ضوء المعارف الجديدة، وتنظيم التفكير في ضوء المناهج الجديدة، وتنظيم الفكر في ضوء المسائل الجديدة، واستعمال الوسائل المتجددة الأكثر نفاذاً إلى نفوس الناس وعقولهم، وإقامة الصلة بمستجدات الواقع وتحدياته...

صور التجدد والانفتاح في الفكر محمودة منشودة، ويميل الناس إلى ادعائها، حتى لو لم تكن موجودة فيهم، والحديث عنها سهل ميسور، وهو أسهل من الحديث عن صور الجمود والانغلاق التي يميل الناس إلى ذمها والتبرؤ منها، رغم أنهم قد يكونون واقعين فيها. وعندما يتجادل طرفان أو يتحاوران حول مسألة من المسائل تظهر صور الجمود عند أحد الطرفين أو عند كليهما. فمن الجمود مثلاً أن لا يتفكر المرء بموقف الطرف الآخر في الخلاف أو الحوار، وأن لا يرى أحد الأطراف أنَّ ثمة وجهاً آخر لفهم المسألة غير فهمه هو، وربما يكون هذا الفهم الآخر وجهاً مقبولاً، وربما يكون صورة أخرى لما يراه هو. وقد يكون سوء ظن طرف بالطرف الآخر ليس له ما يسوغه. وقد يكون الجمود والثبات على الموقف ناتجاً عن عدم الثقة بالنفس، والخوف من تبعات تغيير الرأي، أو تغيير الموقف، أو الاعتراف بالخطأ، في حين يكون التجدد تعبيراً عن موقف قوة وثقة بالنفس.

وعلى كل حال فالتجدد أمر نسبي، وليس صفة مطلقة، فهو نسبة إلى المستوى الذي يطلبه الإسلام، أو نسبة إلى ما يتوافر من إمكانيات التعلم والتجدد، أو نسبة إلى ما يتوفر من انفتاح وتجدد عن الآخرين. وفي المقابل فإنَّ الثبات على ما

صح من أفكار ومبادئ صفة مطلوبة لا تتناقض مع اتجاه التجدد مع الثبات على المبادئ والكليات والمرجعيات العامة. ولعلّ الحقّ أن يكون في الاحتفاظ بالتوازن بين الثبات على الأفكار المبدئية من جهة، والتجدد في مسوغات هذا الثبات، وضرورته، وتجديد فهمه، والتعبير عنه، من جهة أخرى.

والذي يعنينا في هذا المقام أمران: الأول أنّ الجمود والتجدد في البناء الفكري هي حالة في الإنسان الفرد أو الفئة من الناس أو المجتمع بأكمله، وهذه الحالة لا تتصف بالثبات والديمومة، وإنّما هي حالة نموّ متواصل في مقدار هذا البناء، وحالة تعيّر متجدد في نوعيته.

والأمر الثاني أن تلك الحالة للصورة الذهنية عند الإنسان تنتقل إلى الصورة التي يضعها الإنسان عن فهمه لعناصر الفكر وبنيته وعلاقاته. فبعض العلماء يتصورون مجمل المعرفة البشرية في حقل من حقولها، جسماً ينمو نحو الخارج، فتتكون طبقات من المعرفة المتجددة تتراكم فوق بعضها بعضاً مع مرور الوقت، وتطور الخبرات، وتوالي الاكتشاف، وهكذا ينمو العلم. لكنّ علماء آخرين قالوا: إن المعرفة في حقل من الحقول لا تتراكم، ويضاف بعضها إلى بعضها الآخر في صورة طبقات متراكبة، وإنما هي شبكة من العلاقات ونقاط الاتصال نعرف شيئاً منها ونجهل أشياء أخرى، فإذا علمنا شيئاً مما كنا نجهله، فإنّ المعرفة الجديدة تدخل في الموقع الذي كان مجهولاً، وقد تكون الصورة الكلية الجديدة مختلفة إلى حد كبير عن الصورة السابقة، فالنموّ في المعرفة هو تغيير في طريقة الفهم والرؤية الكلية يتم في مراحل زمنية متتابعة يسود في كل منها نموذج فكري عام (paradigm).

هل من الضروري أن نتخيل أن علم التفسير عندما يكتبه مفسر في هذا العام (١٤٣٥هـ/٢٠١٤م)، صورةً محدثة عما كتبه الطبري (ت ٣١٠هـ)، والزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، والرازي (ت ٦٠٦هـ)، والقرطبي (ت ٦٧١هـ)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ... ومن جاء بعدهم؟ هل نتخيل أن التفسير الحديث

سيضيف إلى ما كتب في التفاسير القديمة؟ أم أن التفسير الحديث يمكن أن يكون صورة مختلفة عن تلك التفاسير القديمة، سواءً في استلهاهم دلالات النص ومقاصده، أو في توظيف المعرفة المعاصرة في علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية والنفسية والتربوية في فهم تلك الدلالات والمقاصد؟ وإذا كانت الصورة الجديدة للتفسير نوعاً من التجديد، فهل يعني ذلك تجاوز الأصول الثابتة والقواعد المعتمدة في التفسير من قواعد اللغة، أو الأحاديث النبوية المروية في التفسير، أو السياق العام الذي تقع الآية فيه، أو ما ورد من آثار في أسباب النزول، أو غير ذلك؟

والخلاصة، أن صفة الجمود والانغلاق الفكري صفة مذمومة في حق الفرد أو الجماعة أو الأمة، وأن التمسك بقواعد الاعتقاد، ومقتضيات الانتماء إلى الدين والأمة لا تمثل عذراً لمن يريد أن يسجن نفسه في صور من الفهم التاريخي الذي لم يعد يصلح للواقع المعاصر. وأن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، تفتح المجال واسعاً للاجتهد في فهم قواعده ومبادئه وأحكامه وتنزيلها على الواقع المتغير بتغير الزمان والمكان، ومن ثم فإن الاجتهاد يعني في الغالب الاختلاف والتنوع، ضمن المرجعية التوحيدية الشاملة، وأن هذا الاختلاف والتنوع سوف يتجدد مع تجدد الخبرات والتجارب.

لذلك، فإن على من يأمل في اكتساب بناء فكري محدد أن يُبقي المجال مفتوحاً للنمو والتجدد، وأن يختبر اليوم ما كان عليه بالأمس، وينظر إلى بنائه الفكري، ليلتمس ما أضافه إليه من جديد، وما أجرى عليه من تطوير، نتيجة لما سمعه أو قرأه أو مر به من خبرات وتجارب. وربما يحسن أن يكون هذا الاختبار جزءاً من ورد المحاسبة الذي يقوم به المؤمن كل يوم، قبل أن يأوي إلى فراش نومه. وربما يحسن أن يكون هذا الاختبار بصورة دورية كل أسبوع أو كل شهر أو سنة. وربما يحسن أن يتضمن الاختبار مقدار الفكر الجديد الذي اكتسبه، ونوع الفكر الذي طرأ عليه.

وإذا كانت صفة الجمود والانغلاق في البناء الفكري مذمومة، وصفة التجدد والانفتاح في هذا البناء محمودة، في حق الأفراد وحق الجماعات والمجتمعات، فكيف يمكن أن يكون نمو الأفكار كماً، وتغيرها كيفاً، عند الجماعة من الناس، عنصراً من عناصر التقويم المرحلي والدوري، سواءً كانت هذه الجماعة أسرة من أسر المجتمع، أو عاملين في مؤسسة من المؤسسات أو أعضاء في حركة من الحركات؟

ثالثاً: تسويق الأفكار

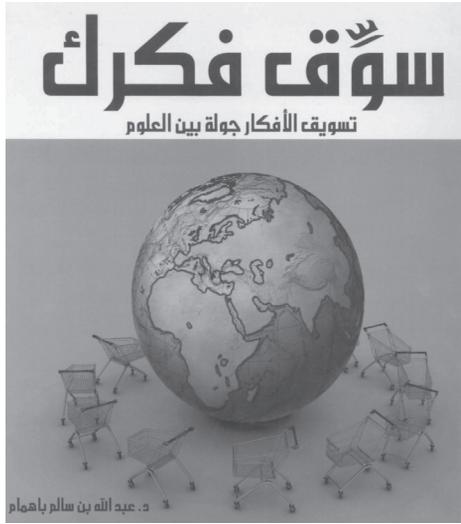
يحلو لبعض المعنيين بالفكر أن يتحدثوا عن صناعة الأفكار ونشرها، بطريقة مشابهة للحديث عن صناعة الأشياء وتسويقها. والتسويق علم له مفاهيم ومبادئ ونظريات، وله كتب أكاديمية ومهنية، وله برامج وتطبيقات في تسويق السلع والبضائع والخدمات. فلم لا تستخدم مفردات السوق والتسويق على الأفكار؟ وقد انتقلت فكرة تشبيه نشر الأفكار بعملية تسويق الأشياء من خلال القيمة العلمية التي يمكن أن تبنى عليها إجراءات في التطوير والتصنيع يكون لها عائد مادي. ومن هنا جاءت فكرة براءات الاختراع، لتسجل حقوق صاحب الفكرة، والإفادة مما قد يظهر لها من تطبيقات عملية في سوق الأشياء أو الخدمات. ومن هنا جاءت كذلك فكرة الملكية الفكرية، وجاءت فكرة اقتصاد المعرفة... إلخ.

والذي يهمننا في هذا المقام هو التأكيد على أن قيمة ما يمتلكه الفرد من أفكار لا تظهر ما دامت حبيسة لدى صاحبها، وإنما تظهر قيمة الأفكار عندما تنتشر وتشيع، وتصبح عنصراً مهماً في ثقافة المجتمع، أو رأياً عاماً في السياسة، أو ممارسة معينة في الاستهلاك... إلخ. وعلى كل حال فإن مصطلح تسويق الأفكار في بعض المراجع التي استخدمته عنواناً لها ليس بعيداً في دلالاته عن مصطلحات عديدة أخرى، مثل التربية والتنشئة والنشر، والاتصال والدعاية وغسيل الأدمغة، وبرمجة العقول، والغزو الفكري، ... إلخ. المهم أن مصطلح تسويق الأفكار يؤكد على القيمة العملية والفائدة المرجوة من الأفكار المراد نشرها أو تسويقها.

إنَّ الفكر صفة للإنسان، فكل الناس يفكرون ويكوّنون أفكاراً، وهذه الأفكار هي التي تصنع السلوك الشخصي للفرد، وتؤثر في أفكار الآخرين وسلوكهم ومشاعرهم. فالأحداث التي تقع في الزمان والمكان إنما هي نتائج وتمثلات للأفكار المؤثرة. لكن الأفكار البشرية ليست في مستوى واحد، بل تختلف في مستوى الأهمية، والوضوح، والعمق، والجدة... وهناك أفكار بسيطة ترد على الخاطر أو يأخذها الإنسان عن الآخرين بحكم ما اعتاده وألفه من أنماط الحياة،

ولا يشعر الإنسان بالحاجة إلى الحديث عنها أو نشرها. وهناك أفكار إبداعية مبتكرة، يصل إليها الإنسان من خلال بذل الجهد والمعاناة، وقد تكون ذات قيمة كبيرة إذا استثمرت في مجالها المناسب.

إنَّ العلوم والنظم المعرفية التي دونت في أوعية المعرفة من كتب ومجلات وغيرها، هي في الأساس أفكار خضعت لقدر من



التنظيم والتمحيص والتجريب. وإن تطور المنشآت والصناعات والاختراعات بما في ذلك وسائل النقل والاتصال، هي تطبيقات للأفكار، وإن الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي كذلك تطبيقات للأفكار. كل ذلك يبدأ من فكرة ترد في خاطر فرد، ثم ينقلها إلى آخرين، وربما يدور حولها التفكر؛ جدلاً وحواراً، ومراجعة واختباراً، حتى تصبح قرارات يتم تنفيذها.

وهل عمليات التعليم والتدريس إلا نقل أفكار؟!!

وهل ما يدور في أجهزة الإعلام المرئي، والمسموع، والمقروء، إلا محاولات لنشر أفكار صحيحة أو سقيمة؟!!

أليست الجهود التي يبذلها المصلحون والدعاة من أجل تغيير الواقع، وحل مشكلاته هي في الأساس مبادرات فكرية؟!

بم يملك القادة في أي قطاع من فعاليات المجتمع قدرتهم على القيادة التي يؤثرون بها في عقول الناس وقلوبهم، إن لم يكن ذلك يما يطورونه من أفكار، وما يقومون به من أفعال على أساس هذه الأفكار؟!

كيف تعرف أنك تملك أفكاراً عظيمة إذا لم تتحدث هذه الأفكار عن نفسها بفعلك وسلوكك؟ وإذا لم تتحدث أنت عنها بلسانك وقلمك؟

هذه التساؤلات تقود إلى حقيقة لا خلاف عليها، وهي أن قيمة الأفكار -أيّاً كانت قيمتها- إنما تكون في انتقالها من المنشئ إلى المتلقي، وفي حركتها في اتجاه الفعل والتأثير.

ومن حق صاحب الفكرة أن تنسب إليه، ولهذا جاءت نظم توثيق الأفكار والتنويه بأصحابها، بالتفصيل المناسب. وبعض الأفكار يكون لها قيمة كبيرة في تطبيقات عملية. ومن هنا جاءت حقول الملكية الفردية، ذات الصفة المعنوية التي تختص بنسبة الأفكار، أو الإذن بالنشر، أو الصفة المادية التي تقدر بالمال.

ولتفعيل الفكرة وتوظيفها في الواقع، جاءت أهمية البيان، والبلاغ، والدعوة، والتعليم... ومضمون ذلك كله رسالة يراد توصيلها لهدف محدد، في وقت مناسب، وبصورة ملائمة، وللجهة المقصودة.

ويتم تسويق الأفكار بوسائل وأساليب متعددة، فمؤسسات التعليم المدرسي والجامعي هي مؤسسات لنقل الأفكار، تنطوي على مناهج التعليم، من المعلمين إلى الطلبة. والكتب التي تتضمنها هذه العلوم إنما هي الأفكار التي تمت صياغتها في نظم معرفية وعلوم محددة. ودور النشر التي تنشر الكتب والمجلات، إنما هي وسائط للتجارة بالأفكار التي تتضمنها الكتب والدوريات.

وأجهزة الإعلام المرئي والمسموع والمقروء هي كذلك وسائط لنشر الأفكار. ومراكز التدريب هي مؤسسات يتم فيها تنظيم الأفكار، في حقائب تدريبية تتضمن مادة للقراءة والمناقشة وتمارين للممارسة، فالتدريب في الغالب يهدف إلى تمكين المتدرب من الاطلاع على أفكار جديدة، سواءً كانت هذه الأفكار معلومات ذهنية، أو كانت الأساس المعرفي (الفكري) لمهارات عملية، أو لاتجاهات نفسية.

ويجدر بنا أن لا ندع الحديث عن تسويق الأفكار دون التنويه بكتاب على قدر من الأهمية، سمّاه مؤلفه "سوق أفكارك: تسويق الأفكار جولة في العلوم". وربما نجح المؤلف في "تسويق" مجموعة من الأفكار التي تهدف إلى التوعية الفكرية في مسائل يصعب الحديث عنها في سياقات مباشرة، وقد استخدم المؤلف مداخل عدّة في معالجة موضوعات الكتاب، بدأها بمدخل شرعي إسلامي، ثم أتبعه بمدخل التسويق، وعلم النفس، والإعلام، والسياسة، والاقتصاد، والقانون، وانتهى بالنموذج النبوي، حيث أوضح كيف كانت سيرة محمد ﷺ نموذجاً كاملاً في تسويق أفكار الدعوة الإسلامية ومفاهيم الدين. والكتاب في مجمله إسقاط لمفاهيم ومصطلحات علوم التسويق على قضايا البناء الفكري، والغزو الفكري، والصراع الفكري، مع أمثلة مختارة عن دور القوى اليهودية والأمريكية في صناعة الأفكار وتشويه الأفكار، وغسيل الأدمغة، وبرمجة العقول.^(١)

رابعاً: حاجة الأمة إلى القيادة العلمية والفكرية

إنّ العلوم كلّها هي نتاج الإدراك والفكر البشري، سواءً كان مصدرها الوحي الإلهي والهدي النبوي، أو كان مصدرها العالم المادي الطبيعي أو العالم الاجتماعي أو العالم النفسي. وسواءً حصل هذا العلم للإنسان بتعامله المباشر

(١) باهام، عبد الله بن سالم. سوق أفكارك: تسويق الأفكار - جولة بين العلوم. الرياض: نشر شخصي وإلكتروني، ١٤٣٠هـ.

أو غير المباشر مع النصوص والأشياء والأحداث والظواهر، أو عن طريق النظر والتفكير العقلي، أو المشاهدة الحسية والتجربة العملية.

لذلك فإنّ العلوم -عند الإنسان- كلها هي فكر إنساني. لكن هذا الفكر حصل على قدر من التنظيم، والتدقيق، والتحرير، والاختبار، إلى الحد الذي أوصله إلى القدر المناسب من القبول عند الجماعات العلمية المتخصصة في كل علم، نظراً لأنّ هذه الجماعات/ القيادات العلمية هي المرجعية في تحديد ما يدخل في العلم وما لا يدخل فيه.

أما الفكر فنقصد به في مقامنا هذا نوعاً من الإدراك والفهم الذي ينطلق من قدرة الإنسان على استيعاب العلم وتجاوزه؛ أي الخروج من تفاصيله الجزئية إلى رؤيته الكلية، التي تتيح للإنسان معرفة حدود العلم وإمكانات توظيفه؛ وما الأغراض التي يوظف من أجلها؟ وكيف يوظف؟ ومن يوظفه؟ إلخ. وينظر الفكر في خارج حدود العلم ليستشرف الآفاق التي يلزم أن يتسع إليها هذا العلم، وربما يطرح أسئلة جديدة، تقتضي -من جملة ما تقتضيه- نقد العلم، والكشف عن قصوره، وإضافة الجديد في مفرداته، من أجل الإجابة عن تلك الأسئلة. وهذا يخرجنا من موضوع العلم ويدخلنا في منهج العلم، فإذا كان العلم يتحدد بموضوعه ومنهجه، فالفكر أقرب إلى المنهج منه إلى الموضوع.

١ - القيادة الفكرية للأمة

الأمة الإسلامية حاملة الرسالة الإلهية الخاتمة، وورثة القيادة النبوية الراشدة، ومصادر هذه الرسالة محفوظة لم يطرأ عليها التحريف والتبديل، والله سبحانه قد كلف هذه الأمة أن تتسنّم مهمة القيادة الفكرية للأمم الأخرى، فكانت بأمر الله في موقع الشهادة على الناس، تقدّم لهم الهداية وتكون لهم أسوة وقدوة في اتباع الهدى وبذله وتعليمه. وقد أدت الأمة هذه المهمة بكفاءة لم تقدمها من قبل أمة أخرى من أتباع الأنبياء السابقين، فأقامت مجتمع الهدى والخير والعدل، وكانت قبلة العلم والتقدم، يأتي إلى مؤسساتها ومعاهدها الراغبون في التعلم

فينهلوا منها العلم في مجالاته المختلفة، والقيم في مستوياتها المتعددة، وأنماط السلوك الحضاري في صور الإدارة والتنظيم وأصول التعامل الاجتماعي.

٢- قيادات فكرية متخصصة:

وقد تميزت من داخل الأمة المسلمة قيادات متخصصة في كل مجال من مجالات القيادة، كان أبرزها مجال العلوم والمعارف والأفكار. ففي وقت مبكر ظهر الحرص على حفظ تراث النبوة، وذلك بتدوين الحديث النبوي الشريف، والسيرة النبوية، ونبغت في ذلك قيادات من الحفاظ والرواة والمدونين والمحققين والمدققين، وتشكلت من ذلك علوم لم تعرفها الأمم السابقة منها علوم الرواية والدراية ومصطلح الحديث، والجرح والتعديل، والعلل. ودوّنت هذه العلوم، وأصبحت كتبها أصولاً ومراجع ومصادر، لكل ما جاء بعدها من تطور ونبوغ.

وأصبح علماء الحديث قيادة فكرية لمدرسة من مدارس الفكر الإسلامي، تميز فيها علماء كبار. وقد عرّف القرن الهجري الثاني بداية التدوين الرسمي، ولعلّ أول الرواة المدونين محمد بن مسلم الزهري، ثم شيخ الحرم ابن جريج، ومحمد ابن إسحاق، ومالك بن أنس، وحماد بن زيد، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن عمر الأوزاعي. وما أن حلّ القرن الثالث الهجري حتى انتشر التدوين وفق مبادئ معلومة في التوثيق والتصنيف، فصنف الإمام أحمد بن حنبل مسنده، وصنف اسحق بن راهويه مسنداً آخر، ثم كُتب صحيح البخاري وصحيح مسلم، وسنن الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأبي دواد.

ومثل ذلك يقال عن قيادات فكرية أخرى تميزت في أبواب تصنيف الأحكام الفقهية الشرعية، وضمن مناهج محددة، فعرفت المدرسة الفقهية قيادات فذة في علوم الفقه منها أئمة المذاهب الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، التي يتبعها مئات الملايين من المسلمين حتى هذا اليوم.

والأمر نفسه يقال حول مدارس التفسير، والعقيدة، والكلام، والتصوف، وغير ذلك من المجالات التي عُرف في كل منها قيادات فكرية، وقد توزعت طوائف الأمة على هذه المدارس.

ولم يقتصر تشكل القيادات الفكرية على العلوم الدينية المشار إليها، بل ظهرت كذلك قيادات في علوم الطب، والفلك والبصريات والكيمياء والفلاحة، وغير ذلك. وممن عُرف في الطب مثلاً زينب طيبة بني أود، والشيخ الرئيس ابن سينا صاحب كتاب القانون في الطب، وأبو بكر الرازي صاحب كتاب الحاوي في الطب، وأبو القاسم الزهراوي صاحب كتاب علم الجراحة المسمى التصريف لمن عجز عن التأليف، وغير ذلك كثير. وفي كل علم من العلوم الطبيعية الأخرى قائمة طويلة من أسماء القيادات العلمية، لا يسمح المجال بالتوسع في ذكرها.

٣- المؤسسات والقيادة الفكرية

وكان المسجد في بداية الأمر هو المؤسسة التي تنمو فيها كفاءات العلماء وخبراتهم، واتسعت مهام المسجد ليكون أشبه بالجامعات المعاصرة، فكان جامع الزيتونة في تونس، الذي يُعدُّه المؤرخون أول جامعة في العالم الإسلامي من حيث تاريخ إنشائها، حيث بدأ العمل في بنائه عام (٧٧٩هـ - ٧١٦م)، وبُني من بداية الأمر، ليكون معهداً علمياً إضافة إلى كونه مكاناً للعبادة، وجامع القرويين في فاس الذي بدأ العمل في بنائه عام (٢٤٥هـ - ٨٥٩م) ويُعدُّ أول جامعة في العالم تمنح شهادات عالية في علوم متخصصة، والجامع الأزهر في مصر الذي بدأ العمل في بنائه عام (٣٥٩هـ - ٩٧٠م)، ويُعدُّ أقدم جامعة في العالم استمرت في تقديم العلوم حتى الآن دون انقطاع. ومع ذلك فقد أنشأ المجتمع الإسلامي مؤسسات تعليمية متخصصة للتدريب والتبحر في مجالات العلوم المتخصصة، منها المراصد الفلكية، والمشافي الطبية أو البيمارستانيات، والمكتبات العامة، لتخزين الكتب ونسخها وترجمتها، مثل بيت الحكمة في بغداد، ودار الحكمة في القاهرة.

٤- النخب الفكرية أساس نهضة أوروبا

لقد عرفت أوروبا ما وصل إليه التقدم في العالم الإسلامي منذ القرن السابع، لا سيما عن طريق الوفود الدبلوماسية التي كان ملوك أوروبا يرسلونها إلى بلاط الخلفاء المسلمين، وعن طريق الاتصال المباشر في الأندلس وصقلية، ثم في فترة الحروب الصليبية، فأخذوا الملوك الأوروبيون يرسلون وفوداً من المتعلمين لنقل الخبرة والثقافة والعلم، وأخذت طلائع الثقافة والعلم والفكر في أوروبا بالاطلاع على علوم المسلمين وأنماط حضارتهم، وحتى على قراءة المسلمين للفكر اليوناني القديم، فبدأت تتشكل في أوروبا اعتباراً من القرن الثاني عشر الميلادي قيادات فكرية في مجالات العلوم المختلفة، وبدأت هذه القيادات تشكل نخباً ومدارس فكرية ومؤسسات تعليمية حفلت بالراغبين في نقل حالة شعوبهم من التخلف الذي كان يسود أوروبا في جميع المجالات. وقد أسهم كل ذلك في النهوض والتقدم الأوروبي، وأخذت أوروبا في استخدام العلم والصناعة لبناء قوى عسكرية امتدت لاكتشاف العالم الجديد في أمريكا الشمالية والجنوبية، ثم احتلت القارة الهندية، ثم استعمرت معظم أنحاء العالم. ثم جاء القرن العشرون لتواصل أوروبا وامتداداتها في أمريكا الشمالية تقدّمها في حضارة جديدة غير مسبوقه.

٥- الإبداع الفردي أساس القيادة الفكرية

لقد كان كل عالم من هؤلاء العلماء في التخصصات المختلفة يمثل في زمانه ومكانه قيادة فكرية، وكان أهل الاختصاص في كل علم يمثلون نخباً من القيادات الفكرية في كل تخصص، ومع ما للجماعة والمؤسسة والمجتمع بأكمله من دور في تحديد موقع الفكر في قيادة المجتمع، فإننا لا نستطيع تجاهل دور الفرد في الإبداع العلمي والفكري.

الفكر وفق هذا التحليل المبين أعلاه أقرب إلى الرؤى الإبداعية، التجديدية،

أو الثورية، التي يصوغها المفكر الفرد في الأساس،^(١) سواءً كان ذلك اجتهاداً فردياً منه، أو صياغةً لنتيجة الحوار والنقاش والبحث مع آخرين. وربما تتوالى الأفكار في حقل علمي محدد، وتصبح هوامش على حدود ذلك الحقل العلمي، ما تلبث أن تصبح جزءاً من بنية العلم، عندما تقبلها الجماعة العلمية المتخصصة، وتعتمدها عنصراً أساسياً في تلك البنية. فمنهج العلم هنا ولد أفكاراً أصبحت فيما بعد جزءاً من موضوع العلم. ومع ذلك يبقى المجال مفتوحاً لحركة النمو والتطوير والمراجعة في كل علم، كلما أعمل عالمٌ فكره، وولد الجديد من الفكر العلمي في تخصصه.

لكن الإنجاز في الفكر البشري لا يقتصر على مجال واحد من مجالات العلوم المتخصصة المعروفة (intra-disciplinary)، فقد يختص موضوع الفكر بمسألة تقع فيما بين تخصصين أو أكثر، وتسمى موضوعات بيئية التخصص (interdisciplinary)، أو عندما يُعرض موضوع في علم محدد من وجهة نظر عالم متخصص في علم آخر، تكون الرؤية إلى الموضوع رؤيةً

(١) ألا ترى أن جوائز الإبداع والاختراع العلمي تُعطى للفرد أو لعدد قليل من الأفراد! فقد أعطيت جائزة نوبل في الكيمياء مثلاً منذ البدء في منحها ١٩٠١ حتى هذا العام ٢٠١٢م أي في مدة ١١٢ سنة على الوجه الآتي: ٦٣ مرة لعالم منفرد، و٢٣ مرة لاثنين من العلماء، وفي ١٨ مرة لثلاثة علماء، وحببت في ٨ مرات. وحتى في الحالات التي كانت تُعطى لاثنين أو ثلاثة، فإنَّ الجائزة لم تكن بالضرورة لعمل مشترك بينهم، وإنما لاستحقاق كل عالم للجائزة، فتقسم الجائزة على المستحقين. انظر ملحق جائزة نوبل في الكيمياء في الرابط:

- http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%82:%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%B2%D8%A9_%D9%86%D9%88%D8%A8%D9%84_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%8A%D9%85%D9%8A%D8%A7%D8%A1

- أما في الآداب فقد منحت الجائزة في ١٠١ مرة لفائز منفرد، و٤ مرات لفائزين اثنين، وحببت الجائزة في سبع مرات. انظر الرابط:

- http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%82:%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%B2%D8%A9_%D9%86%D9%88%D8%A8%D9%84_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D8%A8

عابرة للتخصصات (cross-disciplinary). وقد يلزم للإبداع في موضوع محدد اشتراك عالمين أو أكثر للعمل معاً، كل في تخصصه، ويكون الموضوع عندها متعدد التخصصات (multi-disciplinary)، وأخيراً ثمة موضوعات تحتاج إلى توحيد الإطار المرجعي الفكري فيها خارج الأطر التقليدية للتخصصات، وتقع هذه الموضوعات عندها فيما يعد موضوعات ما وراء التخصص (trans-disciplinary).

وفي كثير من الحالات لا يصنف الإبداع الفكري في مجال علمي متخصص، وإنما يصنف في مجال من مجالات الفنون.

وإذا كان العلم يهتم بالموضوع من حيث هو، وينشغل في بيان عناصره وجزئياته، وتنظيم ما يتوافر عنه من معلومات ومعارف تفصيلية، فإن اهتمام الفكر ينصب على علاقة الموضوع بالواقع وسبل معالجة الموضوع من أجل تحسين الواقع. وإذا كان العلماء يقدمون المعرفة المتخصصة حول موضوع المشكلة القائمة في الواقع، فإن المفكرين أقرب إلى تصور الحلول الممكنة لإصلاح ذلك الواقع، فهم أقرب إلى تحديد مشكلات الواقع أو توقع حصول هذه المشكلات وتحديد المعرفة اللازمة لمعالجتها حين تقع، أو تجنب الوقوع فيها. لذلك فإن القيادات الفكرية على غاية الأهمية. ولا سيما في فترات التحول التي تمر بها المجتمعات الإنسانية.

٦- الجامعة في موقع القيادة الفكرية للمجتمع

حصل تطور كبير على مفهوم الجامعة ومهمتها في المجتمع الإنساني، عبر التاريخ. واستقر وضعها الآن على أنها مؤسسة مهمة من مؤسسات المجتمع الحديث، تقوم بثلاث مهمات أساسية هي التعليم، والبحث العلمي، وخدمة المجتمع. وهي في موقع القيادة في هذه المهمات الثلاث.

ففي التعليم استقر النظام الجامعي على تمييز مجالات المعرفة الإنسانية في كليات وأقسام، ويختار الطالب أو يُختار له التخصص في مجال محدد ليتعلم

فيه مجمل المعرفة العلمية في ذلك التخصص، ليكون مؤهلاً لممارسة مهنة محددة يخدم بها المجتمع، عندما يكمل المستوى الأول من التعليم، فيما تتطلبه الدرجة الجامعية الأولى (الإجازة، أو البكالوريوس أو الليسانس). وإذا أراد مواصلة التعليم فعليه أن يختار فرعاً من فروع تخصصه، ويتعلم أصول البحث فيه، ويتدرب على البحث في مسألة محددة من مسائل ذلك الفرع، وينجز بحثاً حول تلك المسألة. وبذلك يكون قد استكمل متطلبات الدرجة الجامعية الثانية (الماجستير). ويكون بذلك أقدر على ممارسة مهنته وتحديد مشكلاتها، وربما يتسنى بعض مسؤوليات القيادة في مسائل تلك المهنة. وإذا أراد أن يواصل التعليم، في تخصصه، فعليه أن يدخل في جزئيات موضوع التخصص، ويتبحر في معرفة ما قادت إليه المعرفة الإنسانية في ذلك الموضوع، ويقف على حدود تلك المعرفة، ويتمكن من تقييمها ونقدها ومعرفة مشكلاتها، والأسئلة التي لم يتم تقديم إجابات عليها، والآفاق المجهولة فيها، ومن ثم يختار مشكلة أو سؤالاً ويصوغ خطة بحثية أساسية لحل تلك المشكلة أو الإجابة عن ذلك السؤال. وتكون نتائج بحثه قفزة على حدود العلم، وإضافة حقيقية إليه. وعندها لا تكون خدمته لتطبيقات المعرفة المتخصصة في مهنة محددة مقصورة على مجتمعه المحلي، وإنما هي خدمة للمعرفة الإنسانية ربما تخدم البشرية كلها، وبذلك تستكمل متطلبات التعليم الجامعي للحصول على الدرجة الجامعية الثالثة (الدكتوراه).

ففي مجال التعليم أصبحت الجامعة في موقع القيادة في تأهيل الكوادر التي تخدم المجتمع في مجالات التخصص العلمي والعملي، وترقية هذه الكوادر، ورفع كفاءتها.

هذا عن وظيفة الجامعة في التعليم، أما وظيفة الجامعة في مجال البحث العلمي، فإن ذلك لا يتوقف على ما يقوم به طلبة الدراسات العليا من البحوث الموجهة إلى حل المشكلات وتطوير الأداء، وإنما يمتد إلى البحوث التي يقوم بها أعضاء هيئة التدريس في الجامعة، التي يفترض أنها تخدم حركة البحث

العلمي في مجالات التخصص المختلفة، ويتم الحكم على قيمة هذه البحوث وتقويم صلاحيتها للقبول والنشر في المجالات المتخصصة بالبحث، عن طريق شخصيات تمتلك من السلطة العلمية في مجال تخصصها ما يؤهلها لذلك الحكم. ولم يعد مقبولاً اليوم أن يكون البحث من أجل البحث، وإنما قيمة البحث هي في ما يمكن أن ينتج عنه اليوم أو غداً من تطوير للمعرفة وتوظيفها في تحسين حياة الناس في المجتمع المحلي، في مجالاتها المختلفة، أو ترقية الحياة البشرية في المجتمع الإنساني بصورة عامة.

يضاف إلى ذلك أن الجامعة تنشئ مراكز متخصصة للبحث يعمل فيها باحثون متفرغون، ويتعاونون مع الباحثين من طلبة الدراسات العليا وأعضاء هيئة التدريس في الجامعة، ومع غيرهم من الباحثين في مراكز البحوث الأخرى في المجتمع أو في العالم. وقد تكون المشاريع البحثية في هذه المراكز امتداداً لما تقوم به الشركات والمؤسسات الخدمية أو الإنتاجية، لغرض زيادة فاعلية عملها ورفع مستوى منتجاتها، أو حل المشكلات التي تواجهها، أو فتح آفاق جديدة، وغير مسبوق، للخدمة أو الإنتاج.

ولا شك في أن قيام الجامعة بوظيفة البحث العلمي على الوجه المشار إليه هو مهمة قيادية جلية، ترغب بعض الجامعات في أن تتخصص فيها، وتعرف بها أكثر مما تعرف بوظيفة التعليم. ذلك أن كثيراً من بلدان العالم أخذت في تأهيل بعض جامعاتها، لتكون جامعات بحثية تتميز عن غيرها من الجامعات التعليمية، أو على الأقل أن تجمع الصفة البحثية إلى جانب الصفة التعليمية، إن لم تتمكن من توفير متطلبات الصفة البحثية بكاملها.

أما وظيفة خدمة المجتمع، فإن الجامعة لا تملك أن تقصر عملها على ما سبقت الإشارة إليه من تعليم وبحث، على ما لهما من أهمية كبيرة، فأعضاء هيئة التدريس في الجامعة، وهم نخبة النخبة في المجتمع، لا يعيشون في أبراج عاجية منفصلة عن واقع المجتمع بمشكلاته وطموحاته،

فإذا أرادت المدرسة أن تعطي نموذجاً لمستوى الطموح الذي تريد أن تفتحه لطلابها، فإنها تستضيف أستاذاً جامعياً ليحدث الطلبة عن بعض آفاق الطموح، وإذا أراد الإعلام أن يعالج قضية اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، فإنه يستضيف أهل الاختصاص في الجامعة لمناقشة رؤاهم حول تلك القضية، وأساتذة العلوم الشرعية يمكنهم أن يقدموا شيئاً من علمهم في برامج التوجيه الديني والإعلامي والثقافي، بما في ذلك خطبة الجمعة في المساجد، وهكذا.

ثم إن أعضاء هيئة التدريس في الجامعات هم أعضاء في أسرهم وعائلاتهم وأحيائهم السكنية، فهم بذلك في مقام من يملك الحكمة في التعامل مع الآخرين، وهم أعضاء في النوادي الرياضية والاجتماعية والجمعيات التطوعية، والأحزاب السياسية. لذلك تتوجه إليهم الأنظار لتقديم ما يملكون من خبرة ودراية، في فهم الأحداث التي تطرأ، وفي التعامل الحكيم في المناسبات المختلفة، وهي مهمات قيادية قد لا يختارها الأستاذ الجامعي ولا يسعى لها، لكن المجتمع من حوله يتوقعها فيه ويطلبها منه.

وأخيراً، فإن من بين أعضاء هيئة التدريس من يعتصر خبرته وتجربته في العمل، وفي الحياة، لتأليف كتب يقدمون فيها لعامة القراء فهمهم لموضوعات محددة، يوظفون فيه تخصصهم العلمي، أو رؤيتهم الكلية لموضوعات عامة تتقاطع فيها المعرفة التخصصية، والخبرة العملية، والبصيرة الشخصية، وتتضمن اجتهادات فكرية ربما تمثل تاصيلًا لتوجهات محددة في السياسات العامة في المجتمع، أو استشرافاً لمستقبل منشود لهذه السياسات.

إن صور القيادة في الوظائف الثلاث للجامعة تتجاوز الصور التقليدية من الأداء المحدد للوظيفة ومتطلباتها المألوفة، التي تصنف ضمن الإدارة والتنظيم، وإنما هي قيادة في مجالات مفتوحة الآفاق تتطلب من الجامعة، ومن الأستاذ الجامعي رؤية استشرافية، وإنتاجاً فكرياً على درجة عالية من الأهمية.

٧- رأس المال الفكري

مصطلح رأس المال الفكري دخل إلى علمي الاقتصاد (التنمية الاقتصادية)، والإدارة (التطوير الإداري) في الربع الأخير من القرن العشرين، وذلك حين ميّز الباحثون هذا المصطلح عن مصطلحات كانت أكثر استعمالاً، مثل رأس المال الطبيعي الذي يختص بالموارد، ورأس المال المادي الذي يهتم بالنقد والموجودات الثابتة، ورأس المال الاجتماعي الذي يختص بالعلاقات والشبكات الاجتماعية، ورأس المال البشري الذي يهتم بالطاقات والخبرات والمهارات التي يملكها الأشخاص. ثم أصبح الجزء المهم من رأس المال البشري هو رأس المال الفكري، الذي يتمثل في نخبة من العاملين في المؤسسة الذين يمتلكون قدرات معرفية وتنظيمية، ويتمكنون بها من إنتاج أفكار جديدة، أو تطوير الأفكار القديمة بهدف اغتنام الفرص. ذلك أن العلم والعقل والمعرفة أصبحت الأساس الأكثر قيمة في القوى المتنافسة.^(١)

ومع أن الحديث عن الواقع الاقتصادي في البلدان المختلفة أصبح يلخص بجملة: "المعرفة هي ما نشتره وما نبيعه وما نفعله"،^(٢) فإن "المعرفة عن رأس المال المعرفي لم تصل إلى أكثر من نصف مرحلة النضج، إنها لا تزال تبدو شيئاً مضحكاً، فهل برامج إدارة المعرفة هي عوامل مؤكدة لصناعة المال؟ كيف يمكن أن نقيس رأس المال الفكري بطريقة تتصف بالثبات؟ لماذا يسهل انتقال المعرفة في بعض البيئات، بينما تكون المعرفة محتكرة في بيئات أخرى؟ وما أحسن رابط بين التدريب وتحسين الأداء؟ ما التقنيات الأكثر فاعلية؟ والقائمة طويلة مثل قائمة القضايا التي ترد عن الفن."^(٣)

(١) المفرجي، عادل حرحوش. وصالح، أحمد علي. رأس المال الفكري، طرق قياسه وأساليب المحافظة عليه. القاهرة: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٣، ص ٨-١٨.

(2) Stewart, Thomas A. *The Wealth of Knowledge: Intellectual Capital of Knowledge and the Twenty-First Century Organization*, London: Crown Business, 2002, p.5.

(3) Ibid., pp. 328-329.

ومع أن مصطلح " رأس المال الفكري " لا يزال يستخدم في دوائر الشركات الكبرى والبنوك للتعبير عن الأفكار التي يحملها مديرو هذه المؤسسات وأقسام التطوير فيها، فإنَّ المصطلح ربما يكون مغريباً، للدلالة عن ما يميز المؤسسات في أي مجتمع من الأفكار الإبداعية المتجددة. وسوف نجتهد في استعمال المصطلح للدلالة على ما تملكه أية أمة من رصيد فكري تتميز به عن غيرها، وتكون قادرة على بناء موقع متقدم بين الأمم، وقادرة على عرض هذه الأفكار بالصورة التي تسوغ للآخرين الاعتراف بهذا الموقع وتقديره.

وإذا كان رأس المال الفكري هو الذي يفسخ المجال لشركة، أو مجتمع، أو أمة، أن تتقدم وتتفوق، فإنَّ من المهم أن يكون رأس المال هذا عنصراً متجدداً يوفر استمرار التقدم والتفوق، أما إذا نضب معينه، وتعطلت قدرته على التجديد والإبداع، فلن يستمر ذلك التقدم والتفوق. وإذا جاز لنا أن نقل المصطلح لنصف ما يمكن أن تمتلكه الأمة الإسلامية وتتميز به، فإننا نتساءل هل تملك الأمة الإسلامية رأس مال فكري يجعلها غنية فكرياً ومن ثم ثقافياً وحضارياً، ويضعها في موقع التقدم والتفوق، ويوفر لها ضمان الاستمرار في هذا الموقع؟!

وفي الإجابة عن هذا التساؤل نجتهد في أن نقول: إنَّ الأمة الإسلامية حين أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس، والأمة الوسط التي تملك الشهادة على الناس، حملها الله سبحانه آخر كتبه، وتعهد بحفظه من التغيير والنسيان إلى آخر الزمان على هذه الأرض، وجعلهُ ضماناً هدايتها إلى الخير والرشد والصلاح، وضمنَ تفوق المؤمنين به والمهتدين بهديه، وسبب علوهم بقيم الحق والخير والعدل. ثم جاءت السنة النبوية الشريفة تنزيلاً حكيماً لتلك القيم على الواقع، ثم جاءت العلوم المختلفة التي بنيت على خدمة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لتجدد سبل الرشد والهداية مع تغيرات الزمان والمكان. وليبقى القرآن والسنة معيناً مستمراً، ومصدراً متجدد العطاء، لتحقيق التفوق والتقدم.

ولقد تحقق التفوق والتقدم لهذه الأمة كلما اهتدت بهداية القرآن والسنة، وتخلفت عن التقدم والتفوق كلما أعرضت عن تلك الهداية. فرأس مال الأمة المتجدد العطاء هو هذا القرآن الكريم، وتطبيقاته النبوية، والعلوم الغزيرة التي دارت حولهما. لكن رأس المال الفكري هذا ليس شيئاً مضمياً وانقضى، وإنما هو الإطار المرجعي المهيمن الذي يدفع إلى تطوير الأفكار المتجددة، ويحفز على استمرار الإبداع والابتكار والاكتشاف، ويعلي من روح التجديد والاجتهاد في كل العلوم الأخرى: الطبيعة، والاجتماعية، والنفسية.

وما لم يكن رأس المال الفكري هذا موضع الفعل والتأثير، فلن يكون لأي شكل من أشكال رأس المال الأخرى ما يحقق للأمة تقدماً أو تفوقاً.

خاتمة:

تحدثنا في هذا الفصل عن البناء الفكري للأمة الإسلامية، الذي يشكل هويتها الفكرية، والعوامل التي تؤدي إلى تجدد الفكر أو جموده، والحاجة الدائمة إلى انتقال الفكر ونشره بالطرق المختلفة. وأبرزنا دور الفرد في الإبداع الفكري، وأهمية القيادة الفكرية في تكوين الأمة وموقع الأمة القيادي بين الأمم، وتحدثنا كذلك عما يميز المؤسسات الفكرية في أي مجتمع من الأفكار الإبداعية المتجددة، وهو الذي يمكن المجتمع أو الأمة من امتلاك زمام المبادرة والقيادة والتقدم، وعرضنا لمصطلح "رأس المال الفكري" على مستوى المؤسسات والمجتمعات والأمم. وتساءلنا عن رأس المال الفكري الذي تملكه الأمة الإسلامية وتتمكن به أن تتسهم موقع التفوق والاستمرار في هذا الموقع. إن الأفكار الإبداعية التي بُنيت على أساسها مدارس أو حركات فكرية ذات شأن في واقع المجتمعات العربية والإسلامية، تستحق الاحتفاء بها والتقدير لها، على ما اتصفت به القيادات الفكرية من عبقرية في البناء، لكن الجمود على تلك الأفكار الأولى لا يكون صفة إيجابية، لأن حركة الفكر ونموه وتطوره، واستجابته للأسئلة المتجددة، وللظروف المغيرة، هي التي تمدد بعناصر الحياة والفاعلية.

إن قدرة المجتمع على القيادة الفكرية تظهر انعكاساً للإبداعات العلمية التي يقوم بها علماء ذلك المجتمع، من مختلف التخصصات الطبيعية والتقانية والاجتماعية والإنسانية، واللون التي تأخذه هذه العلوم من المعتقدات التي يتبناها المجتمع، ويتميز بها عن غيره من المجتمعات. ومن هنا جاء الاهتمام بالمؤسسات الحاضنة للإبداعات العلماء الذين يعملون فرادي، ويعملون مجتمعين في فرق بحثية، في جامعات أو مراكز بحثية متخصصة. وإنه لمن المؤسف حقاً أن الجامعات في البلاد العربية والإسلامية لم تثبت كفاءتها في الإنجاز العلمي والفكري، لا من حيث تميزها برؤية كونية وصبغة حضارية تعبر عن هويتها الفكرية، ولا بنظم الإدارة والتسيير المعتمدة فيه، ولا من حيث الدعم الذي يوفرها لها المجتمع.

الفصل الرابع

خرائط البناء الفكري الإسلامي

مقدمة

أولاً: خريطة مصادر البناء الفكري

ثانياً: خريطة موضوعات البناء الفكري

ثالثاً: خريطة أدوات البناء الفكري ووسائله

رابعاً: خريطة قياس البناء الفكري

خامساً: خرائط تاريخ الأفكار

سادساً: خرائط الفكر الجغرافي، وجغرافية الفكر

سابعاً: ضوابط قبول الأفكار

خاتمة

خرائط البناء الفكري الإسلامي

مقدمة:

عرفنا أنّ البناء الفكري الإسلامي هو عمل يستهدف إقامة صرح الفكر على قواعد قوية وخرائط منظمة. ومثلما أنّ البناء المادي يحتاج إلى رسم مخططات وتصميم خرائط، فكذلك البناء الفكري يحتاج إلى مخططات وخرائط، ومن ثمّ ينفذ البناء وفقها، عبر مراحل محددة، ووسائل معروفة، تبدأ بتوظيف مهارات التواصل اللغوي، وتتواصل بأساليب التعلم والتعليم والتدريب والبحث والدراسة، تفاعلاً مع البيئة الفكرية المحيطة، وتصبح جزءاً من الشخصية، بالوعي على الهوية وتغذية هذا الوعي بالجهد الذاتي الذي يقوم به الإنسان؛ تأملاً وتذكراً وتفكيراً.

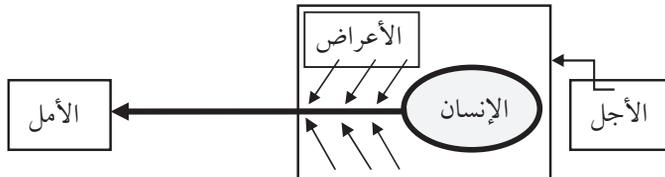
ينظر هذا الفصل في ستة أنواع من خرائط البناء الفكري، تختص بالمصادر، والموضوعات، والوسائل، والتقويم، والتاريخ، والجغرافيا. ويحاول تحديد العناصر التي تكوّن كلّ خريطة، ومن ثمّ البرامج التي توضع من أجل استمداد الفكر من مصادره، وضمان التنوع والتعدد في موضوعاته والتوسل بما يلزم من الأدوات. والتقويم خطة مهمة في أي برنامج، وعلى هذا الأساس يناقش الفصل مسألة التقدير الكيفي والكمي لمستوى ما يتحقق من البناء الفكري عند الأفراد وعند الجماعات، وذلك بما يمكن أن يُبنى من أدوات ووسائل القياس والتقويم، وهو ليس أمراً سهلاً، فالخبرات المتوفرة فيه محدودة، وممارسته ليست مألوفة.

وسوف يلاحظ القارئ أن هذا الفصل موجز أشد الإيجاز، وقد حاولنا أن نقتصر فيه على الفئات الكبرى من المصادر أو الموضوعات أو الأدوات دون تفصيل، فلسنا هنا بصدد وضع برامج محددة للبناء الفكري، بل اكتفينا بالخرائط

العامة التي تلفت انتباه القارئ إلى تلك الفئات الكبرى، ليتم في ضوئها تحديد عناوين مؤلفات وأسماء مؤلفين، فالفئة المستهدفة بأي برنامج هي التي تحدد تفاصيله. ولكن الهم الرئيس هو حاجة الأفراد والجماعات إلى تحديد متطلبات النهوض الحضاري ومتطلباته من جهود الفكر والعلم والعمل.

والخريطة هي مخطط تمثيلي أو صورة تبين عدداً من العناصر، أو المفاهيم، ومواقعها وعلاقاتها، وبذلك تختصر على القارئ رؤية ما سيقراه في الكتاب أو الفصل، مجتمعاً في مكان واحد، وتذكره بمجموع ما قرأه ليخرج محتفظاً برؤية كلية له، مما يعينه على استدعاء هذه الصورة الذهنية كلما رأى أو استحضر في ذهنه تلك الخريطة. وتسمى الخريطة في هذا السياق خريطة ذهنية أو خريطة مفاهيم، وهي نتيجة لتفكير الإنسان بما يفكر فيه، ويتوصل إلى الخريطة عندما يستوعب الموضوع ويفهمه جيداً من خلال عملية التحليل والتفكيك للعناصر المكونة، ثم إعادة تنظيمها وتحديد مستوياتها ومواقعها وطرق ارتباطها مع بعضها بعضاً، في تركيب جديد، يبنى صورة ذهنية وصورة مرئية في آن واحد. وعملية رسم الخرائط الفكرية أو الذهنية أو المفاهيمية هي إحدى استراتيجيات التفكير التي تسمى "التفكير في التفكير Metacognition".

وقد كان من أساليب النبي ﷺ، التمثيل بالإشارة والرمز والرسم. ومن ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، "قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ، وَقَالَ: "هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ



تمثيل تقريبي للخطوط التي يشير إليها نص الحديث النبوي عن أمل الإنسان وأجله

-أَوْ: قَدْ أَحَاطَ بِهِ- وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمْلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصَّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنَّ أَخْطَاهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَاهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا." (١) وفيما يأتي خريطة مفاهيمية تجتهد في التعبير عن مضمون الحديث النبوي المشار إليه

ويتضمن هذا الفصل الوقوف على تاريخ الأفكار بوصفه عملية تتبع مجريات الأحداث التاريخية وتفسيرها، وهي أحداث تدل على إرادة الناس وعناصر ثقافتهم، لا سيما ما يختص ببيئات العلم والثقافة في كل زمان، وما يعنيه من تفاصيل البناء الفكري الذي سبق الكلام عنه في الفصول السابقة. وللوقوف على حقيقة هذا الأمر وأبعاده، ومن أجل الوصول إلى معطياته سيكون من المفيد كشف الفضاء الثقافي، ومعرفة مراحل البناء الفكري، وتطوره ومستوياته، التي كان ولا يزال الإنسان العربي يتشبث بها عبر العصور، ومر الأيام، وينادي بتشييدها وإحكام بنائها لتبقى دائماً في حالة تجدد واستمرار.

كما تضمن الفصل حديثاً عن موضوع جغرافية الفكر، يلقي الضوء على أثر البيئات الجغرافية المختلفة على خصائص البنية الفكرية التي تتشكل في هذه البيئات، ليس من أثر الطبيعة المادية للمكان (الجغرافيا) فحسب، وإنما أثر التمايز العرقي للشعوب التي تقيم في هذه البيئات الطبيعية، واللغات التي تعبر فيها عن فكرها وثقافتها، ورؤية هذه الشعوب للعالم، وموقعها فيه، وأحلامها وطموحاتها.

أولاً: خريطة مصادر البناء الفكري

يبحث الشباب المسلم الذي يريد أن يسير في طريق البناء الفكري عن مصادر البيانات والمعلومات والمعارف التي يلزم أن يحصل عليها. وقد يكون من المفيد في البداية التأكيد على أهمية التمييز بين أنواع مختلفة من مصادر البيانات، سواءً كان ذلك في الأشخاص، أو الكتب، أو المجالات والدوريات أو المواقع الإلكترونية، ومنها:

(١) البخاري. صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله حديث رقم ٦٤١٧ ص ١٥٩٩.

١- مصادر بيانات المعرفة المتخصصة، وهي مصادر الاستزادة والنمو في مجال التخصص العلمي؛ إذ يتوقع أن يواصل كل شخص القراءة والاطلاع في مجال تخصصه، ليتابع الجديد فيه، وربما ليتعمق ويبدع فيه.

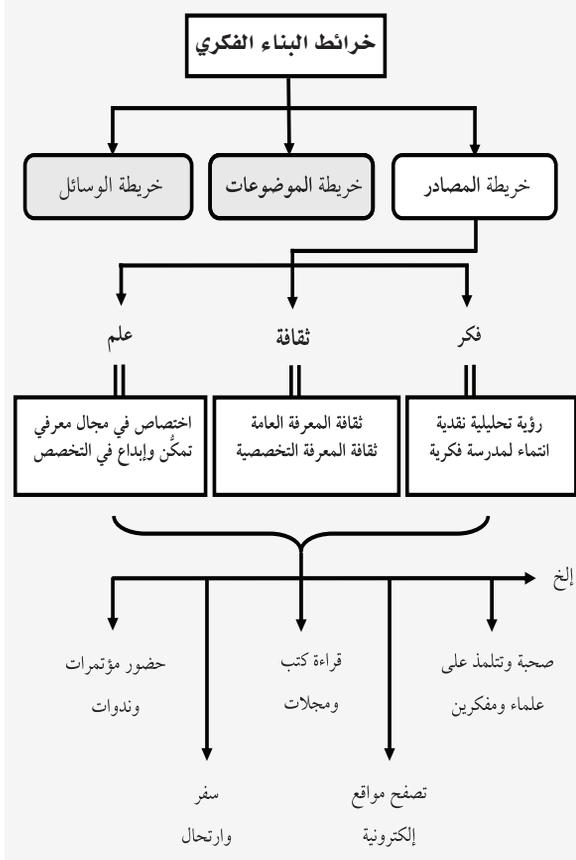
٢- مصادر بيانات في ثقافة التخصص، ممَّا يُعدُّ امتداداً لموضوع الاختصاص، لكنه أقرب إلى التبسيط لغير المتخصص، وأقرب إلى مجالات التطبيق العملي الذي يستقطب اهتمام العامة من الناس، مثال ذلك كتب الثقافة الطبية، والثقافة التكنولوجية، والثقافة اللغوية، والثقافة الفقهية، والثقافة التاريخية... إلخ. فإذا كان من المهم أن يتقن الفقيه لغة الفقه، ويمتلك أساليبه ويتحقق بضوابطه وشروطه، ويتحدث مع جماعة الفقهاء والمتخصصين في علوم الشريعة بلغة علمية تكشف عن فقهه، ويستحضر الأحكام الفقهية الخاصة بالمسائل المعروضة، ويحسن استنباط الأحكام الخاصة بمسائل جديدة حتى يستحق صفة الفقيه، فإن من المهم كذلك أن يحسن خطاب فئات الناس من التخصصات المختلفة، ويحسن خطاب العامة من غير أهل التخصص. ولا يحتاج في ذلك إلى اللغة العلمية المتخصصة، وإنما يلزمه تبسيط الخطاب، لغة وأسلوباً، واستحضار الأمثلة التقريبية والوقائع العملية التي تجعل فقهه ثقافة متاحة للناس كافة، وهذا ما نسميه الثقافة الفقهية.

٣- مصادر بيانات في الثقافة العامة، ولا تصنف هذه المصادر عادة ضمن تخصص محدد، لكنها تتضمن بيانات ومعلومات وحقائق ومفاهيم تتطلبها الحياة الثقافية العامة، ومتابعة القضايا التي تكون مُثارة في الإعلام ومنابر التوجيه، وتشغل مساحات ليست قليلة من اهتمام الناس والرأي العام، وتستهدف توسيع دائرة اطلاع الفرد، وإذا كان لا بد من تصنيفها إلى مجالات معرفية فسنجد أنَّها تنتمي إلى تنوع واسع من هذه المجالات مثل: التاريخ، والجغرافيا، والسياسة، والاقتصاد، والإعلام، والفن،

والسير الذاتية للمشاهير، وغير ذلك. ولا يبذل القارئ لهذه المصادر جهداً كبيراً في البحث عنها، لأنها الخبرات المتراكمة في الحياة اليومية، مع شيء من الاهتمام في تذكرها وتداولها مع الآخرين، والحرص على جمعها والإفادة منها حيثما أتاحت له.

٤- مصادر بيانات فكرية، وهي مصادر تنتسب في الغالب إلى مدارس فكرية محددة، أو تقدم تحليلات نقدية للمصادر الخاصة بهذه المدارس. وتتدخل هذه المصادر مع مصادر الثقافة العامة، لكنها أكثر تحقيقاً وتحديداً وعمقاً، ويسعى القارئ إليها سعياً حثيثاً، ويجتهد في البحث عنها، والتفاعل معها، ولا يكتفي بالاطلاع العابر عليها، وإنما يجتهد

في تتبع الأفكار ويتفحص أدلتها ويقارنها بغيرها، وقد يتبناها ويصبح داعية إليها، مدافعاً عنها، أو يرفضها ويجتهد في نقدها أو نقضها. وضمن هذه الفئة من المصادر الأفكار التي يستقيها الفرد من مدرسة فكرية معينة ينتمي إليها، ويشترك في جل هذه الأفكار مع كل المتتمين إلى تلك المدرسة.



ثانياً: خريطة موضوعات البناء الفكري

يعتمد البناء الفكري على المصادر المتنوعة التي تمت الإشارة إليها، وفي السياق الإسلامي تبدو الحاجة ماسة إلى أن تركز الكتب والبحوث والحوارات -التي تفيد في البناء الفكري- على إعادة بناء رؤية كلية للعالم، تمكن الإنسان من إدراك وفهم القضايا والموضوعات المثارة في الفكر المعاصر ضمن هذه الرؤية، بصورة تتصف بالوضوح والتكامل والانسجام. لا سيما الموضوعات التي يكثر حولها الجدل وتتفاوت فيها آراء عامة الناس، والمثقفين منهم على وجه الخصوص، وربما النخب الفكرية كذلك. ومن هذه الموضوعات على سبيل المثال:

١- موضوعات بناء الأمة: وهي اللغة والدين والتاريخ. ذلك أن هذه الموضوعات هي التي تبني الهوية الإسلامية العامة للفرد والمجتمع والأمة، وتحدد من ثم علاقة هذه الهوية بالهويات والانتماءات الفرعية الأخرى مثل الوطنية والقومية والعشائرية والمذهبية...إلخ.

أ- سيتم الحديث عن اللغة والفكر في مكان آخر من هذا الكتاب بشيء من التفصيل، والذي يهمنا الآن التأكيد على قدرة الإنسان أن يفكر بلغته الأم ويعبر عما يطوره من فكر بلغة سليمة تكشف عن هويته وانتمائه، وتمكنه من التأثير الإيجابي في الآخرين. واللغة في هذا السياق تعني أساليب التواصل والتفاعل اللغوي المتاحة، بالمحاضرة والحوار والمقال والكتاب... إلخ. فقيمة الفكر الذي ينتجه المفكر في فعله وأثره في الآخرين، وكيف يتسنى لهذا الفعل والأثر أن يتحققا دون التواصل اللغوي المناسب؟

ب- وقد أكدنا أكثر من مرة أننا في هذا الكتاب نتحدث بمرجعية دينية إسلامية، والدين في رؤيتنا نظام توحيد عام يشتمل على العقيدة التي تجيب عن الأسئلة الوجودية الكبرى، وعلى الشريعة التي تفصل أنظمة

الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعلى الأخلاق التي تفصل معايير التزكية الفردية والجماعية وأنماط السلوك والمعاملات. لكن هدف الدين هو هداية الإنسان لتمكينه من تحقيق الاستخلاف البشري في الأرض، وإقامة العمران، وبذلك يتحقق معنى العبادة. وسوف يساعدنا هذا في تحديد فهمنا وموقفنا من الجدل الذي لا يزال دائراً منذ قرنين ونيف عن موقع الدين في الدولة الحديثة وحكم في أنواع المشاركة السياسية ومستوياتها.

ت- أما التاريخ، فإننا نقصد به في هذا المقام تاريخ البشر على الكوكب الأرضي، واستيعاب ما كان فيه الخبرات والتجارب البشرية، والاعتبار بها. ومنهج القرآن الكريم في الحديث عن الأمم والأقوام وعن رسالات الأنبياء، وعن مسؤولية الأمة الإسلامية في صناعة الجزء المتبقي من تاريخ البشرية على هذه الأرض، والشهادة على الناس. وهذه رؤية للتاريخ ربما تختلف عما ألفناه من معنى التاريخ، وطريقتنا في عرضه. إنه رحلة البشرية وتجربتها وتراثها عبر الزمن، وما اهدت إليه هذه البشرية من فكر وثقافة وحضارة. وفي هذا التاريخ بما في ذلك تاريخ المسلمين، أفكار حية وأفكار ميتة وأفكار مميّنة، ينبغي التمييز بينها والتعامل معها.

٢- موضوعات القضايا المثارة والقضايا التي يلزم أن تثار، فالإعلام المعاصر ينقل للناس بوسائله الفعالة أخباراً وأحداثاً من كل أنحاء العالم. ويثير معها قضايا محددة ومشكلات تتجدد من يوم لآخر، ويتواصل الجدل حولها ويطلب إلى المفكر إن يكون له فهم لها وربما موقف منها. ومن هذه الموضوعات على سبيل المثال:

أ- الفهم الإسلامي الإجمالي للآخر غير الإسلامي داخل المجتمع المسلم وخارجه، وأحكام العلاقات الدولية مع الدول والمنظمات العالمية، وتحرير مفاهيم الجهاد والتحالف والتعايش.

ب - قضايا المرأة؛ حقوقها وواجباتها وعملها.

ت - قضايا الاقتصاد والتنمية والبنوك.

ث - إلخ.

وهذه أمثلة على القضايا وليس حصراً كاملاً لها. لكن الذي يلزم ملاحظته أنّ البناء الفكري لا بد أن يشكّل لدى الفرد والجماعة رؤيةً للعالم، وهي رؤية كلية تعينه على فهم هذه القضايا والموضوعات وأمثالها، واتخاذ موقف إسلامي تجاهها.

وموضوعات الزاد الفكري الذي يسهم في بناء الرؤية الكلية وقيم البناء الفكري المتوازن، أنواع متعددة، كل نوع منها يسهم في جانب مهم من البناء الفكري

النوع الأول: كتابات في الفكر الإصلاحي والنهضوي، وتعالج هذه الكتابات قضايا الفكر والبناء الفكري، والتفكير وأنواعه ومستوياته، ودراسات في تاريخ الحضارات الإنسانية وشروط قيام الحضارات وأسباب انهيارها، وما يرافق ذلك من صور الصراع الفكري، أو الاقتراض الثقافي والحضاري. ومن الكتابات التي تقع ضمن هذه الفئة علوم متفرعة عن التاريخ مثل: فلسفة التاريخ، وتاريخ الأفكار. والمهم في هذه الدراسات هو ملاحظة البعد الفلسفي للتاريخ وامتداداته في الحاضر والمستقبل، وتشكيله للأساس العملي للتفكير الاستراتيجي المستقبلي.

النوع الثاني: مداخل العلوم الاجتماعية والإنسانية، وليس المقصود من أدبيات هذه المداخل في هذا السياق المعرفة المتخصصة في علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة، وعلم الاتصال، وغيرها، وإنما يكفي فيها الإلمام بالمفاهيم والقوانين والنظريات والتطبيقات العملية، واستحضار ذلك عند التفكير في المشكلات المثارة لفهمها والمشاركة في اقتراح الحلول

الممكنة لها. ولعل أهم العلوم التي يلزم الإلمام بمدخلها هي علم الاجتماع وعلم السياسة، وعلم الإعلام.

النوع الثالث: أدبيات ومدخل في علوم التغيير ونقصد بها هنا على وجه التحديد: الإدارة، والمنهجية، وعلم النفس. ويتضمن علم الإدارة تطبيقاته في إدارة الوقت، وإدارة الذات، وإدارة الجماعات، ويتضمن علم المنهجية تطبيقاته في التفكير والبحث والسلوك، والتكامل المنهجي، والمدارس المنهجية. أما علم النفس فيتضمن قضاياها الأساسية في التعلم والنمو والتغيير.

إنَّ علينا أن نلاحظ أنَّ الطرق التي يتم بها البناء الفكري طرق مختلفة، ومن المهم أن نحرص على أن تتراكم فعاليات هذه الطرق وتتآزر آثارها. فمن مسؤولية الفرد أن يكون واعياً على التفاعل الفطري بين عمليات التطُّع، والتنشئة الاجتماعية، ومن مسؤوليته توظيف التعليم القصدي، والتزكية النفسية بتصفية النية، وحسن الاتباع، وصناعة الإبداع. ومن مسؤولية الأسرة والجماعة والتنظيم أن يتعزز لدى هذه الجهات من هذا الوعي وهذا التوظيف ما يكفي لتحقيق البناء الفكري، وتوفير البيئة الملائمة لظهور آثاره ونتائجه المنشودة.

ومهما كان المحتوى العلمي للفكر البشري، علوماً شرعية أو طبيعية أو اجتماعية... فإن تحليل هذا المحتوى يكشف عن عناصر ذات مستويات متفاوتة في مقاديرها الكمية، وخصائصها الكيفية، وثمة علاقات بنوية ووظيفية بين هذه العناصر. ومجموع عناصر هذا المحتوى العلمي تظهر في بناء هرمي له قاعدة وقمة. ففي قاعدته في أي علم من العلوم، تتموضع حقائق ذلك العلم، وتكون الحقيقة الواحدة منها تعبيراً عن شيء محدد، بما هو في ذلك الشيء اسماً أو صفة، وعدد هذه الحقائق في أي علم من العلوم عدد كبير جداً، ويسهل ملاحظة التتابع بين التعبير اللغوي عن الشيء الحسي أو الأمر المعنوي من جهة، وحقيقة ذلك الشيء أو الأمر بصورة تكون أقرب إلى الإحساس المادي المباشر. وتمثل هذه القاعدة الأساس الأول للبناء المعرفي للعلم.

ولما كانت الحقائق كثيرة جداً فإن العقل البشري يقوم بالربط بين العدد الكبير من الأشياء التي تتشابه في عدد من الخصائص البشرية، فيطلق عليها لفظاً مشتركاً، هو المفهوم،^(١) فالإنسان هو مفهوم ينطبق على كل فرد من الناس بغض النظر عن لونه ولغته وعرقه...، والسماك هو مفهوم ينطبق على أفراد الكائنات البحرية التي تعيش في الماء وتنفس بالخياشيم، والبيع مفهوم لإعطاء أية سلعة مقابل ثمن... فالمفاهيم هي طبقة أو مستوى آخر في هرم العلم يقع فوق الحقائق، وهي أكثر تعميماً وتجريداً من الحقائق. ومفاهيم كل علم على كثرتها هي أقل عدداً من حقائق ذلك العلم.

والمعرفة البشرية تقيم علاقات بين المفاهيم، علاقات ارتباطية أو سببية، وكل علاقة يمكن أن تصاغ بصورة قاعدة أو مبدأ أو قانون أو معادلة رياضية. ففي المعاملات التجارية يقوم البائع بعرض البضاعة التي يطلبها المشتري، وبين العرض والطلب علاقة يمكن أن تصاغ في صورة قانون، هو "قانون العرض والطلب". وفي كل علم من العلوم قوانين تربط بين مفاهيم ذلك العلم، ففي الكيمياء قوانين، وفي الاقتصاد قوانين، وفي اللغة قوانين، وهكذا. ونظراً لأن كل قانون يختزل في صياغته كثيراً من المفاهيم فإن القوانين أقل عدداً من المفاهيم، ولكنها أكثر تجريداً. وتمثل طبقة أعلى في البناء الهرمي للعلم، تقع فوق طبقة المفاهيم.

ومن الجدير بالذكر أن الحقائق والمفاهيم والقوانين، هي (مستويات وصفية)، تعبر عن واقع الأشياء كما هي عليه، لكنها لا تفسر سبب وجود هذه الأشياء على ما هي عليه. والذي يفسر ذلك كله هو مستوى آخر من مستويات البناء المعرفي للعلم، وهو رأس هرم المعرفة، وهو النظريات. فكل نظرية تتكون من مجموعة من المبادئ التي تفسر ظاهرة من ظواهر العلم. ففي كل علم

(١) يختلف استعمال مصطلح المفهوم حسب المجال المعرفي ففي المنطق هو تصور ذهني، وفي اللغة هو معنى وضعي (اصطلاحى) يشير إلى اللفظ الذي يدل على حقل دلالي عام، انظر: - كوريم، سعاد. الدراسة المفهومية: مقارنة تصورية ومنهجية. مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عدد ٦٠، ربيع ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ٦٥.

مجموعة من النظريات التفسيرية، تكون عادة أكثر تجريداً من مستويات البناء المعرفي التي تسبقها، ويكون عدد النظريات في كل علم قليلاً. وإذا كانت وظيفة الحقائق والمفاهيم والقوانين هي الوصف، فإن وظيفة النظريات هي التفسير.

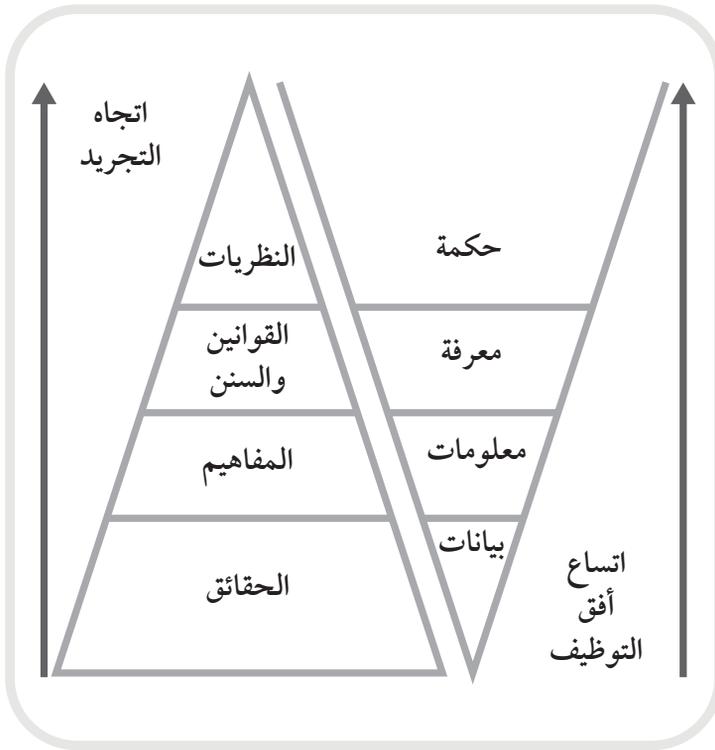
وقد يكون من المناسب أن نستدرك هنا بالقول: إن هرم المعرفة بالصورة المبينة أعلاه قد استخدم بصورة توضيحية جيدة، في التعبير عن مفردات المعرفة العلمية والعلاقات القائمة بينها في العلوم الطبيعية، من فيزياء وكيمياء وأحياء، لكن ذلك يمكن أن يصدق على العلوم الأخرى، ولعل الفارق هو في تمايز الفئات والأنواع والأمثلة في كل مستوى من المستويات، فقد تكون أنواع الحقائق العلمية الطبيعية وأصنافها مختلفة عنها في العلوم الشرعية والعلوم الاجتماعية. فالحقائق المفردة عن أشياء الكون وأحداثه غير الحقائق الوجودية الكبرى عن أصل الكون ومصيره. كذلك فإن نوع التداخل أو التمايز بين مفردات المعرفة في هذه المستويات قد يتأثر بالتعبيرات التي توفرها اللغة عنها. فمصطلح (Fact) باللغة الإنجليزية لا يقابل تماماً مصطلح "حقيقة" باللغة العربية. وهكذا في عناوين المستويات المعرفية الأخرى.

وثمة طريقة أخرى في التعبير عن مستويات المعرفة العلمية في أي علم من العلوم. وفي هذه الطريقة نعبر عن أبسط أشكال المعرفة بمصطلح البيانات (data) التي تقابل الحقائق في هرم المعرفة، ومجموعة البيانات ذات العلاقة بموضوع واحد تشكل ما نسميه (المعلومات)، وهي مستوى أعلى في الدلالة والمعنى. وإذا أمكن توظيف المعلومات لغرض معين وتحقق ذلك بالفعل، فإن المعلومات تصبح معرفة، وتشكل هذه المعرفة مستوىً ثالثاً، وهي بطبيعة الحال ذات مستوى أعلى في الدلالة والمعنى من المعلومات.

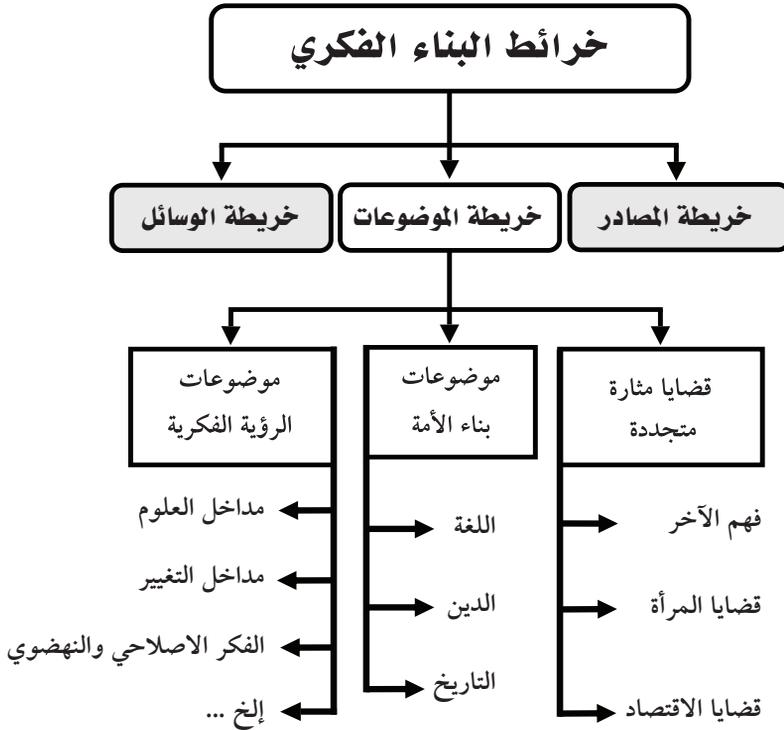
وأخيراً فإن الغرض من تطبيقات المعرفة وتوظيفاتها في الرُّقْيِّ بالنفس والمجتمع نحو آفاق مفتوحة من رؤية العالم، والإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى، يفتح المجال لمستوى رابع يتجاوز المعرفة نحو ما يطلق عليه (الحكمة).

وبدلاً من تصوير هذه المستويات الأربعة في صورة هرم مشابه لهرم المعرفة السابق، فإن يحلو لنا أن نتخيل العلاقة بينها في صورة مدى الاتساع الفكري في الدلالة والمعنى والقيمة. وفي هذه الحالة فإن البيانات تكون أضيق المستويات، يليها المعلومات التي تكون دلالتها أوسع وأعلى قيمة، ثم تكون المعرفة أوسع دلالة وأعلى قيمة من المعلومات، وأخيراً تظهر الحكمة في أفق مفتوح نحو الأعلى تعبيراً على المدى الواسع الذي لا يحده سقف.

وفيما يلي رسم تخطيطي يوضح المستويات الأربعة من مفردات المعرفة، في صورة هرم معتدل على يسار الشكل، والمستويات الأربعة لتوظيف مفردات المعرفة في صورة موازية لمستويات الهرم على يمين الشكل.



هرم المعرفة وآفاق توظيفها مفرداتها



ثالثاً: خريطة أدوات البناء الفكري ووسائله

أما أدوات البناء الفكري ووسائله فهي كذلك متعددة، ونشير في هذا المقام إلى القراءة، التي تعدّ النشاط الأساسي لتغذية العقل البشري، والوسيلة الأكثر أهمية للتعليم والتشكيل الثقافي والفكري للفرد، ولا نقصد بها قراءة الهواية والتسلية، وإنما القراءة القاصدة، الهادفة، المبرمجة؛ القراءة بأنواعها ومهاراتها؛ القراءة المتأبّية، المتدبّرة، المتفكّرة، المتذكّرة؛ القراءة الكلية والقراءة النقدية؛ القراءة التي تضع جزئيات النص المقروءة ضمن إطاره المرجعي، وتضع الإطار المرجعي للنص ضمن النظام المعرفي الذي يتسبب إليه، وهكذا.

وليس عبثاً أن تكون الكلمة الأولى من كتاب الله الأخير إلى البشرية هي فعل الأمر: اقرأ، وأن الأمر بها يأتي مرتين متتاليتين؛ مرةً لقراءة الخلق باسم الله، ومرة لقراءة الوحي المكتوب بالقلم: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمَائِكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ① ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ② ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ③ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ④ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] وأن تبقى كلمة اقرأ عهداً لله للبشر الباقي إلى قيام الساعة، تقول للناس: انتهت عهود الأمية بعد نزول هذه الآيات. فما يُقرأ إذاً هو ما يشاهد من أصناف الخلق الإلهي، وخلق الإنسان من عَلَقٍ نموذجٍ لما يخلق، يتطلب التفكير والتدبر العلمي والدراسة المتأنية لهذا الخلق وتطوره من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغته، مخلقة وغير مخلقة، ثم من عظم ولحم، حتى يكتمل خلق الإنسان، فتبارك الله أحسن الخالقين! وتتم هذه الدراسة باستخدام مناهج البحث وأدواته وأساليبه من مشاهدة وقياس وتجربة ما تتطلبه دراسات أصناف الخلق، وأشياءه وأحداثه وظواهره. وما يُقرأ كذلك هو ما يسطره القلم الذي جعله الله سبحانه أداة للعلم والتعلم والتعليم. سواءً كان ذلك مما نزل من كتب الوحي، أو ما نطقت به ألسنة الأنبياء، أو دونه أهل العلم في الكتب جيلاً بعد جيل في سائر ميادين العلم والمعرفة.

وتستدعي علاقة البناء الفكري بالقراءة أن تقرأ بعض النصوص وبعض الكتب مرة بعد مرة. ويمكن استكمال أهداف القراءة لنصٍّ معين وتحقيق الفائدة من قراءته، عندما يُقرأ معه ما يرتبط به من نصوص أخرى من مصادر المعرفة المشار إليها سابقاً، فتحدث عمليات عديدة من التذكر، والتفكير، والموازنة، والمقارنة، والتكامل. وعندها يضيف القارئ إلى بنائه الفكري فكرة أو جملة من الأفكار، ولو انتقل القارئ من القراءة إلى الكتابة فإنه يكون قد قيّد الأفكار وضبطها ونظمها، وأصبحت إنتاجاً معرفياً مكتوباً ومادة للقراءة له ولغيره من القراء.

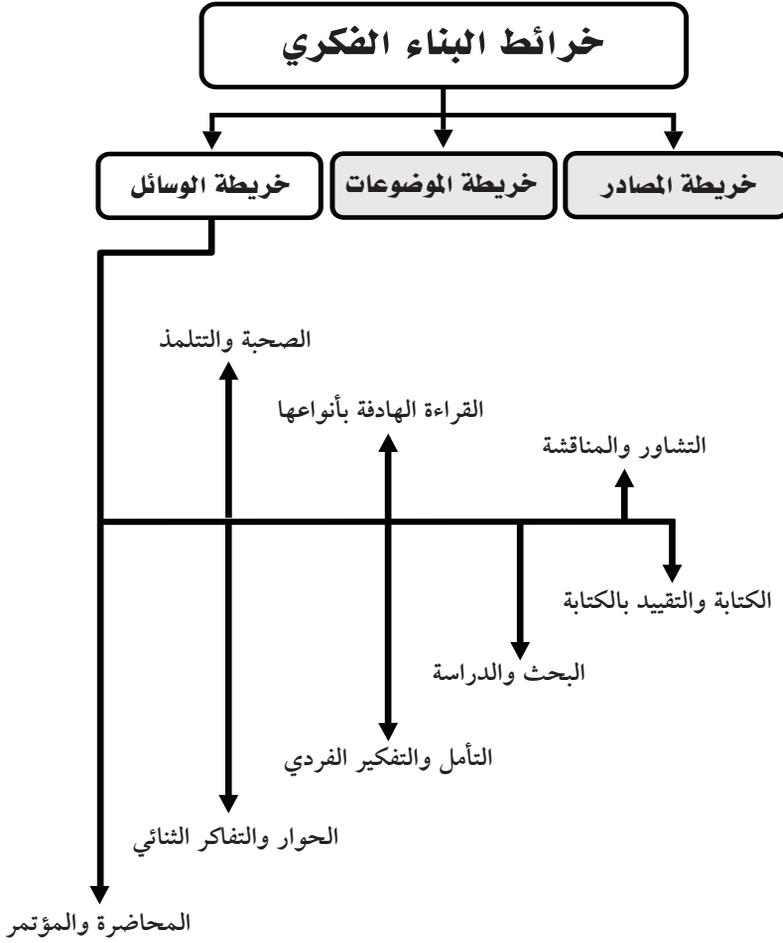
وكثير من الإبداع في صياغة الأفكار وكتابتها إنما يتم بعد قراءات متعددة، يكتشف فيها القارئ - الكاتب الخطأ أو القصور أو التهافت فيما يُقرأ، فيقدم

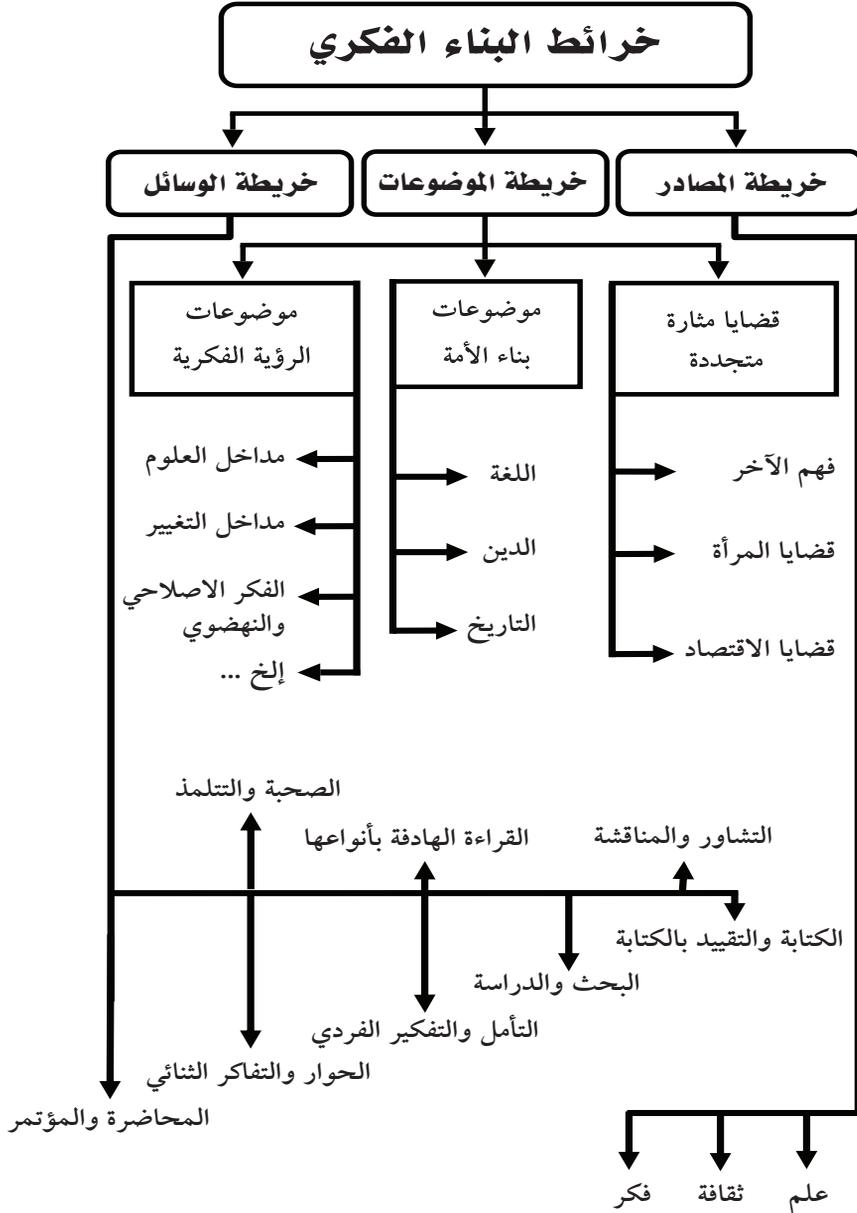
الكاتب صياغة أخرى تؤدي مهمة التصويب أو التكميل، أو يقوم بالنقض الكلي للفكرة المقروءة ويقدم فكرة جديدة تماماً.

إن سعة الاطلاع عن طريق القراءة تمكن القارئ من مناقشة الأفكار التي يقرأها مع الآخرين، فيكون في هذه المناقشات تفكير وتذكر، يؤدي إلى مزيد من الفهم عند المشاركين في التفكير والتذكر، وربما يتحول التفكير والتذكر إلى مادة مكتوبة، تجد من يقبل على قراءتها. وبالقراءة والكتابة تبلور الأفكار التي تكون موضوعاً للمحاضرات، والندوات، والمؤتمرات، وتكون كذلك مشاريع البحوث والدراسات، التي يرافقها كثير من القراءة قبل الكتابة. وهكذا تتواصل عملية الإنتاج الفكري بالقراءة والكتابة. وهكذا تتواصل عمليات البناء الفكري.

نلاحظ هنا أن القراءة وسيلة من وسائل البناء الفكري، وهي أساس لمعظم الوسائل الأخرى التي أشير إليها بإيجاز، من تفكير وتفكير، وتذكر وتذكر، ومحاضرة وندوة ومؤتمر، وبحث ودراسة.

ولكننا في النهاية لا بد أن ننوه بوسيلة مهمة لا ينبغي نسيانها، وهي وسيلة صحبة العلماء والمفكرين والمصلحين وأصحاب الخبرات المتميزة، والرحلة للقائهم، والاستماع إليهم، والتلمذ عليهم. ففي التاريخ البشري كانت وسيلة اكتساب العلم والمعرفة والخبرة، من الآخرين الذين يملكونها، ومن ثم الاقتباس من علمهم وخبرتهم، والاهتداء بهديهم، والاقتداء بسيرتهم، هي الوسيلة هي المتاحة والأكثر أهمية. والأنبياء والرسل في المدى الأطول من تاريخ البشر كانوا هم مصدر العلم والهدى، فكان لهم أتباع آمنوا بما جاءوا به من عند ربهم، ثم توارثت الأجيال تعاليم الأنبياء والرسل حتى يومنا هذا. ومثل ذلك يقال عن العلماء والمصلحين والفلاسفة وأقطاب الصوفية الذي كانوا مصادر يستمد منهم أتباعهم مذاهب في الفقه، ومدارس في الفكر، وطرقاً في السلوك.





رابعاً: خريطة قياس البناء الفكري

إذا كنا بصدد تقويم كفاءة برنامج معين في البناء الفكري، فما الأداة المناسبة لاستخدامها في هذا التقويم، ومتى نستخدمها؟ وإذا احتجنا إلى وصف ما تملكه فئة محددة من فئات المجتمع من بناء فكري، فهل نجري اختباراً لكل فرد في هذه الفئة، ثم نجد الوسط الحسابي لمجموع الأفراد، ثم نجد مقدار ما يملكه كل فرد بالنسبة إلى ذلك الوسط؟ ما الإطار المرجعي الذي يمكن التفكير به لتحديد المستوى المنشود لنوعية البناء المعرفي، أو مقداره، عند فرد أو فئة أو مجتمع؟ هل نستطيع أن نبني مقياساً مقنناً في البناء الفكري؟ ما الخصائص الكيفية والكمية التي يمكن أن نستخدمها في هذا القياس؟ وما وحدات القياس التي تصلح لهذا الغرض؟

إن الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة في بُعدها العلمي - التعليمي "الأكاديمي" تفتقر إلى أدوات القياس المقننة في معظم مجالاتها، وأكثر الحلقات ضعفاً في مجال القياس هو القياس النفسي والعقلي. ورغم التطور الكمي الكبير في إنشاء المدارس والجامعات، فإن البرامج التعليمية والمناهج الدراسية التي استخدمت في هذه المؤسسات كانت في الأغلب استيراداً فكرياً وثقافياً. وقد تكون بلادنا قد اكتسبت شيئاً من الخبرة الذاتية في تطوير عناصر المنهاج التعليمي في الأهداف والمحتوى والأساليب، إلا أن الخبرة في العنصر الرابع؛ أي التقويم كانت هي الحلقة الأضعف. فلا نزال نستورد اختبارات الذكاء، والشخصية، ومقاييس الاتجاهات وأدوات استطلاع الرأي، وغيرها من أدوات وبرامج القياس والتقويم.^(١)

وقد شاعت في العقدين الأخيرين أفكارٌ تتصل بتقويم أداء المؤسسات

(١) ربما تصلح هذه الظاهرة "ظاهرة الضعف في خبرات القياس والتقويم التعليمي والتربوي" في البلاد العربية أن تكون موضوعاً للبحث والدراسة، واستقصاء علاقة هذا الضعف بمجمل البناء الفكري للنخبة العلمية المتخصصة، أو بخصائص البنية المؤسسية لسياسات التعليم، أو بالثقافة الإدارية للعاملين في هذه المؤسسات.

التعليمية، تحت شعارات ضبط الجودة، وهي كذلك أفكار مستوردة اقتصر في الغالب على جوانب التوثيق والتدوين لمدى وجود عناصر محددة أو "أشياء" معينة في المؤسسات التي يجري تقويمها، دون إعطاء الاهتمام الأكبر بكفاءة العاملين في المؤسسة في استعمال هذه الأشياء. بل إنك لتسمع عن جامعات استعدت لزيارة مؤسسات الاعتماد الجامعي للجامعة، فاستعارت بعض "الأشياء" من أماكن أخرى، وضبطت بعض الأرقام والنسب والموازنات لتتواءم مع معايير الاعتماد، فإذا انتهت الزيارة، وأخذت اللجنة البيانات المطلوبة، سرعان ما تعاد الأشياء المستعارة إلى أماكنها الطبيعية، وانتهت الحاجة إلى الأرقام والنسب والموازنات المزيفة.

في ظل هذا الواقع الكئيب في مستوى الخبرة في بناء أدوات القياس والتقويم، لا غرابة أن نجد ضعفاً شديداً في تطوير أدوات مناسبة لقياس البناء الفكري للأفراد أو الفئات أو المؤسسات أو المجتمعات. وحينما نجد بعض أدوات القياس الفكري التي جرى استيرادها وتطويرها لتتلاءم مع البيئة المحلية، سنجد أنها تختص غالباً بذوي الإعاقات، والحاجات التعليمية الخاصة، فمثلاً نلاحظ أن مصطلح التربية الفكرية، وأدوات التقويم الخاصة بها، يستخدم للتعامل مع هذه الفئة تحديداً.

ونحن في هذا المقام وقياساً على ما قدمناه من أن البناء الفكري هو حديثٌ عن عملية البناء ومهاراتها، وعن محتوى الفكر وموضوعاته، فإننا نؤكد الحاجة الماسة إلى نوعين من المقاييس والاختبارات هما:

- مقاييس العمليات الفكرية، أو درجة ممارسة العمليات أو المهارات العقلية لدى فرد أو فئة من الأفراد، لإعطاء وصف معين لمقدار ونوعية ما يمتلكه الفرد أو الفئة من القدرة على أداء عمليات فكرية معينة.
- مقاييس درجة امتلاك محتوى محدد من البنية الفكرية بحسب الخريطة الفكرية التي تتوزع فيها عناصر هذا المحتوى، أو بحسب القيم النسبية للدرجة التي يطلب بها امتلاك هذه العناصر.

وللتمثيل على مقاييس الأداء الفكري، يمكن أن نستحضر الاختبارات والمقاييس المستعملة في قياس مهارات التفكير العلمي، أو مهارات التفكير المنطقي، أو مهارات التفكير الإبداعي، أو النقدي، أو مهارات التفكير "من خارج الصندوق" أو القدرة على حل المشكلات... إلخ.

صحيح أن المرجعيات الكمية والكيفية لمعظم هذه الاختبارات هي مرجعيات علم النفس وعلم التربية في مصادرها الغربية، وأن جهوداً مقدرة قد بذلت في هذا المجال من أجل تكيف هذه الاختبارات من تطبيقها في مجالات التحصيل العلمي والتعليمي في بلادنا، لكن أكثر هذه التطبيقات كانت في مجال اللغات والرياضيات والعلوم، وقليل منها في مجالات العلوم الاجتماعية، وأقل من القليل في مجال دراسات العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي.

كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة؟ هل كان العقل المسلم أقل قدرة من غيره من العقول على تطوير أدوات التقدير والقياس وضبط المستوى؟ هل كان الأمر يتعلق بشيء من الإهمال المقصود أو غير المقصود للعلوم الإسلامية وموضوعات الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية والتربية الإسلامية... إلخ، بالمقارنة مع الموضوعات الأخرى في العلوم والرياضيات واللغات؟ هل كان الأمر يتعلق بوفرة أنماط البضاعة في مواقع المنشأ في الدول الغربية، ولذلك كان يتم استيراد ما يتوفر منها؟

لقد كان للعقل المسلم قصب السبق في كثير من ميادين التفكير المنهجي، وتطوير نماذج الفكر، وأدوات تقويم الخبرة والكفاءة في التفكير والأداء، فقد عرفت علوم الحديث النبوي الشريف ولا سيما علوم: العلل، والرواية والدراية، والرجال، والجرح والتعديل، ما أصبح بعد ذلك علوماً نقدية بامتياز، وكان علم أصول الفقه علماً منهجياً بامتياز، ونمت منهجية التفكير العلمي المعتمدة على المشاهدة والقياس والتجريب وتطورت في المجتمع الإسلامي قبل أن يعرفها أي مجتمع آخر، وتميز ابن خلدون مثلاً

باختبار الروايات التاريخية في ضوء الطبائع النفسية والوقائع الميدانية، كل ذلك يؤكد أنّ العقل المسلم ليس أقل من غيره من العقول على تطوير مناهج التفكير ونماذج الفكر وأدوات القياس.

وغنيّ عن القول: إنّ القرآن الكريم والسنة النبوية مصادر في غاية الغنى لتطوير أدوات لضبط منهجية التفكير، واستنباط الأفكار وصياغتها، وإحسان عرضها وممارستها. ثم إنّ الحضارة الإسلامية عرفت نظم التقويم والإجازة سواءً في العلوم النظرية أو العلوم التطبيقية، لقد كان شيوخ المهن (شيخ الكار) يصممون أنظمة ومواقف عملية لاختبار المتدربين قبل إجازتهم لممارسة المهن. لنأخذ بعض الأمثلة على المحددات المنهجية التي يلزم أن تؤخذ بالحسبان في جهود ممارسة التفكير الإسلامي وما يمكن أن ينتجه هذا التفكير.

واحد من هذه المحددات يختص بمنهجية فهم القرآن الكريم والتعامل مع نصوصه، وكيف يمكن توظيف مناهج متعددة وفقاً لتعدد موضوعات الخطاب القرآني. فالتنوع والتمايز بين موضوعات الخطاب القرآني يستدعي تطوير المنهجية المناسبة للتعامل مع كل نوع من أنواع هذه الموضوعات.

أ- فمن موضوعات القرآن ما يختص بالأحكام الفقهية التفصيلية التي تحدد للمجتمع الإنساني قواعد تتصف بالثبات والاستقرار، مثل أحكام عبادات الصلاة والزكاة والصوم والحج، وأحكام الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وتوارث، فهذه تتصل بالطبيعة البشرية وفطرتها السليمة، ولذلك فإن المسلم يتعامل معها على أساس التطبع والتلقي والتسليم.

ب- ومن موضوعات القرآن الكريم ما يتصل بإدارة المجتمع البشري وفقاً لما يطرأ من مستجدات الزمان والمكان فكانت نصوص القرآن فيها مبادئ كلية عامة يتم تحقيقها بطرق متغيرة تستجيب للحاجة، وتوظف الأدوات والأساليب والخبرات المتجددة وفق ما يثبت أنه الأفضل والأصلح، لتحقيق المقاصد المنشودة من هذه المبادئ، فنحن نجد في القرآن الكريم مبدأ الشورى،

ولكننا لا نجد فيه أسلوباً محدداً لتطبيق الشورى، بل تُرك الأمر لمقتضيات الزمان والمكان، ولتطوير الأساليب المتجددة التي تثبت خبرة المجتمع أنها أكثر كفاءة في تحقيق مقصد الشورى.

ت - ونجد نوعاً ثالثاً من موضوعات القرآن الكريم ولعله النوع الأكثر وروداً في القرآن الكريم، ويتمثل في القصص القرآني. والتنوع هنا تنوعٌ شديد، فقد تذكر القصة كاملة في موقع واحد مثل قصة يوسف عليه السلام، أو قصة أصحاب الكهف. وقد تذكر مشاهد أحداث القصة في مواقع مختلفة، أو يتكرر ذكر بعض المشاهد بطرق مختلفة، وكل منها يخدم غرضاً محدداً، مثلما نجد في أحداث قصة موسى عليه السلام، أو نوح عليه السلام. ويمكن أن يكون الهدف في جميع الأحوال هو الاعتبار، وتعليم القارئ للقرآن كيفية استنباط السنن والقوانين الاجتماعية.

ث - ونجد في القرآن الكريم نوعاً رابعاً من الموضوعات، ويتمثل في تحليل خواطر النفس الإنسانية وطبائعها، وملاحظة تنوع السلوك الإنساني في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، والهدى والضلال. ولا شك في أن تناول هذه الموضوعات يعدّ مصدراً لفهم الطبيعة البشرية، والسنن النفسية التي تحكم سلوكها.

ج - ولا ننسى نوعاً خامساً من الموضوعات القرآنية يختص بالأحداث والظواهر الطبيعية، وتشكلات المادة الحية وغير الحية، فمنه ما يختص بنمو النبات وظهور ثمره، وتنوع ألوان الثمار ومذاقاته، ومنه تعاقب الليل والنهار وجريان الشمس والقمر، ودلائل ذلك على قدرة الخالق وإتقان صنعه، لكن الإشارات في هذا النوع من الموضوعات تستهدف تطوير منهج المشاهدة والتفكير في دالاتها الكمية والكيفية، فمنه ما يكون مناهج للعدد والحساب، ومنه ما يكون توظيفاً للظواهر وحسن استخدامها.

إنّ الوعي على هذا المحدد المنهجي (تمييز المجالات المختلفة لموضوعات القرآن الكريم) يستدعي تدريب القارئ للقرآن؛ لتمكينه من تطوير القدرة الفكرية على تمييز أنواع الموضوعات القرآنية، وتحديد منهج فهمها والتعامل معها، وربطها بحياته الشخصية والاجتماعية، وبالواقع البشري كله. وإنّ تعدّد المواقف التدريبية للفرد الواحد ولمجموعة الأفراد يوسّع آفاق هذه القدرة الفكرية، ويكون إنجاز المتدرب فيها اختباراً حقيقياً، وقياساً موقفياً لهذه القدرة الفكرية.

ونستطيع أن نفكر في عدد من المحددات المنهجية الأخرى التي تختص بمناهج التفكير، أو مناهج البحث، أو مناهج السلوك، التي تحدد مستوى البناء الفكري لفرد أو فئة أو مجتمع. فمثلاً من المحددات التي تختص بمناهج التفكير قدرة الفرد على استخدام أنواع محددة من التفكير، مثل: التفكير النقدي، والتفكير الإبداعي، والتفكير السنني... إلخ. فعندما يستمع الفرد إلى محاضرة معينة أو يقرأ كتاباً معيناً فكيف تكون الحالة الفكرية للفرد وهو يستمع أو يقرأ؟ هل يكفي بأن يكون متلقياً يجتهد في أن يتذكر المضامين الفكرية لما يقال وما يقرأ، ومن ثم يكون قادراً على تضمينها لما يقوله هو أو يكتبه؟ أم سوف يجتهد في الربط بين عناصر هذه المضامين التي يسمعها أو يقرأها؛ ليكتشف ما فيها من قوة أو جده، أو ما يعتمدها من نقص أو تناقض؟

وإذا كانت القدرة على التفكير النقدي واحدة من الخصائص المنشودة في الفرد الذي يدخل في برنامج للبناء الفكري، فإن علينا أن نبني أداة تقويمية تتضمن فقرات تكشف عن درجة امتلاك هذه القدرة؟ ومثل ذلك يقال عن الحاجة إلى مواقف تدريبية، ثم مواقف تقويمية في مجال التفكير الإبداعي، والتفكير السنني، والتفكير الكلي... إلخ.

ولو شئنا أن نقدم بعض المقترحات حول مقياس للقدرة الفكرية في جانبها المنهجي والموضوعي، فإنّ هذا المقياس يمكن أن يتكون من عدد من الأقسام:

القسم الأول: أشبه بقائمة رصد أنواع المصادر التي يتوقع من الشخص أن يكون قد قرأها، وعرف موضوع كل مصدر على وجه الإجمال، بحيث يعود إلى هذا المصدر عند الحاجة إليه. ويتوقع أن تشمل القائمة تنوعاً واسعاً لهذه المصادر، وتكاملاً في تغطية مجالات البناء الفكري المستهدف، مما وردت الإشارة إليه في بند عناصر البناء الفكري. وتتضمن القائمة كتباً في العلوم الإسلامية، ومشاريع أو مدارس فكرية، وأسماء شخصيات فكرية، وثقافة سياسية حول القضايا الرئيسة بمستوياتها المحلية، والإقليمية، والعالمية.

القسم الثاني: تقدير مدى الاستيعاب الإجمالي لخصائص المصادر الواردة في القائمة التي تكوّن القسم الأول. فإذا كان الشخص قد اطلع على مصدر محدد يتعلق بالمدارس الفكرية المعاصرة، فسيكون المطلوب في فقرة من فقرات المقياس أن يحدد الشخص (في حدود مائة كلمة مثلاً) أبرز خصائص هذه المدرسة، والشخصيات الفكرية التي تمثلها، وبم تختلف عن غيرها من المدارس.

القسم الثالث: تقدير قدرة الشخص على أداء أنواع من التفكير من خلال مواقف اختبارية محددة، وتكون فقرات هذا القسم شاملة لأبرز أنواع التفكير بما فيها القدرة على الفهم، والتحليل، والتركيب، والتقويم، ودرجة امتلاك التفكير في المآلات (التفكير المستقبلي)، وربط النتائج بأسبابها (التفكير السنني)، وربط العناصر المكونة للمجموع (التفكير التكاملي)، والقدرة على تمييز الحاجة إلى الرأي الآخر، والقدرة على التفكير بالأهداف (التفكير المقاصدي)... إلخ.

القسم الرابع: تحديد المجالات التي يشعر فيه الشخص بالحاجة إلى مزيد من الاطلاع والاهتمام. إن وعي الفرد على حاجته إلى ما ينقصه من عناصر البناء الفكري، يُعد مكوناً مهماً من مكونات البناء الفكري، بحيث تجذبه هذه الحاجة وتوجهه إلى توظيف ما يلزم من الوقت والجهد لاستكمال هذا النقص في بنائه الفكري ضمن خطة زمنية محددة.

خريطة مقترحة لصياغة فقرات مقياس البناء الفكري

- ١- ألفة بمفردات وعناوين وأسماء لفئات المصادر
 - أ- كتب في العلوم الإسلامية
 - ب- مصادر لمشاريع أو مدارس فكرية
 - ت- أسماء شخصيات فكرية
 - ث- ثقافة عامة عن مجريات الأحداث في الواقع
 - ج- ... إلخ
- ٢- معرفة بأبرز المضامين والخصائص الواردة أعلاه (في حدود مائة كلمة مثلاً)
 - أ- كتب
 - ب- شخصيات
 - ت- مؤسسات ومدارس فكرية
 - ث- وقائع وأحداث وقضايا معاصرة
- ٣- ممارسة التفكير
 - أ- في مستويات التفكير: الفهم، والتحليل، والتركيب، والتقويم،
 - ب- في أنواع التفكير: المستقبلي، والسني، والتكاملي، والمقاصدي...
- ٤- برنامج في النمو
 - أ- وعي على مواقع الحاجة إلى النمو في عناصر البناء الفكري

خامساً: خرائط تاريخ الأفكار

يُعنى التاريخ -كما هو معلوم- بدراسة الأحداث التي يمر بها الأفراد والمجتمعات في حقبة من الزمن، بالإضافة إلى دراسة الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والطبيعية وغيرها، ويمكن أن يصدق ذلك على دراسة الأفكار ذاتها بما فيها من قيم ومعتقدات، فأحداث التاريخ في أعماقها تعبير عن أفكار العظماء وحركتها في حياة الناس، وانتشارها لتعبر عن ذاتها في تلك الأزمان، من خلال تبلورها على شكل أحداث تساهم في رسم معالم العمران الحضاري في أزمانهم وأزمان من بعدهم.

تبقى الأفكار التي يراد الحديث عن تاريخها في هذا السياق، هي مجموعة الآراء والتصورات العامة التي بنتها عقول البشر عبر تتابع الأحداث، تعبيراً عن حقيقة من الحقائق، أو معنى من المعاني، مع ملاحظة تلبس هذه الأفكار بظروف نشأتها وعوامل تطورها. ولذلك نجد أن من المفيد الوقوف على التيارات الفكرية التي نشأت أو سادت في المراحل الزمنية المتلاحقة، لمعرفة نقاط الالتقاء أو التمايز بين أفكار هذه التيارات، وأثرها في التشكيل الثقافي والحضاري لواقع الأمة، في تلك المراحل الزمنية. وهذا ما يدرس عادة ضمن مبحث له أهمية خاصة بعنوان: علم تاريخ الأفكار.

تضمّن الفصل السابق عرضاً إجمالياً موجزاً لتطور ظهور المفكر وتميزه بالفكر، بعد اكتسابه لجملة من مضامين العلم والمعرفة، وفق مراحل متلاحقة، لكنّ الساحة التي ينتقل إليها المفكر -ساحة الفكر- تشكلت في التاريخ بصورة تدريجية، ربما تكون معاكسة لاتجاه الوصف السابق؛ ذلك أنّ الفكر الإنساني بدأ مجتمعاً لدى فئة قليلة من المفكرين المتميزين عن غيرهم من عامة الناس، وكانوا يُعرفون بالحكماء أو الفلاسفة؛ وكانوا يتصفون بقدر من الموسوعية المعرفية. لكن حركة النمو المتسارعة في حجم المعرفة اقتضت الميل إلى تخصص الفرد في حقول معرفية دون

أخرى، ثم استمر هذه الميل إلى التخصص حتى أصبح الفرد متخصصاً في فرع واحد أو في جزء من فرع واحد. وهكذا ظهرت التخصصات المتميزة، وبدأ يكثر العلماء المتخصصون، ولا يبقى في ساحة الفكر الموسوعي؛ ساحة الفلسفة والحكمة، إلا قليل من الأفراد.

بم نصف المضمون الفكري المحدد في الفقرة السابقة؟ إن هذا المضمون ليس مادة فلكية تصف الأجرام السماوية، ولا مادة طبية تصف طرق تشخيص الأمراض البشرية وعلاجها؛ إنه أقرب إلى التاريخ، لكنه ليس تاريخاً عاماً يشبه ما يدرس في التاريخ عن الشعوب أو البلدان؛ إنه تاريخ للفكر، أو تاريخ للثقافة، وربما يكون تاريخاً للعلم أو تاريخاً للأدب، أو تاريخاً للفلسفة. وبالفعل فقد تميز هذا التخصص تحت عنوان "تاريخ الأفكار"، وأصبح له برامج علمية متخصصة ضمن الدراسات الجامعية العليا.

وكما أن كل علم من العلوم يتم بناؤه من وحدات أولية، هي حقائق العلم ومفاهيمه وقوانينه ونظرياته، فإن "علم تاريخ الأفكار" يبني بناءً من وحدات أساسية، يسمونها الوحدات الفكرية، ووظيفة المتخصص في تاريخ الأفكار هي اكتشاف هذه الوحدات الفكرية وما يطرأ من ارتباط أو انفصال فيما بينها، مع ملاحظة أن الوحدات الفكرية تتصف بقدر من الثبات، إلى درجة تمكن الباحثين من استخدامها في صورة وحدات تحليل، في قيام وانهيار الثقافات والحضارات البشرية.^(١)

إنَّ دراسة تاريخ الأفكار يحمل افتراضاً يُعَلِّي من قيمة الأفكار، ويُبرز أثرها في التغيرات الكبرى التي تمر بها الشعوب والأمم، وهذه الأفكار التي لها قيمة

(١) مثال على الوحدة الفكرية: فكرة التطور العضوي أو نظرية داروين، وقد بدأ في صورة نظرية لتفسير نشوء الأنواع الحية، لكن الفكرة وجدت انتشاراً واسعاً في العلوم الأخرى، وهاجرت من موقعها في علم البيولوجيا، إلى علم الاجتماع وعلم السياسة، فعرفت الداروينية الاجتماعية والداروينية السياسية.

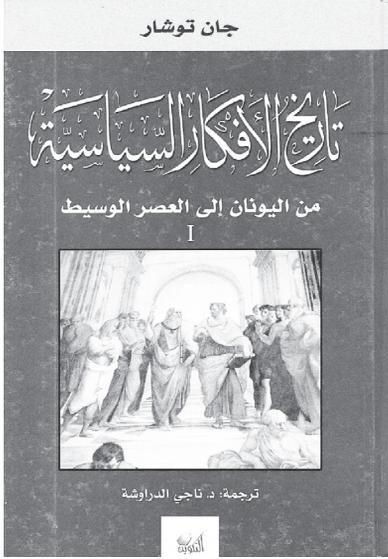
هي نتاج العقل الذي صاغ الفكرة وعبر عنها بصورة مقنعة ومؤثرة، ولاقت تجاوباً متزايداً من الأفراد والجماعات إيماناً بها ودفاعاً عنها، وتضحية من أجلها.^(١)

ومن المهم لكل صاحب اختصاص أن يتتبع تطور الأفكار في مجال اختصاصه، فحالة المعرفة في ذلك التخصص، ليست انبثاقاً فجائياً، وإنما تشكلت عبر أحداث متتابعة على مر القرون، وكانت هذه الأحداث أفكاراً تجسدت في صورة وقائع دَوَّنَها التاريخ. فالفكر السياسي في العالم مثلاً نشأ وتطور وحملته قيادات وشعوب وقامت حوله صراعات وحروب، وتحول إلى نظريات صاغتها عقول المفكرين والعلماء، ودونت في كتب وأثرت في قطاعات كثيرة من الأمم والشعوب، وربما لا يزال هذا الفكر السياسي يحكم عالم اليوم.

وللتمثيل على حقل السياسة نذكر موسوعة للأفكار السياسية صدرت في فرنسا، وأرّخت بقدر من التفصيل للأفكار السياسية في أوروبا من اليونان إلى القرن الثامن عشر. وما الأفكار السياسية المعاصرة إلا مراحل لاحقة لتطور تلك الأفكار. وقد تُرجمت هذه الموسوعة إلى العربية ونُشرت في ثلاثة مجلدات بعنوان تاريخ الأفكار السياسية.^(٢) ولبيان حجم تغطية الأفكار السياسية في الكتاب نعرض بإيجاز شديد لمحتوياته. فالمجلد الأول: تاريخ الأفكار

(١) عبد الله، عصام. علم تاريخ الأفكار، أبو ظبي: مركز زايد للتنسيق والمتابعة، ٢٠٠٢. وقرأ كذلك: - لفجوي، آرثر. سلسلة الوجود الكبرى: محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي، ترجمة: ماجد فخري، بيروت: دار الكتاب العربي ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. ١٩٦٤م.
- فوكو، ميشال. حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧.
- هيرمان، آرثر، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومي للترجمة)، ط ١، ٢٠٠٠م.
- جدعان، فهمي. أسس التقدم عند مفكري الإسلام، بيروت: دار الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط ٤، ١٩٨٨م.
- الزعبي، أنور. مسيرة المعرفة والمنهج في الفكر العربي الإسلامي، عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٧م.

(٢) توشار، جان، تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة: ناجي الدراوشة: دمشق: دار التكوين - ثلاثة مجلدات، ٢٠١٠م.



السياسية من اليونان إلى العصر الوسيط، ويتضمن تاريخاً لأفكار المدينة، والديمقراطية، والإمبراطورية، والحرية، والقانون، والأفكار المسيحية، والكنيسة، والإقطاع، والإصلاح الديني، وبداية تشكل مفهوم الأمة، وجذور العلمانية. والمجلد الثاني: تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار، ويتحدث عن الأفكار التي دارت حولها الصراعات السياسية في القرن السادس عشر، وقضايا الإصلاح الديني، وقضايا

الملكية، والسلطة المطلقة والثورة العلمية ونمو العقلانية والفردية، وجذور النسوية، والبرجوازية، ومفهوم الثورة والثورة المضادة وفلسفة الدولة. أما المجلد الثالث فيتحدث عن تاريخ الأفكار الليبرالية، والاشتراكية، والمادية الجدلية، والقومية والامبريالية، والفوضوية، والسلفية.

ويوضح الكتاب الفرق بين المذاهب السياسية والأفكار السياسية، فيعدُّ المذاهبَ منظوماتٍ فكرية، تركز على تحليل نظري للواقع، وتشكل من مجموع العقائد الدينية والفلسفية التي توجّه سلوك الإنسان وتتحكم في تفسيره للوقائع. أما الأفكار السياسية فتتضمن إعادة وضع المذاهب في سياق تاريخي وملاحظة نشأة المذهب وتتبع تطوره، وبيان ما الذي كان يمثله في حقبة نشأته وتطوره. فتاريخ المذهب جزء من تاريخ الأفكار، وتاريخ الأفكار لا ينفصل عن تاريخ المؤسسات وتاريخ المجتمعات وتاريخ الوقائع والمذاهب الاقتصادية، وتاريخ الفلسفة، وتاريخ الأديان، وتاريخ الآداب، وتاريخ التقنيات.^(١)

(١) المرجع السابق، ج ١، ص ٦

سادساً: خرائط الفكر الجغرافي، وجغرافية الفكر

ويختص الفكر الجغرافي بتفكير الإنسان في المكان والمحيط الذي يعيش فيه، وكيف كان عليه أن يسخره لتلبية متطلبات حياته، ولا شك في أن هذا التفكير بدأ مع الإنسان مع بدء حياته على الأرض. لكن مصطلح الفكر الجغرافي ينصرف إلى المعرفة التي اكتسبها الإنسان عن الأرض ودونها في صورة علوم، وهي علوم يعود تاريخها المعروف إلى أكثر من أربعة آلاف سنة.⁽¹⁾ ويشمل المصطلح كذلك الأفكار والنظريات الفلسفية التي تختص بتشكيل الأرض وظهور أشكال الحياة عليها. لكن الدراسات أخذت في القرن العشرين تعطي أهمية كبرى للحياة البشرية ومتطلباتها في الفضاء المكاني، أكثر من تفاصيل المكان نفسه، وظهرت مفاهيم محدودة الموارد على الأرض، وتزايدت دراسات الفقر وتعمق الوعي على التدمير، الذي أخذ يصيب البيئة الطبيعية مع الإسراف في استخدام الموارد وإنتاج الملوثات، واحتلت الظواهر الاجتماعية والاقتصادية لحياة الإنسان أولوية في الفكر الجغرافي، ودراسات البيئة الطبيعية.

وفيما يختص بالدراسات البيئية بالتحديد، بوصفها عنصراً مهماً في الفكر الجغرافي، فقد تركزت على البحث في العلاقة القائمة بين الإنسان والمكان والزمان، وتطورت قدرات الإنسان في استعمال الطبيعة المادية ومواردها المتاحة، واستطاع بمساعدة التكنولوجيا أن ينتقل في تعامله مع بيئة المكان وظواهره من مرحلة العوز والحاجة، إلى مراحل من الحرية التي صنع فيها فرصاً وإمكانات جديدة في التعامل مع الطبيعة. والدراسات البيئية تدرس هذه العلاقة التفاعلية والتكاملية، ينظر إليها في إحدى ثلاث طرق: الحتمية، والإمكانية، والبيئية، وأي من هذه الطرق يتم اختياره لدراسة العلاقة بين الإنسان والبيئة يعتمد على الإجابة عن أسئلة منها: هل البيئة تتحكم في نشاطات الإنسان، وهل إرادة الإنسان وحرية الظاهرة لاختيار بدائل الفعل هو عامل محدد لكيف

(1) Rana, Lalita. *Geographical Thought: A Systematic Record of Evolution*, New Delhi (India), Concept Publishing Company 2008, p.5.

وأين يعيش؟ وهل تكون العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة تبادلية؟ هذه الأسئلة ظهرت عبر الزمن، وسمحت بظهور ثلاث مدراس فكرية: الحتمية، والإمكانية، والبيئية، فالحتمية ترى أن البيئة أكثر قدرة من الإنسان على التحكم، والإمكانية تعطي الإنسان جميع القدرات على الاختيار، في حين أن الرؤية البيئية تعطي وزناً متكافئاً للإنسان والبيئة وتكون العلاقة تبادلية.⁽¹⁾

وإذا كان الفكر الجغرافي يدرس موضوعات علم الجغرافيا والفروع العديدة لهذا العلم، ومن هذه الموضوعات قضايا العلاقة التبادلية بين الإنسان والبيئة الجغرافية، فقد أخذت هذه العلاقة مذاهب شتى، وظهر فيها كثير من المفاهيم والمصطلحات، ومنها على وجه التحديد مصطلح جغرافية الفكر.

ليس المقصود بجغرافية الفكر ما ذهب إليه ابن خلدون في المقدمة، حين تحدث عن أقاليم الأرض السبعة، نقلاً عن كتاب "الجغرافيا" لبطليموس، وكتاب "رُجار" أو "نزهة المشتاق" للشريف الإدريسي، ثم أخذ يتحدث عن أثر الموقع الجغرافي لكل إقليم على سكانه من البشر، بسبب ما يتَّصف به من حر أو برد، وسهل أو جبل، وخضراء أو صحراء، أو قفر أو خصب. وعلى هذا الأساس حكم على الإقليم الرابع من عمران الكرة الأرضية بأنه أعدل العمران، وقريب منه الإقليم الثالث والإقليم الخامس، فسكان هذه الأقاليم المعتدلة "من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً... أما الأقاليم الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد عن الاعتدال في جميع أحوالهم، ... والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عَرَضُ أمزجتهم وأخلاقهم من عَرَضِ الحيوانات العُجْم، فجميع أحوالهم بعيدة عن أحوال الأناسيّ قريبة من أحوال البهائم." وحتى الأقاليم المعتدلة فإنه نظراً لاختلاف ما يوجد فيها من الخصب وأنواع المأكولات من نبات وحيوان، يختلف السكان كذلك، فمثلاً إن: "هؤلاء الفاقدن للحبوب والأدم من أهل الففار أحسن حالاً في جسومهم

(1) Ibid., pp. 386-387

وأخلاقهم من أهل التُّلُول المنغمسين في العيش: فألوانهم أصفى، وأبداهم أنقى، وأشكالهم أتمُّ وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقُب في المعارف والإدراكات.^(١)

وقريباً مما ذهب إليه ابن خلدون وربما أبعد منه، كان موقف الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥م) في كتابه "روح الشرائع" أو "روح القوانين"، حيث أسرف كثيراً في تقدير أثر البيئة الجغرافية على العمران البشري، واختلاف الشعوب في مستوى الحضارة والأخلاق والنظم السياسية والاجتماعية والشرائع والقوانين، والاختلاف في ميل الشعوب إلى تطوير الممارسات الديمقراطية، وتشريع قوانينها.^(٢)

سوف نتجاوز هذا اللون من المعالجة، إلى لون آخر أكثر حداثة يعالج التنوع والاختلاف في الأبنية الفكرية للشعوب والأمم في البيئات الجغرافية المختلفة، ليس بالضرورة نتيجة أثر جغرافية المكان وما تتضمنه من مناخ وتضاريس، وإنما نتيجة عوامل أخرى.

من ذلك ما تضمنه كتاب "جغرافية الفكر" المنشور عام ٢٠٠٢م،^(٣) ويتحدث عن الاختلاف في أنماط التفكير عند المجموعات البشرية التي تعيش في مناطق جغرافية مختلفة. والكتاب بحث عميق في علم نفس الثقافات أجراه المؤلف عبر سلسلة من الدراسات الدولية المقارنة، ووصل فيها إلى نتائج ربما تخالف ما كان مألوفاً عن الطبيعة البشرية، وفق الافتراضات التي انطلقت منها دراسات الذكاء في العالم الغربي، حيث كان يُظنُّ أنَّ البشر على اختلاف بيئاتهم الجغرافية وألوانهم وأديانهم يستخدمون أدوات التفكير والإدراك والتذكر نفسها.

(١) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص ٣٩٢-٤٠٤

(٢) مونتسكيو. روح الشرائع، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٣، ج ٢، ص ٢٩-٣٤

(3) Nisbett, Richard E. *The Geography of Thought: How Asians and Westerners think Differently and Why*, London: Nocholas Brealey Publishing, 2003.

وقد حاول المستعمرون الأوروبيون الذين سيطروا على مساحات شاسعة من العالم أن يستعمروا عقول الشعوب بعد استعمار أرضها، ووظفوا من أجل ذلك نتائج الدراسات النفسية والاجتماعية التي كان العلماء في أوروبا وأمريكا ينشغلون بها في نهاية القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، لا سيما فيما يختص بتطور القدرات العقلية البشرية ومقاييس الذكاء.

وقد سيطرت فكرة تشابه أنماط التفكير والسلوك العقلي بين البشر على بحوث المختبر الأول لعلم النفس الذي أنشأه وليم فونت في جامعة ليبزج عام ١٨٧٩م، وكان ينظر إلى أي اختلاف في السلوك العقلي على أنه شيء شاذ يمثل ظاهرة مرضية تحتاج إلى علاج. ولذلك فإن اختبارات الذكاء بدأت أساساً لتحديد ضعف العقول الذين يحتاجون إلى تدريب خاص.

وقد تأثرت أهداف دراسة الذكاء البشري ونتائج هذه الدراسات بعوامل متعددة لا علاقة لها بالعلم والمنهج العلمي والموضوعية، لا سيما عوامل التحيزات العرقية، والمصالح السياسية، والاعتبارات الدينية، والاتجاهات الفلسفية، حتى قيل: "إننا لا نجد حقلاً من حقول العلم امتلاً بخليط من التوجهات الانفعالية المربكة من العلم والسياسة والفلسفة كما نجده في موضوعات القياس النفسي." (١)

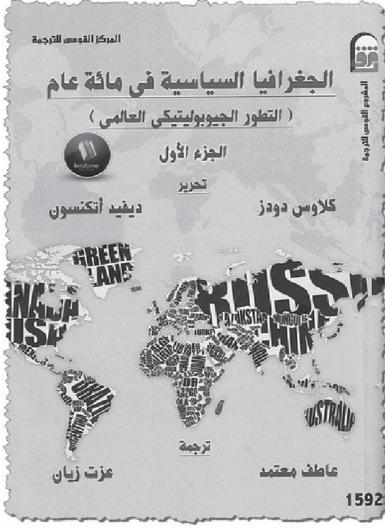
(1) Carroll, J. & Horn, J. On the Scientific Basis of Ability Testing. *American Psychologist*, 36, 1981, p. 1012.

ويمكن الاطلاع على مراجع أحدث حول سوء استعمال دراسات القياس النفسي واختبارات الذكاء في:

- Kaplan, Robert M. and Saccuzzo, Dennis P., *Psychological Testing: Principles, Applications, and Issues*, Cengage Learning; 8 edition, 2012, pp.531-567. See also:

- Samuda, Ronald J. *Psychological Testing of American Minorities: Issues and Consequences (Multicultural Aspects of Counseling And Psychotherapy)* SAGE Publications, Inc; 2 edition (January 21, 1998)

انظر على وجه الخصوص الفصل الرابع حول العوامل البيئية التي تؤثر على نتائج القياس ص ٧١-١٠٨، والفصل الخامس حول النتائج التربوية والاجتماعية للقياس النفسي ص ١١٠-١٤٠.



وتتوزع موضوعات جغرافية الفكر على فروع مختلفة من الجغرافيا البشرية، مثل الجغرافيا السياسية والجغرافيا الثقافية، فالجغرافيا السياسية مثلاً تختص بدراسة تأثير الجغرافيا [البيئة الجغرافية] في الأفكار والممارسات السياسية. ويذكر تاريخ هذا العلم أن أستاذاً جامعياً وقائداً عسكرياً ألمانياً هو هوسهوفر أنشأ معهد الجغرافيا السياسية "معهد الجيوبوليتيك" في ميونخ، وفق طابع

سري، وحشد فيه ألف عالم وفني وجاسوس، وقدم للزعيم الألماني "هتلر" من الأفكار والرسومات والخرائط والإحصاءات ما وجه تحركاته في الحرب، وربما سيطرت أفكار هذا المعهد على السياسة الخارجية لهتلر والنازية... وثمة من يرى أن الجغرافيين يتحملون مسؤولية كبيرة عن التفكير في نتائج المعارف الجيوبوليتيكية في الماضي والحاضر، والدراسات الحديثة في هذا المجال تركز على العلاقات بين الجغرافيا والدولة والجيش، وهؤلاء المتخصصون بالجغرافيا السياسية يرحبون بطبيعة الحال بالرعاية التي تقدمها الحكومات، وهم في المقابل يدعون أنهم يقدمون بعلمهم خدمة كبيرة للأمة.^(١)

وأما الجغرافيا الثقافية فهي تبحث في أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية. وثمة كتب ودراسات متخصصة في هذا الموضوع، ونكتفي بالتنويه بالكتاب الذي ألفه مايك كرانغ بعنوان "الجغرافيا الثقافية"، وقد ترجم إلى العربية ونشر ضمن سلسلة عالم المعرفة، وهو دراسة للكيفية "التي تعيش فيها

(١) دودز، كلاوس. وأتكسون، ديفيد. الجغرافيا السياسية في مائة عام: التطور الجيوبوليتيك العالمي، ترجمة: عاطف معتمد وعزت زيان، القاهرة: المركز القومي للترجمة، العدد ١٥٩٢، طبعة ١، ٢٠١٠م. ص ١٧-٢٢.



الثقافات المختلفة في الكرة الأرضية، فالجماعات المختلفة لا تتحدد باللباس المختلف والزخرفة وأساليب الحياة فحسب، وإنما توجه كذلك بنظرتها الاعتبارية إلى العالم، وأولوياتها، وأنظمة اعتقادها وطرقها المختلفة لفهم العالم، فالجغرافيا الثقافية تنظر إلى أشكال اختلاف الجماعات وثقافتهم المادية، وكذا الأفكار التي تجمع بينهم وتجعلهم متماسكين. هذا يعني أن هذا الكتاب لن

ينظر إلى كيفية انتشار الثقافات في الفضاء فحسب، ولكن أيضاً إلى كيفية فهم هذه الثقافات للفضاء. سنقتفي -إذن- أثر الأفكار والممارسات والأشياء التي تشكل معاً الثقافات، وبالتالي تشكل الهويات التي من خلالها يتعرف الناس على أنفسهم وعلى الآخرين.^(١)

ومن المهم أن نتذكر في هذا الشأن مفهوماً مركزياً في الدراسات الفلسفية والإعلامية والدينية هو مفهوم رؤية العالم Worldview، وكيف أن هذه الرؤية للعالم تختلف باختلاف البيئات الثقافية والمستوى الحضاري، وأنماط التفكير السائدة في المجتمع، لا سيما أنماط التفكير الديني.

والمقصود برؤية العالم تلك الصورة العقلية الكلية، أو الفكرة الكلية، التي يكونها الإنسان لنفسه عن نفسه وعن العالم من حوله، وفق الموقع الفكري الذي يحاول منه الرؤية، وزاوية النظر التي يتخذها، والبيئة الطبيعية والنفسية والاجتماعية المحيطة، والنظام الفكري الذي ينطلق منه بمكوناته اللغوية وأطره

(١) كرايغ، مايك. الجغرافيا الثقافية: أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية، ترجمة: سعيد منتاق، سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١٧، يوليو ٢٠٠٥م. ص ٨

المرجعية... هذه الصورة الكلية هي التي تعرّفنا بالإنسان، عندما ننظر إليه من الخارج، وتعرّفه هو بنفسه وبالأشياء من حوله.

ورؤية العالم تصف الفرد الإنساني، وتمثل حالة من الوعي الكلي للفرد بذاته والبيئة التي يعيش فيها هذا الفرد، كما تصف حالة الوعي لجماعة من الأفراد يشتركون في هذه الرؤية، وربما تصف حالة أمة بكاملها عندما يشترك أغلب أفرادها وجماعاتها بعناصر مشتركة من رؤية العالم. وكثيراً من نُظر إلى التاريخ البشري منذ أيامه الأولى على أنه تفاعل أو صدام بين الطرق المختلفة في الوعي، فهو صدام بين الناس حول المبادئ التي يؤمنون بها والأفكار الأساسية التي يحملونها؛ ذلك أنّ للأفكار نتائجها، ومع ذلك فإن ثمة مستوى عميقاً من إدراك الحقيقة يجب النظر إليه عند محاولة فهم الاختلاف الفكري الذي يقع في القلب من قصة الإنسان على هذه الأرض؛ ففي الوعي الديني مثلاً يحتل الصدام بين رؤى العالم موقعاً مهماً في المعركة الروحية الخفية بين الحق والباطل، بين طاعة الله وطاعة الشيطان، وهي معركة تدور رحاها في عقول الناس وقلوبهم، ومن ثم في حياتهم ومصيرهم، منذ بدء الوجود البشري.

ومن هذه الناحية ليس ثمة ما هو أكثر أهمية من الطريقة التي يفكر فيها الإنسان بخالقه، ونفسه، والكون الذي يعيش فيه، وموقعه فيه.

وهكذا، فإنّ موضوع رؤية العالم هو فصل في تاريخ الأفكار، والتوجهات الإيديولوجية المتعددة مثل التوحيد، والوثنية، والطبيعية، والربوبية، ووحدة الوجود.

ومن الواضح أن الدلالات التي يشير إليها مصطلح "رؤية العالم" تتداخل بشدة مع المعتقدات الفلسفية، والدينية. فالمصطلحات الدينية مثل: الإيمان والعقيدة والتصور الكلي تعبر عن مجموعة الأفكار والمفاهيم والمعتقدات التي تحجب عن الأسئلة الوجودية الكبرى التي يحاول مصطلح رؤية العالم التعرض لها. وربما تكون المراجع الرئيسة التي نتحدث عن رؤية العالم صادرة في معظمها عن مؤسسات دينية أو كتبت لأغراض

التعليم الديني. ولعل أهم الكتب الحديثة في هذا السياق الكتاب الذي ألفه ديفيد نوجل،^(١) وهو أستاذ الفلسفة في جامعة دالاس المعمدانية في مدينة دالاس، بولاية تكساس الأمريكية، وهو كتاب شامل في موضوع رؤية العالم أو الرؤية الكونية، استعرض فيه تاريخ المفهوم وتطوره منذ مراحل مبكرة في الفكر الفلسفي والديني، ولاحظ أن هذا المفهوم قد احتل في العقود الثلاثة الأخيرة موقعاً مهماً في التعبير عن الكيفية التي يفهم فيها المسيحيون العالم. ولم يقتصر جهد المؤلف على التبع التاريخي لجذور المفهوم، بل اشتمل على تطوره حتى أصبح يستعمل على نطاق واسع في الخطاب الفكري لعدد من العلوم المعاصرة، وبخاصة التاريخ والفلسفة واللاهوت. وقد بذل المؤلف جهداً كبيراً في تخليص مفهوم رؤية العالم من الدلالات النسبية التي حملها الفكر الفلسفي والعلمي الحديثي، بعد هجرته إلى دائرة الخطاب الديني المسيحي.^(٢)

وفي كتاب يمتلىء بالحماس الديني المسيحي حدد رونالد ناش ثلاث رؤى للعالم معروفة في عالم اليوم، وبخاصة ما يسود في الغرب، هي المسيحية، والمادية الطبيعية، وحركة العصر الجديد.^(٣) ومع أن رؤية العالم المسيحية في

(1) Naugle, David K. *WorldView: The History of A Concept*, Grand Rapids, MI: William Eerdmans, 2002.

(2) Ibid., 289–290.

(3) Nash, Ronald. *Worldviews in Conflict: Choosing Christianity in a World of Ideas*. Grand Rapids, MI: Zondervan Publishing House, 1992.

ورغم أن المؤلف حدد معايير معينة لإثبات صحة معتقدات رؤية العالم المسيحية ونقض مقولات رؤى العالم الأخرى، إلا أنه اعترف بأنه عانى صعوبة كبيرة في كتابة أحد فصول الكتاب المتعلقة بأن الإيمان المسيحي يتناقض منطقياً لإصراره على أن المسيح (عليه السلام) هو إله كامل وإنسان كامل في الوقت نفسه. فقد مثلت هذه القضية تحدياً معقداً لم يكن من السهل عليه معالجته ببساطة ومسؤولية في آن واحد. ومع ذلك فإنه ينصح القارئ بأن يقفز عن هذا الموضوع الذي عالجه في الفصل الخامس من الكتاب "لأن الفرد يستطيع أن يعيش حياة غنية وكاملة وسعيدة دون فهم أية قضية من قضايا هذا الفصل." (ص ١١)

رأي المؤلف هي التي يتوقع أن تسود الولايات المتحدة الأمريكية فإنها تواجه تحدياً كبيراً من رؤية العالم الطبيعية التي كانت أساس الرؤية الماركسية التي سادت لدى قطاعات كبيرة من الناس معظم القرن العشرين، أما التحدي الآخر فهو ما تمثله رؤية العهد الجديد التي لا تتناقض مع الرؤية الطبيعية فحسب، وإنما تتناقض أيضاً مع كل ما يؤمن به المسيحيون. ويخشى المؤلف أن تملأ هذه الحركة الفراغ الذي خلفته الماركسية في العالم. ولذلك فإنه يدعو إلى رفع مستوى وعي الذات حول رؤى العالم بوصف ذلك جزءاً أساسياً من النضج الفكري، وبخاصة وأنه "على قناعة بأن قليلاً من الأمريكيين قد تعلموا كيف يفكرون برؤية العالم، ولا يدركون محتوى رؤية العالم التي يمتلكونها حتى لو كانت حياتهم تعتمد عليها."⁽¹⁾

ومع أن طريقة المؤلف في عرض أفكاره في الكتاب تمتلئ بالحماسة وتستخدم مفردات الصراع في ميدان المعركة، باعتبار أن "رؤية العالم المسيحية هي وسيلة الانتصار في معركة عالم الأفكار"، فإنه يؤكد بأن التفكير في موضوع الدين بطريقة أخلاقية وروحية لا يكفي، ويلزم التزود بالبنية الفكرية اللازمة للانتصار في هذه المعركة: "لأن كثيراً من قضايا التدين تعرض على أنها معارك يعيشها الإنسان ولا يرغب في أن يخسر فيها، ولذلك سيكون من المفيد له أن يعد نفسه لأداء أكثر فاعلية في عالم الأفكار..."⁽²⁾

سابعاً: ضوابط قبول الأفكار

إذا كان الفكر صفة للإنسان منذ خلقه الله سبحانه وجعله خليفة في الأرض، وزوّده بالقدرة على اكتساب الوعي بالذات وبالمحيط الخارجي، وبالحرية في الاستقامة أو الانحراف، وكانت مسؤولية الإنسان أمام الله يوم الحساب مسؤولية فردية، فإنه كان من الطبيعي أن تختلف قدرات الإنسان على الفهم والإدراك، وتختلف مواقفه في الطاعة والمعصية. وقد بدأ ظهور هذا الاختلاف من الأيام

(1) Ibid., p. 9.

(2) Ibid., p. 10.

الأولى للحياة البشرية، حين تقبل الله قربان واحد من ابني آدم، ولم يتقبل من الآخر، فكان الله عز وجل هو الحكم في ما يُقبل وما لا يُقبل؛ لأنه سبحانه أعلم بدخائل القلوب وخواطر العقول، وإنما يتقبل الله من المتقين. ونستطيع أن نتخيل أن الأفكار التي خالجت ابن آدم التقي هي الحرص على رضا الله سبحانه، وتقديم القربان عن طيب نفس، بينما كانت الأفكار التي خالجت أخاه، ابن آدم الآخر، هي البخل، والحسد، وقلة التقوى. يقول ابن عاشور في التعقيب على قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ "وقوله في الجواب ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ موعظةٌ وتعريضٌ وتنصلٌ مما يوجب قتله. يقول: القبول فعل الله لا فعل غيره، وهو يتقبل من المتقي لا من غيره، يعرضُ به أنه ليس بتقي، ولذلك لم يتقبل الله منه. وآية ذلك أنه يضمّر قتل النفس. ولذا فلا ذنب لمن تقبل الله قربانه يستوجب القتل... ويحتمل أن يراد بالمتقين المخلصون في العمل، فيكون عدم القبول أمانة على عدم الإخلاص..."^(١)

أما بين البشر فإن النبي ﷺ في حياته مع الناس هو الحجة في قبول الأفكار المختصة بالتشريع الإلهي في العقائد والعبادات. ولكن النبي ﷺ يمكن أن يراجع رأيه ويقبل فكرة من أفكار أصحابه في مسألة تتعلق بالخبرة في أمور الحياة. فالنبي محمد ﷺ مكلف بالتشاور مع أصحابه: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد قبل فكرة من سلمان الفارسي ؓ، في حفر الخندق حول المدينة، وقبل فكرة من الحباب بن منذر ؓ، في اختيار الموقع في معركة بدر.

وتفاوتت معايير قبول الأفكار وضوابطها بين الناس تفاوتاً كبيراً. وقد عرف الاختلاف في الأفكار في الفرق والمذاهب الدينية والدينية. وما كان خروج الخوراج على علي ؓ إلا لأفكار واجتهادات حول عدد من مسائل

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون، ١٩٩٧م، ج ٦، ص ١٦٩-١٧٠.

الحرب التي دارت بين طائفتين من المسلمين. وما كان تشيُّع الشيعة إلا لاختلافهم مع غيرهم من المسلمين حول فكرة سياسية تتعلق بالإمامة. وما كان اختلاف المذاهب الفقهية إلا اختلافاً في الاجتهاد الفكري في بعض فروع الفقه ومبادئ استنباط أحكامها.

فأتباع فرقة معينة لا يرون حق الانتساب إليها إلا لمن يوافق سائر أفرادها في أفكار الفرقة، وتنسجم أفكاره مع أفكارها، ويتوحد مع أتباعها، ويتميز معهم عن غيرهم من أتباع الفرق الأخرى، ومعيار قبول أية فكرة جديدة هو مدى انسجامها مع أفكار الفرقة. وكذلك الأمر مع الطائفة والحزب، وربما المؤسسة والجمعية. ومع ذلك فإن مبدأ حرية التفكير الذي يعدُّ من حقوق الإنسان في العالم المعاصر، قد بدأ يأخذ طريقه إلى بعض الطوائف والجماعات والأحزاب، فيأتي العضو في الحزب مثلاً بأفكار جديدة ربما تخالف الأفكار السائدة، التي يتبناها الحزب ويتوقع من كل فرد أن يتبناها، فيدور حوار أو جدل أو مناقشة حول هذه الأفكار الجديدة، وقد تقبل هذه الأفكار ويحصل تطور في أفكار الحزب، وقد لا تقبل، ولكن صاحب الأفكار الجديدة يلتزم بما يتم الاتفاق عليه، انطلاقاً من مبدأ الديمقراطية ورأي الأغلبية، وقد يصر على أفكاره ويترك الحزب.

وعلى صعيد الفكر الإسلامي، فإن ثمة مبادئ كلية يجتمع على قبولها وتبنيها كثير من الناس، من مختلف فئات المجتمع، وتمثل هذه المبادئ الكلية مرجعية لقبول الأفكار أو رفضها. فأركان الإسلام وأركان الإيمان مما تجمع عليه غالبية فئات الأمة. لكننا نجد اختلافاً في تفسير بعض النصوص القرآنية، وتسمح ظنيّة الدلالة في معاني كثير من الآيات، باختلاف الاجتهاد في دلالة هذه النصوص. كما نجد اختلافاً في الأفكار المستمدة من بعض الأحاديث النبوية الشريفة، حتى الصحيحة منها، نتيجة للاختلاف في فهم الواقع، وتنزيل دلالة النص على هذا الواقع، أو انطلاقاً من الاختلاف في حجية السنة النبوية في بعض مجالات التطبيق العملي.

وسوف نجد أن بعض الناس لا يقبلون الفكرة الجيدة عندما تأتي من فرد معين أو جهة معينة؛ لأن ذلك الفرد لم يُعرف عنه الاتساق بين سلامة الفكر وسلامة السلوك، أو لأن تلك الجهة اعتادت أن تتخذ مواقف لا تتسق مع ما هو مقبول عند أولئك الناس. ويكفي أن يُعرف عن مفكر معين يقدم أفكاراً عن الإسلام أنه ينتمي إلى تيار فكري غير إسلامي، أو أنه لا يلتزم بالسلوك الإسلامي في مسائل الحلال والحرام، أن تُرفض أفكاره، حتى لو كانت أفكاراً جيدة، وشعاراً "كلمة حق يراد بها باطل"، واحدٌ من الشعارات التي توظف في هذا المجال.

وعند الحديث عن ضوابط قبول الأفكار، يأتي موضوع الحرية الفكرية وضوابطها وحدودها. وهو موضوع طال حوله الجدل. فثمة نصوص وردت المواثيق الدولية تعد الحرية الفكرية حقاً من حقوق الإنسان، وثمة قيود وضوابط جعلتها هذه المواثيق الدولية حدوداً لهذه الحرية، وثمة اجتهادات صاغتها منظمة المؤتمر الإسلامي تعبيراً عن موقف الدول الإسلامية، وثمة دراسات وإعلانات صدرت عن مؤتمرات أو وردت في كتب ودراسات تناقش مسألة الحرية الفكرية من المنظور الإسلامي، وتقرن ما يروونه رؤية إسلامية وما حددته المواثيق الدولية.

وواقع الأمر أنه ليست هناك حرية مطلقة لا حدود لها. لا على المستوى النظري الفلسفي، ولا على المستوى التشريعي القانوني، ولا على المستوى العملي التطبيقي. لكن موضوع حرية التفكير يختلط غالباً بأنواع أخرى من الحريات، منها حرية الاعتقاد، وحرية التعبير.

ففي الرؤية الإسلامية تعد حرية التفكير فريضة واجبة، وعبادة مشروعة، وليست مجرد حق قانوني أو اجتماعي. فالتفكير في أصول الاعتقاد في الإسلام من توحيد ونبوة ومعاد أساس لقبول الإيمان. ولا بأس في حصول شيء من الشك والوسوسة والشبه، نتيجة هذا التفكير، فثمة طرق لمعالجة ذلك، ولا بأس حتى في التعبير عن الوسواس، ونقلها إلى من يمكن أن يعين في المعالجة، كما

كان يحصل مع الصحابة رضوان الله عليهم، فيأتون إلى النبي ﷺ، فلا يستنكر منهم ذلك، بل يرشد إلى معالجته.

لكنَّ هذا الحق يتجاوز حدوده الطبيعية والتشريعية عندما يصبح الشك والبحث عن الشبهات حالة مَرَضِيَّة يسعى الإنسان إلى أن يتصف بها عن وعي وإدراك، وكثير من حالات الكفر يقع بها الإنسان ليس عجزاً في التفكير للوصول إلى الحق، وإنما يكون الكفر بغياً، بعد أن يتبين له وجه الحق، وظهور البينة والبرهان. مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿وَأَيَّتُهُمْ بِئَنَتِ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجنائية: ١٧]. فمثل هؤلاء تكون حياتهم حيرة والتباساً واختلاطاً، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

وقد تقود حرية التفكير إلى الكفر بالإسلام، واختيار دين آخر. ولا يزال الجدل قائماً حول حكم الردة في الحالات المختلفة، فإذا لم يعلن المرتد عن رده، فهل لأحد غير الله عليه من سبيل؟ وهل كلف أحد بالشق عن قلوب الناس لمعرفة ما يعتقدون؟ أما ذلك الذي يعلن الردة، هل يعد ذلك من باب حرية التفكير التي تقود إلى حرية الاعتقاد؟ وهل ثمة فرق في الحكم بين من يعلن الردة ولكنه يبقى في المجتمع مسالماً، وذلك الذي يرتد ويدعو إلى الردة بصورة ربما تقود إلى الفتنة، ومن يرتد وينتقل إلى معسكر الأعداء ليحارب المسلمين؟

وإذا كان الميثاق الدولي للحقوق المدنية والسياسية لعام ١٩٦٦ قد أخضع حرية التعبير لقيود ضرورية منها احترام حقوق الآخرين وسمعتهم، وحماية الأمن القومي، أو النظام العام، أو الصحة العامة، أو الآداب العامة، فهل يمكن أن نخضع حرية التعبير عن الاعتقاد بالإعلان عن الردة، لهذه القيود؟

لا نود أن ندخل في هذا المقام بتفاصيل الإجابة من مثل هذه الأسئلة، نكتفي بالإشارة إلى أن لموضوع الحريات الفكرية من التفاصيل والآراء

المتعددة، ما يمكن أن يكشف عن مذاهب في الفكر، تختلف عما ألفناه من مقررات فقهية، كانت نتيجة التفكير في الحكم على مسائل لها خصوصيات الزمان والمكان، وكثير من المسائل المثارة اليوم لها كذلك خصوصياتها المتجددة. ولكن الضابط الأكبر في معالجة مسائل الحريات الفكرية، ليس الأحكام الفقهية الجزئية التي تأتي من باب الفتاوى، وإنما الضابط الأكبر هو ما يقتضيه تحقيق المقاصد العامة للشريعة الإسلامية في حق الفرد وحق الأمة وحق الإنسانية.^(١)

خاتمة:

بعد أن تعرفنا في الفصول الثلاثة الأولى إلى مفهوم الفكر وتطوره، وإلى مستويات البناء الفكري، وإلى البناء الفكري للمجتمع والأمة، جاء هذا الفصل ليقرب من الحديث عن كيفية البناء الفكري، وعند هذه المرحلة وجدنا أن من المناسب أن نتناول هذه الكيفية من خلال الإجابة عن سبعة أسئلة هي:

- إلى أين نتوجه في سعينا لتحقيق البناء الفكري (المصادر)؟
- ما هي مواد البناء الفكري وموضوعاته (المحتويات)؟
- كيف نقوم بعملية البناء الفكري (الأدوات)؟
- كيف نتأكد من أن حققنا أهدافنا في البناء الفكري (التقويم)؟
- أين يقع تاريخ الأفكار في فهمنا لعالم الأفكار المعاصر؟
- كيف تتوزع المستويات الفكرية على المكان وما يختص به من جغرافيا طبيعية وبشرية؟
- ما ضوابط قبول الأفكار؟

(١) البحوث والمؤتمرات والندوات التي أنجزت في مجال الحريات الفكرية كثيرة، نكتفي بالإشارة إلى واحدة منها، وهي:

- عطية، جمال الدين. ضوابط الحريات الفكرية، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩٩ السنة الخامسة والعشرون، يناير-مارس ٢٠٠١م، ص ١٦٧-١٩٦.

وقد تطلبت الإجابة عن كل سؤال منها ملاحظة التعدد والتنوع، في كل من المصادر، والموضوعات، والأدوات، والزمان، والمكان. وهذا التعدد والتنوع يوفر فرصة للتكامل والتوازن، وبناء رؤية توحيدية، نحرص على أن تتصف بها الشخصية الإسلامية المنشودة. كما تطلبت تلك الإجابة ملاحظة الاختلاف في المستويات والمواقع والعلاقات بين تلك العناصر. وهذا قادنا إلى عرض فكرة الخرائط الفكرية. وقد أوضحنا بإيجاز فكرة الخريطة الفكرية وفائدتها في استجماع العناصر الأساس في مصادر البناء الفكري، وموضوعاته، وأدواته، واختباره، وزمانه ومكانه.

وكما ميزنا في فصول سابقة بين العلم والثقافة والفكر، فقد أكدنا في هذا الفصل ضرورة التمييز بين مصادر كل من هذه المفاهيم الثلاثة، ليتمكن الإنسان الذي يسعى لإقامة بنائه الفكري على قواعد سليمة أن يستمد ما يلزمه من المصادر المناسبة. وفي الموضوعات ميزنا بين موضوعات بناء الأمة، التي تكون عناصر الهوية والانتماء، وموضوعات بناء الرؤية اللازمة للتغير والنهوض الحضاري، وموضوعات بناء القدرة على التعامل مع القضايا المثارة والمتجددة. أما في الأدوات والوسائل فقد أكدنا أهمية التوسل بما هو متاح من الأدوات المعاصرة التي توصل فكر المفكر إلى الآخرين ليكون لفكره أثر فاعل، بما في ذلك صحبة العلماء والمفكرين والمصلحين والتلميذ عليهم.

ولعل خريطة بناء مقياس لتقويم البناء الفكري هي أكثر عناصر البناء الفكري وضوحاً، مع أنها أصعبها عملاً وتطبيقاً؛ إذ تحتاج إلى توظيف موضوعات اختصاص علمي، هو القياس والتقويم الذي يطبق على نطاق واسع في القياس النفسي والتربوي، وقلما وُظف في بناء أدوات تقويم في البناء الفكري بمرجعية دينية إسلامية. وهو ميدان لا ينبغي أن يبقى خالياً من الخبرات والكفاءات. والحاجة ملحة في حشد الكفاءات اللازمة لتنظيم حلقات دراسية ودورات تدريبية متخصصة في بناء الاختبارات والمقاييس التي تتصف بالصدق والثبات والموضوعية، في مجال قياس البناء الفكري وعناصره.

وقد وقف الفصل على أهمية التاريخ والجغرافيا في تشكُّل الأفكار، فهما كما يرى كثير من الباحثين من أقدم العلوم، فالجغرافيا وجدت مع وجود الإنسان نفسه، الذي حاول التعرف على طبيعة المكان الذي يعيش فيه، وطبيعة الظواهر التي كان يشاهدها، ثم بدأ بعد ذلك يبحث عن تفسير لهذه الظواهر، فكانت تفسيراته الأولى بدائية، ثم لجأ فيما بعد إلى استخدام أساليب أخرى، ثم وصل إلى ما يعرف بالمنهج العلمي في البحث، فظهرت نتيجة ذلك بدايات ما يمكن تسميته بالأفكار العلمية، ثم أصبحت الجغرافيا علماً مستقلاً يربط بين العلوم الطبيعية والاجتماعية.

من هنا عد بعض الباحثين الجغرافيا والتاريخ من أهم العلوم التي ساهمت في توطيد العلاقة بين أنواع العلوم الأخرى، على تعدد أنماطها وأشكالها، ولقد كان تاريخ الفكر، أو الثقافة من بين هذه العلوم التي أرست قواعد أحداث التاريخ وتأثيرات البيئة الجغرافية على مر الزمان والمكان. ذلك أن علم تاريخ الأفكار يُبنى بناءً من وحدات أساسية، يسمونها الوحدات الفكرية، تتصف بقدر من الثبات، إلى درجة تمكن الباحثين من استخدامها في صورة وحدات تحليل، في قيام وانهيار الثقافات والحضارات البشرية.

وقد تبين من خلال هذا الفصل أن الفكر الجغرافي يختص بتفكير الإنسان في المكان والمحيط الذي يعيش فيه، وأن التفكير بدأ مع الإنسان مع بدء حياته على الأرض، وتتوزع موضوعات جغرافية الفكر على فروع مختلفة من الجغرافيا البشرية، مثل الجغرافيا السياسية التي تختص بدراسة تأثير الجغرافيا على الممارسات السياسية، والجغرافيا الثقافية التي تبحث في أهمية الجغرافيا في تفسير التنوعات الثقافية بين المجتمعات.

الفصل الخامس

الفكر واللغة

مقدمة

أولاً: البعد التاريخي لعلاقة الفكر واللغة

ثانياً: البيان بين الفكر واللغة

ثالثاً: نظريات العلاقة بين الفكر واللغة

رابعاً: الفكر والترقي في المهارات اللغوية

خامساً: العبث الفكري واللغوي

سادساً: الكلام وحديث النفس

سابعاً: الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية وأثرهما في الفكر

والثقافة والهوية

خاتمة

الفكر واللغة

مقدمة:

إنَّ كاتب هذه السطور يكتبها بعد أن فكَّر في أهمية تضمين بحثه شيئاً عن العلاقة بين التفكير واللغة، وفكَّر في أن يكون حجم المادة المكتوبة لا يزيد عن عُشر حجم البحث كلّه، وفكَّر في أنَّ أدبيات علم النفس مصدر أساسي في الحديث عن هذه العلاقة... إلخ. وعندما كتب عناصر هذه المادة فكَّر في جعلها متسلسلة: تبدأ بمقدمة مناسبة، وتنتقل إلى جسم المادة الأساسي الذي يتكون من عدد من العناوين الفرعية، وتنتهي بخاتمة مناسبة. وربما تذكَّر موضوعاً استمع إليه من إحدى الإذاعات وهو في سيارته، وربما قرأ مرجعاً من مكتبته في الموضوع، وربما تحدَّث مع أحد زملائه عن أهمية الموضوع، وربما تصفَّح بعض المواقع الإلكترونية ليقراً بعض ما قد تحويه عن العلاقة بين التفكير واللغة، وما هو الآن يكتب ما استطاع جمعه وتنظيمه من أفكار في الموضوع.

إنَّ الاستماع، والكلام، والقراءة، والكتابة، هي مهارات اللغة الأربع، فهل يمكننا أن نتخيل كاتباً كتب شيئاً عن الفكر، دون أن يفكر فيه؛ أي دون أن يمرَّ تفكيره في واحدة أو أكثر من مهارات اللغة المشار إليها؟

ويرتب اللغويون هذه المهارات الأربع بالترتيب المشار إليه من حيث بناء هذه المهارات وتطورها عند الإنسان، في بنائه لجهازه اللغوي، والفكري. ولا خلاف على أن الاستماع والقراءة وسيلتان لتطوير البنية الفكرية عند الإنسان، لكننا لا نعرف عن وجود هذه البنية إلا عندما يتحدث الإنسان أو عندما يكتب. ولكن السمع كما يقول ابن خلدون: "أبو الملكات اللسانية"^(١). ولذلك فقد تقدم

(١) ابن خلدون. مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ج٣، ص ١١٢٩.

ذكر السمع على البصر في القرآن الكريم في معظم الآيات التي تجمع بينهما.
ومع الاتفاق على أن اللغة هي القالب الذي ينصب فيه الفكر، والفكر هو
المضمون الذي يحتويه ذلك القالب اللغوي، وأنّ المضمون يأخذ شكل القالب
ويتحدد بحدوده؛ في وضوحه وجودته، أو غموضه ورداءته، مع ذلك فإنّ مما
لا شك فيه أن علاقة اللغة بالفكر علاقة تبادلية وتكاملية؛ تبادلية من حيث إنّ
أحدهما يؤثر في الآخر، وتكاملية من حيث إنّ أحدهما يحتاج إلى الآخر،
فمقدار غنى أحدهما يكون إغناء الآخر، وكل منهما يسهم في إغناء الآخر.
فاللغة تخدم الفكر حين تعين الإنسان على التعبير عن فكره وإخراجه إلى حيز
الوجود اللغوي، فتصبح الفكرة موضوعاً للتواصل. وفي الوقت نفسه يخدم
الفكر اللغة حين يعينها على اختيار اللفظ الأكثر دقة وتعبيراً على المعنى، ويغني
اللغة بالمعاني والدلالات التي تحتاج إلى ألفاظ ومصطلحات جديدة، فالفكر
يصنع اللغة، ويصنع نفسه بها.

وقد قلنا من قبل إنّ الفكر فعلٌ وإنّ البناء فعل، والآن نقول: إنّ اللغة فعل،
والفاعل فيها هو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاح أبنائها. وقد عبر ابن
خلدون عن هذه الحقيقة بقوله: "اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم
عن مقصوده، وتلك العبارة هي فعلٌ لسانيّ ناشئة عن القصد لإفادة الكلام، فلا
بد أن تصير ملكةً متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة
بحسب اصطلاحهم." (١)

وسوف نتناول في هذا الفصل نبذة موجزة من تاريخ الاهتمام بالعلاقة
بين الفكر واللغة، ونظريات العلاقة بينهما، والعلاقة التبادلية والتكاملية
بينهما، وموضوع البيان، وموضوع الفكر والكلام النفسي، وأخيراً الأزواجية
والثنائية اللغوية وأثرها في الفكر والثقافة والهوية. ولا نهدف من ذلك
إلى استقصاء العلاقة في هذه الموضوعات من جوانبها المتعددة، وإنّما

(١) المرجع السابق، ص ١١٢٨.

الهدف من ذلك هو التأكيد على أن البناء الفكري يرتبط بالنمو اللغوي والملكة اللغوية ارتباطاً وثيقاً، وأن هذا الارتباط كان موضوعاً للبحث والنظر منذ عصور قديمة ولا يزال كذلك، وأن الموضوع يرتبط بثقافة كل مجتمع وهويته المميّزة له..

أولاً: البعد التاريخي لعلاقة الفكر واللغة

يبدو أن الاهتمام بعلاقة الفكر واللغة يعود إلى عهود سحيقة من تاريخ البشرية، فإذا أخذنا بالمصادر الدينية، يكفينا أن نتفكر فيما ورد في القرآن الكريم، الذي يشير إلى هذه العلاقة بصورة مباشرة في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. وإذا كان الله سبحانه قد ذكر حقيقة خلق الإنسان، وأتبعه مباشرة بحقيقة تعليمه البيان، في آيتين متتاليتين: ﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ - ٤] فإنه سبحانه قد ربط اللسان بالبيان في آية واحدة، هي قوله جلّ جلاله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

أما في المدونات البشرية للتاريخ، فإن ثمة نصوصاً مهمة ترجع إلى عهد سقراط وأرسطو، ومن جاء بعدهما من فلاسفة اليونان والرومان. ولا يعيننا في هذا المقام الدخول في تفاصيل ذلك، والمراجع في هذا الشأن متوفرة لمن يريد. وقد تضمنت المحاورات والمجادلات التي جرت بين فلاسفة الإغريق قضايا بقيت عالقة في تاريخ العلوم عبر الأزمان المختلفة، ولا تزال موضوعات للمناقشة والجدل حتى هذا الوقت. مثل الأسئلة التقليدية الثلاثة: أصل اللغة وانتظام اللغة، وبنية اللغة. وحتى اللفظ (logos) الذي اشتهر في تاريخ الفكر الغربي، فإنه استخدم ليدل في الوقت نفسه على اللغة والعقل والفكر.^(١)

(1) Haris, Roy and Taylor, Talbot. *Landmarks In Linguistic Thought Volume I: The Western Tradition From Socrates To Saussure (History of Linguistic Thought)*, Vol. 1, Routledge; 2 edition, 1997, pp. 21-28

= والكتاب يأخذ نصوصاً من أعمال الفلاسفة السابقين ويناقشها بقدر من التفصيل، من حيث بيان =

إنَّ الجدل بين نظريات الفكر اللغوي له تاريخ طويل، شهدنا بعض أمثله عند فلاسفة اليونان، وشهدنا نماذج منه في حلقات السجال بين نحاة البصرة والكوفة. ونشهد الآن سجلاً بين اللسانيين العرب المحدثين، الذي انصرف جلُّهم كثيرٍ منهم إلى تطبيق المناهج الغربية الحديثة على الفكر اللغوي العربي،^(١) كما نشهد سجلاً حاداً بين علماء اللسانيات الغربيين الذين يتتمون إلى مدارس فلسفية ونفسية مختلفة، نكتفي بالتمثيل عليها في هذا المقام بالمناظرة المفصلية بين بياجيه وتشومسكي عام ١٩٧٥.^(٢)

وفي التراث الإسلامي فيض من النصوص التي تتحدث عن أصل اللغة البشرية وعلاقتها بأشكال التفكير والفهم والإدراك، والتفاصيل الدقيقة في بنية اللغة العربية وتطور علومها، ودروها في حمل مضامين القرآن الكريم. فثمة إشارات إلى جهود مبكرة تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ)، الذي ذكرت الروايات أنه صاحب المحاولة الأولى لوضع النحو العربي، وأنه نَقَطَ المصحف الشريف، وإشارات أخرى إلى أبي عبد الله بن أبي أسحق الحضرمي (ت ١١٧هـ)، وعيسى بن عمر (ت ١٤٩هـ)، وإن كانت هؤلاء الثلاثة لم تصل إلينا. ومن ذلك أعمال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) وتلميذه سيبويه (ت ١٨٠هـ).

وثمة من يرى أن الجهود التي بذلت بعد ذلك بقيت في إطار المنهج الذي

= دور اللغة في الفكر الإنساني والمجتمع. ويبدأ بطبيعة الحال بمناظرات سقراط التي دونها تلميذه أفلاطون، ثم ينتقل إلى أعمال أرسطو، ويشير إلى الكتاب المقدس Bible، ثم يأخذ في عرض جهود أعلام الفكر اللغوي في القرون الوسطى حتى التاسع عشر، ويواصل في الجزء الثاني من الكتاب مناقشة الجهود التي تمت في القرن العشرين.

(١) موسى، نهاد. المغفور في دائرة النور، تصدير كتاب التفكير اللساني عند علماء العقلية المسلمين. تأليف: عماد أحمد الزبن، عمان: دار النور المبين، ٢٠١٤م، ص ٧-١٤.

(٢) غاردنر، هاوارد. "طبيعة الفكر واللغة، مواجهة بين شومسكي وبياجيه"، ترجمة: أحمد أوزي، مجلة علوم التربية (مجلة فصلية محكمة تصدر في المملكة المغربية)، عدد ١٤، فبراير ١٩٩٨، ص ١٠٣-١٠٩ والمادة هي تقرير غاردنر عن تلك المناظرة.

وضعه سيويه.^(١) وسوف نثبت فيما يلي أمثلة على نصوص تعبر عن جهود عدد من العلماء في التراث العربي الإسلامي في مجال العلاقة بين اللغة والفكر، مما نرى أنه يصلح للاستئناس به.

يقول أبو الفتح ابن جنّي في مسألة أصل اللغة البشرية: "هذا موضوع محوج إلى فضل تأمل؛ غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي (وتوقيف). إلا أن أبا علي رحمه الله قال لي يوماً: هي من عند الله، احتج بقوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، وهذا لا يتناول موضع الخلاف. وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم عن أن تواضع عليها؛ وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة. فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به. وقد كان أبو علي رحمه الله أيضاً قال به في بعض كلامه، وهذا أيضاً رأي أبي الحسن، على أنه لم يمنع قول من قال: إنها تواضع منه."^(٢) ويقول: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الرياح، وحين الرعد، وخرير الماء ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل."^(٣)

ثم يقول: "واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع، فأجد الدواعي والخوارج قوية التجاذب لي، مختلفة جهات التغوّل على فكري، وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاق والرقّة، ما يملك عليّ جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر. فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه ما حدوته على أمثلتهم، فعرفت بتابعه وانقياده وبُعد مراميه

(١) عمابرة، خليل أحمد. في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، جدة: عالم المعرفة، ١٩٨٤، ص ٤١-١٥.

(٢) ابن جنّي، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ). الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة: المكتبة العلمية، ١٩٥٢، ج ١، ص ٤٠.

(٣) المرجع السابق ج ١، ص ٤٦.

وآماده، صدق ما وفّقوا لتقديمه منه ولطف ما أسعدوا به، وفُرق لهم عنه، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جلّ وعزّ، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه وأنها وحي. ثم أقول في ضدّ هذا: كما وقع لأصحابنا ولنا، وتنبهوا وتنبهنا، على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا - وإن بعد مداه عنا- من كان اللطف منا أذهاناً، وأسرع خواطر وأجرأ جناناً. فأقف بين تين الخلتين حسيراً، وأكثرهما فأنكفئ مكثوراً، وإن خطر خاطر فيما بعد، يعلّق الكف بإحدى الجهتين، ويكفها عن صاحبتهما، قلنا به، وبالله التوفيق.^(١)

وهكذا لا يحسم ابن جنّي مسألة كون اللغة وحيّاً وتوقيفاً من الله عز وجل، أو أنها اصطلاح واكتساب وتواضع بشري. وربما كان ذلك منه موقفاً وسطاً أراد به احترام رأي أستاذه أبي علي الفارسي المعتزلي وغيره من المعتزلة الذين يقولون: إن اللغة نشأت بالمواضعة والاصطلاح. ويبدو أن مسألة التردد هذه بين هاتين النظريتين لنشأة اللغة، قد لازمت الدراسات اللغوية واللسانية عبر التاريخ. لكن معظم الدراسات اللسانية المعاصرة تميل إلى القول بوجود قدرة فطرية تولد مع الإنسان، وتمكنه من اكتساب اللغة ضمن الظروف الموضوعية لحياته، فاللغة خاصية مشتركة في النوع البشري، وصفة مميزة له عن سائر المخلوقات. ونظراً لاختلاف هذه الظروف في المجتمعات البشرية، فإن من الطبيعي أن تتعدد اللغات وأن تتغير.

ومسألة العلاقة بين اللغة والفكر مبسطة في كتب اللغويين العرب، بصورة واضحة، وفيها يقول ابن جنّي: "فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا تری أن العناية إذ ذلك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها... كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغضُّ

(١) المرجع السابق، ج ١، ص ٤٧.

منه كُدرة لفظه وسوء العبارة عنه. ^(١) ويقول: "وذلك أن أكثر من ضلَّ من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنما استهواه واستخف حلمه، ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة... ^(٢)"

وينقل الجاحظ عن بشر بن المعتمر أنه كتب في "صحيفة من تحبيره وتنميته أن: "من أراد معنىً كريماً فليتمس له لفظاً كريماً؛ فإنَّ حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف... والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال... وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات... ^(٣)"

أما الجرجاني فإنه يقول: "ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر، أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو، فلا يقوم في وهم ولا يصح في عقل أن يتفكر متفكر في معنى "فعل" من غير أن يريد إعماله في "اسم" ولا أن يتفكر في معنى "اسم" من غير أن يريد إعمال "فعل" فيه، وجعله فاعلاً له أو مفعولاً، أو يريد فيه حكماً سوى ذلك من الأحكام، مثل أن يريد جعله مبتدأً أو خبراً أو صفةً أو حالاً أو ما شاكل ذلك. ^(٤)"

(١) المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٧.

(٢) المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٤٥.

(٣) المرجع السابق، نص الرسالة كاملة ص ١٣٥-١٣٩.

(٤) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر (٤٧٤هـ). دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٤م، ص ٤١٠

واللغات عند ابن خلدون ملكات صناعية؛ أي يجرى بناؤها وتعلمها بالاكْتساب^(١)، والملكات تتحقق للإنسان بتكرار قيامه بالفعل حتى تصبح الملكة صفةً راسخة، يقول: "اعلم أنَّ اللغات كلُّها ملكات شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأنَّ الفعل يقع أولاً، وتعود منه للذات صفة، ثم تكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنَّها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة؛ أي صفة راسخة."^(٢)

ويبدو أن هذه الملكة هي التي تكسب المتكلم باللغة والمستمع إليها، قدرة يميز بها الصواب والخطأ، اعتماداً على ما جرى عليه معهود الجماعة اللغوية، دون حاجة إلى القواعد. يقول ابن خلدون في ذلك: "يتعيَّن النظرُ في دلالة الألفاظ وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة. والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان. وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علومها ولا قوانين، ولم يكن الفقه حينئذٍ يحتاج إليها؛ لأنها جِبَلَةٌ وملكَةٌ، فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة، وصارت علومها يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى. ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام، وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق، بل لا بد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك، وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة... فكانت

(١) وبذلك يفنّد ابن خلدون الرأي القائل بالسليقة والوراثة، ودور الجنس والعرق في تحديد طبيعة اللغة أو إتقانها.

(٢) ابن خلدون. مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ١١٤٠.

كلها من قواعد هذا الفن، ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية.^(١)

وفي بيان العلاقة الوجودية بين الفكر، والعلم، واللغة، نستذكر جهود كثير من علماء المسلمين في التمييز بين الوجود العيني، والوجود الذهني، والوجود اللساني، ونختار من هذه الجهود قول أبي حامد الغزالي: "فنقول في بيان حدّ الاسم وحقيقته: إنّ للأشياء وجوداً في الأعيان، ووجوداً في الأذهان، ووجوداً في اللسان؛ أما الوجود في الأعيان فهو الوجود الأصلي الحقيقي، والوجود في الأذهان هو الوجود العلمي الصوري، والوجود في اللسان هو الوجود اللفظي الدليلي. فإنّ السماء مثلاً لها وجود في عينها ونفسها، ثم لها وجود في أذهاننا ونفوسنا؛ لأن صورة السماء تنطبع في أبصارنا ثم في خيالنا، حتى لو عدمت السماء -مثلاً- وبقينا، لكانت صورة السماء حاضرة في خيالنا. وهذه الصورة هي التي يعبر عنها بالعلم، وهو مثال المعلوم، فإنه محاك للمعلوم ومواز له ... وأما الوجود في اللسان فهو اللفظ المركب من أصوات قطعت أربع تقطيعات يعبر عن القطعة الأولى بالسين وعن الثانية بالميم وعن الثالثة بالألف وعن الرابعة بالهمزة وهو قولنا: سماء؛ فالقول دليل على ما هو في الذهن، وما في الذهن صورة لما في الوجود مطابقة له، ولو لم يكن وجود في الأعيان لم ينطبع صورة في الأذهان، ولو لم ينطبع في صورة الأذهان لم يشعر بها إنسان، ولو لم يشعر بها الإنسان لم يعبر عنها باللسان، فإذا اللفظ والعلم والمعلوم ثلاثة أمور متباينة، لكنها متطابقة متوازية، وربما تلتبس على البليد فلا يميز البعض منها عن البعض."^(٢)

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن اللغة العربية لا ترتبط بالفكر والعقل فحسب، وإنما ترتبط بالدين والخلق كذلك: يقول: "اعلم أنّ اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة

(١) المرجع السابق، ج ٣، ص ١٠٦٣.

(٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. المقصد الأسمى في شرح معاني أسماء الله الحسنی، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، قبرص: الجفان والجابي، ١٩٨٧، ص ٢٥.

من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق، وأيضاً فإنَّ نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب؛ فإنَّ فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.^(١) ويقول في موقع آخر: "إنَّ اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميَّزون."^(٢)

ثانياً: البيان بين الفكر اللغة

البيان لفظ أثير في القرآن الكريم، ورد مع مشتقات "بان" في نحو مائتين وسبعة وخمسين موقعاً (٢٥٧) بصيغ اسمية وفعلية عديدة، فالقرآن الكريم بيَّان: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وهو تَبْيَانٌ: ﴿ وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، وهو كتاب مبيِّن: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]، وقد أنزل هذا القرآن: ﴿ يَلِسَانَ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وآياته بيِّنات: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الحج: ١٦] والرسول الذي أنزل إليه الكتاب هو نفسه نذير مبيِّن: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، بل إنَّ كلَّ رسول أرسله الله جاء بلسان قومه ليبيِّن لهم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٤] ... وهكذا.

والتفكر في الدلالات التي وردت فيها مواقع البيان في القرآن الكريم نزهة ممتعة حقاً، فما جاء من عند الله ليس طلاسماً وأساطير مجهولة المعاني والدلالات، بل هي آيات "بيِّنات" واضحة ظاهرة مفهومة، جاءت باللسان الذي يفهم أصحابه معانيه، ومع ذلك فقد جاءت في مستويات من الفصاحة بلغت حدَّ الإعجاز. والنص القرآني أبلغ تأثيراً في السامع أو القارئ من أي بيان، يحاول توضيح دلالة هذا النص بغير لغته الأصلية.

(١) ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم. اقتضاء الصراط المستقیم لمخالفة أصحاب الجحیم، تحقيق: ناصر بن عبد الكريم العقل، الرياض: مكتبة الرشيد، (د. ت.)، ج ١، ص ٤٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٢.

وكان الإمام الشافعي من أوائل من أسهب في الحديث عن البيان القرآني، وذلك في كتابه الأصولي الفذّ "الرسالة"، فبدأه بقوله: "والبيان اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع."^(١) ثم فصل البيان للأحكام في القرآن في خمس مراتب، بعضها أوضح بياناً من بعض.

ثم إن أهل اللغة أنشأوا علماً واسع الأنحاء، سمّوه علم البيان، فصلّوا موضوعاته وأهدافه وأركانه، وكتب فيه كثير من الكتب في القديم والحديث. من ذلك كتاب أسرار البلاغة للجرجاني الذي بدأه ببيان فضيلة البيان، إشارة إلى الآيات الكريمة في مطلع سورة الرحمن، فقال: "اعلم أنّ الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويحجني صنوف ثمرها، ويدل على سرائرها، ويبرز مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان، ونبه فيه على عظم الامتنان، فقال عزّ من قائل: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: ١-٤]، فلولا له لم تكن لتتعدى فرائد العلم عالمه، ولا صحّ من العاقل أن يفتق عن أزهير العقل كمائه، ولتعطلت قوى الخواطر الأفكار من معانيها، واستوت القضية في موجودها وفانيها..."^(٢)

ومنه كذلك كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، الذي جعل فيه البيان دلالة على المعنى، والتبيين مزيداً من الإيضاح، وضمّنه نماذج راقية "في البيان والتبيين، ما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والتنف المستخرجة، والمقطّعات المتخيّرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المنتخبة."^(٣)

(١) الشافعي، محمد بن إدريس (٢٠٤هـ). الرسالة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت.)، ص ٢١.

(٢) الجرجاني، عبد القاهر (٤٧٤هـ). أسرار البلاغة. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، جدة: دار المدني، ١٩٩١م، ص ٣.

(٣) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ). البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ٧، ١٩٩٨م، ج ٣، ص ٥.

وفي معنى البيان وعلاقته بالمعاني والألفاظ يقول الجاحظ: "قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمتخلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطهم والحادثة في فكرة مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة ... وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، ... وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعتُ الله عزَّ وجلَّ يمدحُه، ويعدو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم."^(١)

وفي تفصيل هذا المعنى وصلته بطرق الدلالة اللغوية عليه يضع الجاحظ الدلالة في خمسة أصناف، فيقول: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأنَّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع... وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد^(٢)، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نسبةً."^(٣) فجمع بذلك علاقة الفكر والمعاني بأصناف اللغة منظومة - مسموعة، ومرئية، ومحسوبة، ومكتوبة.

ويَقْصِدُ الجاحظُ بالخط الكتابةَ بالقلم، ويستشهدُ بالآيات القرآنية في هذا المقام، فيقول: "فأما الخط، فكما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضيلة الخط

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٥.

(٢) لغة الحساب بإشارات أصابع اليد تسمى حساب اليد.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٦.

والإنعام بمنافع الكتاب، قوله لنبيه: اقرأ، وأقسم به في كتابه المنزل على نبيه المرسل، حيث قال: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين، ... وقالوا: القلم أبقى أثراً، واللسان أكثر هذراً.^(١)

أورد الراجب الأصفهاني المعنى اللغوي للكتابة، والدلالات القرآنية المتعددة للكتابة، ومما أورده قوله: "الكُتْبُ، ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط،... ويعبر عن الإثبات، والتقدير، والإيجاب، والفرض، والعزم، بالكتابة، ووجه ذلك أن الشيء يراد، ثم يقال، ثم يكتب، فالإرادة مبدأً والكتابة منتهى. ثم يعبر عن المراد الذي هو المبدأ إذا أريد توكيده بالكتابة التي هي المنتهى."^(٢) وقد وردت مشتقات الجذر (كتب) في القرآن مئات المرات بصيغ مختلفة، لأنواع الاسم والفعل. وفي آية الدِّين وحدها من سورة البقرة وردت هذه المشتقات تسع مرات: فكتبوه، وليكتب، كاتب، يكتب، فليكتب، تكتبوه، تكتبوها. والسياق هو الأمر بكتابة الدين، والتأكيد على ضرورة هذه الكتابة مهما كان الدين ﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ والحكمة من الكتابة: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾.

وبقطع النظر عن اختلاف العلماء في أمر كتابة الدِّين الوارد في هذه الآية، هل هو للوجوب أم الندب، فإن المسألة هنا تختص بتشريعات التعامل بين الناس، وأهمية الصياغة القانونية لهذا التعامل، ليس في كتابة العقود فحسب، وإنما في الإشهاد عليها بشاهدين. كل ذلك من أجل حفظ حقوق المتعاملين. ففي مسألة الكتابة نجد في الآية توجيهاً بضرورة وجود الكاتب، وتوجيهاً للكاتب أن يقبل القيام بمهمة الكتابة، وتوجيهاً يحدد من الذي يملي النص المراد كتابته، وتوجيهاً بكيفية التعامل في حالات معينة، وتوجيهاً بضرورة الإشهاد، وتوجيهاً

(١) المرجع السابق، ج ١، ص ٧٩.

(٢) الراجب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ). المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، ص ٤٢٣.

للسهود للقيام بمهمة الشهادة، وتحصيناً للكاتب والشاهد عن وقوع أي ضرر عليهما، وتوجيهاً بعدم التهاون في كتابة الدين مهما كان صغيراً أو كبيراً، وبيان للحكمة من الكتابة والشهادة، وتأكيداً على أن هذه التوجيهات هي تعليم من الله سبحانه للناس، فعليهم أن يتعلموا... إلخ.

وقد أورد الخطيب البغدادي حديث النبي ﷺ "قِيدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ" بست روايات بألفاظ متقاربة. ومنها رواية عن عبد الله بن عمرو: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "قِيدُوا الْعِلْمَ" قلت: يا رسول الله وما تقييده؟ قال: الكتاب." وعقب الخطيب البغدادي على ذكر الحديثين بكلام طويل ثم ختمه: بقوله: "قد أوردت من مشهور الآثار، ومحفوظ الأحاديث والأخبار، عن رسول رب العالمين، وسلف الأمة الصالحين، صلى الله عليه ورضي عنهم أجمعين، في جواز كَتَبِ الْعِلْمِ وتدوينه، وتجميل ذلك الفعل وتحسينه، ما إذا صادف بمشيئة الله قَوِيٌّ شَكٌّ رَفَعَهُ، أو عَارِضٌ رَيْبٌ قَمَعَهُ ودفعه، وأنا أذكر من أقوال أهل الأدب في فضل اقتناء الكتب، والأمر باتخاذها، والحث على جمعها، وإدامة النظر فيها، والتحفظ لعيون مضمونها، ووصف الشعراء لها، ليكون كتابي هذا جامعاً لمعنى ما يتعلق بتقييد العلم وحراسته، وباعثاً على صرف المرء عنايته إلى قراءته ودراسته. والله تعالى أسأل توفيقي للصواب، وعليه سبحانه توكلت وإليه مثاب." (١)

فالكتابة، لها مقام متميز في فنون البيان اللغوي، ويعلى ابن خلدون من شأن الكتابة، فيشير أولاً في فصل بعنوان: "فصل في الإشارة إلى أمهات الصنائع" إلى أن الكتابة من الصناعات الشريفة. والصنائع عند ابن خلدون هي المهن والأعمال التي يقوم بها النوع الإنساني، على أساس التخصص الذي يؤدي إلى التكامل في بناء العمران البشري. فمن الصنائع ما هو ضروري في العمران مثل الفلاحة والبناء والخياطة والنجارة، ومنها الشريفة بالموضوع مثل الكتابة

(١) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (توفي ٥٤٦٣هـ). تقييد العلم، تحقيق: يوسف العث، حلب: دار الوعي، ١٩٧٥م، ص ١١٦.

والوراقة، ثم يقول: "وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورافعة رتب الوجود للمعاني..."^(١)

ويتوسع ابن خلدون في بيان ذلك في فصل آخر بعنوان: "فصل في أن الصنائع تُكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب"، يقول: "فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيد عقلاً فريداً... وهذه كلها قوانين تنتظر علومها، فيحصل منها زيادة عقل... والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك؛ لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع (الأخرى). وبيانه أن في الكتابة انتقالاً من الحروف إلى الكلمات اللفظية في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس، وذلك دائماً، فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات، وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة، فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل، ويحصل به قوة وكَيْس في الأمور..."^(٢)

يرى ابن خلدون أن ضعف الخبرة اللغوية في دلالة العبارة المكتوبة على الألفاظ المنطوقة ودلالة هذه على المعاني المطلوبة، وقوانين المنطق في ترتيب المعاني في القوالب المعروفة، ربما يوقف الذهن عن وضوح الأفكار وطلاقة التعبير عنها. وذلك لما يترتب على ذلك الضعف من حجب الألفاظ وشغب الجدل. ولذلك فإنه ينصح من يجد نفسه في مثل هذه الحالة أن يطرح ذلك كله، ويخلص إلى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطر الله الإنسان عليه، ويسرّح نظره فيه ويفرغ ذهنه له، كما فعل أكابر النظار، وأن يطلب فتح الله عليه بالظفر في مطلوبه من الفكر، وبعد ذلك يستطيع الإنسان في رأي ابن خلدون أن يرجع إلى قوالب الأدلة المنطقية وقوانين اللغة، ويبرزه إلى عالم الخطاب والمشاهدة.^(٣)

(١) ابن خلدون. مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٤٦.

(٢) المرجع السابق، ج ٢ ص ٨٩٧-٨٩٨.

(٣) المرجع السابق، ج ٣، ص ١١١٢-١١١٣.

وربما يؤخذ من كلام ابن خلدون السابق أن المؤلف إذا أراد أن يكتب عن فكرة محددة، وردت إلى خاطره، ووجد أن قدرته اللغوية لا تسعفه في بيانها على الوجه الذي يريده، فإنَّ عليه أن لا يدع الفكرة تضيع منه، بل يقتصر اللحظة، ويعبر عن الفكرة بأية صورة متيسرة له، ثم ينظر -فيما بعد- في صياغتها بلغة أفضل. وبعض المؤلفين يستعينون بآخرين من تلاميذهم، أو يستأجرون كُتَّاباً يستعينون بهم، فيتحدث المؤلف إلى التلميذ أو الكاتب المساعد، الذي يلتقط الفكرة ويكتبها. وأكثر دور النشر اليوم تستعين بمحررين يضبطون اللغة ويجوِّدونها. وربما تقع بين المحرر والمؤلف محاوراة للتأكد من سلامة العبارة في الدلالة على الفكرة المقصودة.

ثالثاً: نظريات العلاقة بين الفكر واللغة

اعتاد كثير من الكتاب والباحثين أن يزينوا صفحة من صفحات كتابتهم الأولى بعبارة كتبها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، في رسالة بعث بها إلى العماد الأصفهاني، وكان الاثنان من الكتاب في حاشية صلاح الدين الأيوبي. والعبارة هي: "إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ أَحَدٌ كِتَاباً فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِي عَدِهِ، لَوْ غَيَّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ، وَلَوْ زِيدَ هَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ، وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعَبْرِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيْلَاءِ النُّقْصِ عَلَى جُمْلَةِ الْبَشَرِ."^(١)

ويبدو أن هذه الظاهرة تتنازع البشر عندما يقولون أو يكتبون، فيقارنون بين ما كان في أذهانهم، وما نطقت به ألسنتهم أو خطتْه أقلامهم، فيشعرون أنَّ لديهم من الأفكار أكثر مما تضمنته اللغة التي بها نطقوا أو كتبوا، ومن ثمَّ بقيت عنده أفكار عجزت صفحات الكتاب أو فسحة الوقت أو سعة الجهد الذي خُصَّص للكتابة عن أن تتسع لها. بل يشعر الكاتب أحياناً أنَّ الكلمات التي حَمَلَت الأفكار المكتوبة لم تحمل معها الحالة الوجدانية والانفعالية المشبعة

(١) حاجي خليفة. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مرجع سابق، ج ١، ص ١٨.

بالخيال. ألا يُعدُّ ذلك مؤشراً على أنّ مخزون المضامين الفكرية أوسع من طاقة
التعبيرات اللغوية؟!

الفكر فاعلية نفسية واجتماعية ولغوية، ولذلك فإنه موضوع لدراسات
علم النفس وعلم الاجتماع وعلم اللغة، فضلاً عن تطبيقات هذه العلوم في
علوم أخرى عديدة، مثل الإعلام والسياسة والاقتصاد، إلخ. وقد كانت العلاقة
بين الفكر واللغة موضوعاً مهماً من موضوعات الفلسفة، منذ بدايات عهدها،
فالمنطق وهو فرع من فروع الفلسفة هو علم دراسة التفكير، واللغة أداة الإفصاح
عن الفكر وهو المعاني التي يقود إليها التفكير. وهذه العلاقة هي كذلك موضوع
من موضوعات علم الاجتماع؛ فلكل مجتمع لغته التي يتواصل أفرادها عن
طريقها، واللغة أهم عناصر الثقافة التي يكونها المجتمع، وثمة فرع من فروع
هذا العلم هو علم اجتماع اللغة. وهذه العلاقة هي كذلك أحد موضوعات علم
النفس. وتتوزع نظريات علم النفس في تطوره في العالم الغربي، على عدد
كبير من المدارس والفلسفات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مدارس
التحليل النفسي، والتحليل الاجتماعي، والمدارس السلوكية، والمدارس
المعرفية البنائية، والمدارس المعرفية الثقافية، والمدارس النفسية الوجودية،
والمدارس المعرفية المعلوماتية، إلخ. ولكل مدرسة نفسية تفسيرها للعلاقة بين
الفكر واللغة، ولو رجع القارئ إلى مرجع مناسب عن هذه المدارس لوجد أن
كل مدرسة لها تفرعاتها، وكل فرع منها يعرف باسم عالم من العلماء الغربيين،
وسوف يجد غياباً مدهلاً للمدرسة الإسلامية في علم النفس.^(١)

(١) أمثلة على هذه الكتب:

- جرين، جودث. التفكير واللغة، ترجمة: عبد الرحمن بن عبد العزيز العبدان، الرياض: دار عالم
الكتب، ١٤١٠هـ
- سيرل، جون. العقل واللغة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت: الدار العربية للعلوم -
ناشرون، والمركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م.
- فيغوتسكي، ليف. التفكير واللغة، ترجمة: طلعت منصور، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية،
١٩٧٠.

والاطلاع على المقولات الإجمالية لهذه النظريات قد يكون مفيداً إذا أمكن وضعها في البنية الفكرية المستقرة للإنسان المسلم، القادر على التعامل معها بنظرة تحليلية نقدية، وفق منهجية التكامل المعرفي التي يستمدّها من رؤية العالم الإسلامية، وهذا ما قام به عالم النفس الإسلامي "مالك بدري" في عدد من دراساته في علم النفس، وممارساته في العلاج النفسي. وهو في موضوع العلاقة بين اللغة والفكر لا يختلف كثيراً مع علماء النفس الآخرين في التأكيد على وجود رابطة قوية بين الفكر الإنساني واللغة؛ ذلك: "أن اللغة عند الإنسان ليست وسيلة للتخاطب والاتصال فحسب، بل هي في الحقيقة النظام الأساسي الذي يستخدمه الإنسان في التفكير."^(١)

وفيما يلي عرض موجز لعدد من النظريات التي حاولت تفسير العلاقة بين الفكر واللغة.

١- النظرية السلوكية Behaviorist Theory

وهي مدرسة في علم النفس ومدرسة في التعلم، ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية من بدايات القرن العشرين من خلال أعمال واطسون (توفي ١٩٥٨م) وكانت أكثر المدارس النفسية والتربوية تأثيراً في النصف الأول حتى مطلع الستينات من القرن العشرين، وتعتمد على مفهوم السلوك الذي يؤديه الفرد، استجابة لمثيرات خارجية، ويتعزز السلوك بالمكافأة عليه. والسلوك اللغوي هو واحد من أنواع السلوك. ووفقاً لهذه النظرية يبدأ الطفل حياته دون أي قدرات لغوية، ثم يبدأ باكتسابها بتقليد الأصوات التي يسمعها في البيئة المحيطة، ويتركز المضمون المعرفي في نوع الإثارة التي تثير اهتمام الطفل. فاللغة في نهاية المطاف هي عادات يتعلمها الأطفال من البيئة عن طريق التقليد والتعزيز والتكرار. وترى جودث جرين أن كتاب سكينر (توفي عام ١٩٨٥م) "السلوك اللفظي" يعد "محاولة بارعة لشرح اللغة دون الأخذ

(١) بدري، مالك. التفكير من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية، مرجع سابق، ص ٢٧-٢٩

في الاعتبار أي أحداث عقلية، مثل الأفكار أو المعاني، أو القواعد النحوية.^(١)

٢- الحتمية اللغوية والنسبية اللغوية:

من أكثر النظريات التي نالت نقاشاً موسعاً نظرية سابير - وورف. وتعود جذورها إلى أعمال الأنثروبولوجي واللغوي الأمريكي إدوارد سابير (ت ١٩٣٩) وتلميذه بنجامين وورف (ت ١٩٤١). وتتلخص هذه النظرية في أن اللغة في المجتمع تؤدي وظيفتين متلازمتين: الأولى هي الوظيفة التواصلية؛ إذ يفكر أبناء ذلك المجتمع ويتواصلون بوساطة لغتهم، والثانية هي الوظيفة التمثيلية؛ إذ تقوم هذه اللغة بصياغة رؤية للمجتمع للعالم، فلكل مجتمع لغته ومن ثم رؤيته للعالم. ويلاحظ أن نظرية سابير - وورف تقوم على مبدئين الأول هو الحتمية اللغوية (linguistic determinism)، حيث تحدد لغة المجتمع الطريقة التي يفكر فيها أفراد ذلك المجتمع. فالأفكار التي يتبناها المجتمع هي مضامين التواصل اللغوي؛ أي إن اللغة تحدد الفكر. والمبدأ الثاني هو مبدأ النسبية اللغوية، linguistic relativity، ويختص هذا المبدأ ببنية اللغة التي يستخدمها المجتمع، حيث تعمل هذه البنية على تشكيل مفاهيم المجتمع عن العالم، وعليه فإن بنية النظام اللغوي تتضمن رؤية خاصة للعالم تختلف عن رؤية العالم التي تتضمنها بنية نظام لغوي آخر، فالمجتمعات التي تتحدث بلغات مختلفة يفكر أفرادها بطرق مختلفة.

٣- نظرية الإستمولوجيا التكوينية في النمو المعرفي Cognitive Development

وقد طورها العالم السويسري جان بياجيه (١٨٩٦-١٩٨٠) ورأي أن المعرفة ليست سوى تاريخ الأفكار. وترتكز فلسفته التي يسميها الإستمولوجيا التكوينية Genetic Epistemology، على تأثير التركيب البيولوجي للفرد على قدرته العقلية، ويعد تطور الفرد في المجمل محاولة استيعاب للبيئة التي يعيش فيها والتكيف معها.^(٢)

(١) جرين، التفكير واللغة، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٢) بياجيه، جان. الإستمولوجيا التكوينية، ترجمة: السيد نفادي، دمشق: دار التكوين، ٢٠٠٤م.

ويرى بياجيه أن النمو المعرفي يحدث بصورة طبيعية مع تقدم الإنسان في مراحل حياته الأولى، ويكتسب الطفل مفاهيم وأفكاراً قبل أن يصبح قادراً على التعبير اللغوي عنها، ولا يستطيع التعبير اللغوي عن موضوع ما قبل أن يُكوّن فكرة عن الموضوع، لكن اللغة مع ذلك تسهم في تسريع النمو العقلي والفكري. وقد طور بياجيه نظريته في النمو الفكري عند الأطفال من خلال تجارب عملية. واتخذ موقفاً معاكساً لنظرية النسبية اللغوية، ذلك أنه كان مهتماً بمراحل تطور النمو العقلي عن الأطفال بغض النظر عن لغة المحيط الاجتماعي الذي يعيشون فيه. واللغة عند بياجيه ليست مسؤولة عن الفكر، مع أن لها دوراً في تسهيل التفكير الرمزي، لكن الطفل لا يستطيع أن يفهم اللغة إذا لم يكتسب الفكرة الكامنة وراء التعبير اللغوي.

فاللغة والتفكير عند بياجيه كلاهما يعتمدان على الذكاء، ونمو القدرات الذكائية عند الأطفال يسبق اللغة ويستقل عنها. وليس من السهل فهم هذا الموضوع دون ربطه بالنمو البيولوجي عند الأطفال، ومراحل النمو التي يمر بها الطفل. والذكاء بإيجاز شديد هو عملية تكيف، والتكيف هو التوازن بين فعل الفرد في البيئة، وفعل البيئة في الفرد. ويمر الطفل في أثناء نموه بأربع مراحل تبدأ بمرحلة التفكير الحس حركي، ثم مرحلة ما قبل العمليات اللغوية أو ما قبل المفاهيم، ثم مرحلة العمليات العقلية العيانية أو المفاهيم اللغوية، وأخيراً مرحلة العمليات العقلية الشكلية أو المجردة.⁽¹⁾

٤- نظرية الوقف البيولوجي الموروث

وقد طورها أساساً الفيلسوف الأمريكي المعاصر نعوم تشومسكي Naom Chomsky، (١٩٢٨-...) ولهذا الفيلسوف جملة من الأفكار ذات الصلة بعلاقة الفكر باللغة، وعرف بعدد من العناوين مثل النظرية التوليدية التحويلية،

(1) Piaget, Jean. *The Psychology of Intelligence*, Translated by Malcolm Piercy and D. E. Berlyne, London and New York: Routledge Classic, Reprint 2003, page 128-137.

ومفهوم المستوى السطحي والمستوى العميق للغة، والقواعد العالمية، والإرث البيولوجي للغة... إلخ. لكنه عرف كذلك بقدرته على توظيف أفكار غيره من السابقين والمعاصرين ونقدها وتجاوزها، فضلاً عن التطوير المستمر لأفكاره هو. ونكتفي في عرض نظرياته العديدة ذات الصلة بمسألة العلاقة بين الفكر واللغة المثبوتة في عدد من أعماله المهمة، بشيء من كتاباته الأخيرة فواحد من أواخر ما كتب كتاب صدر عام ١٩٩٣، خصصه لمسألة الفكر واللغة دون غيرها، وكتاب آخر هو آخر كتاب صدر له، وكان بعنوان اللغة والعقل، صدر عام ٢٠٠٦م، ونحن هنا نشير إلى الطبعة الخامسة الصادرة عام ٢٠١٢م. من هذا الكتاب، وفيه أعاد نشر بعض ما نشر في ستينات القرن العشرين، لكنه أضاف إليه فصلاً جديداً ليعيد تنظيم أفكاره حول موضوع الفكر واللغة، وهذا الفصل هو ما سوف نشير إليه.

يعتقد تشومسكي أن الإنسان: "يملك بطبيعته إطاراً عاماً من المعتقدات التي لا يملك الإنسان إلا أن يلتزم بها."^(١) وأنا أصبحنا نملك الآن "أدلة كبيرة، إلى حد ما، حول مكونات العقل/الدماغ، وأن واحداً من هذه المكونات هو القدرة اللغوية، التي تمكن الإنسان من استعمال اللغة، ونحن نعني هنا اللغة البشرية وليس بأي معنى مجازي للكلمة. وأن ثمة مكوناً آخر في العقل الإنساني هو الفهم البدهي المشترك الذي يمكن عامة الناس من فهم العالم الخارجي ومكانهم فيه، وهو ما يسمى غالباً علم النفس الشعبي folk psychology الذي هو الوقف الإنساني المشترك، وهو منحة مباشرة من الطبيعة. إضافة إلى مكونات أخرى تمكن الإنسان من إجراء البحث العلمي والرياضي وأحياناً تحقيق بصيرة متفوقة: يمكن أن نسمي هذا المكون "ملكة بناء العلم" الذي يختلف عن الفهم البدهي المشترك."^(٢)

(1) Chomsky, Noam. *Language and thought*, Wakefield, Rhode Island & London: Moyer Bell, 1993, p 32.

(2) Ibid., p. 34.

ويرى تشومسكي أن "لدينا الآن من المعرفة ما يكفي للإشارة إلى أن الاختلافات بين اللغات ليست كثيرة بالمقارنة مع المشتركات الهائلة."⁽¹⁾

ويشارك تشومسكي مع كثير من العلماء الآخرين في أن القدرة اللغوية هي من الخصائص المقصورة على النوع الإنساني في مكوناتها الأساسية، وهي جزء من ذلك الوقف البيولوجي biological endowment أو الموروث الجيني genetic inheritance، وأن الفرد الإنساني يمرُّ في أثناء نموه بخبرات تصوغ القدرة اللغوية وتشكّلها تدريجياً، حتى تبلغ حالة ثابتة مستقرة نسبياً عند سنّ البلوغ. ولكن التطور والتغير بعد ذلك لا يتعلق بالقدرة الكامنة وإنما في الرصيد اللغوي المكتسب. ويميز تشومسكي بين عنصرين في اللغة البشرية، الأول هو نظام معرفي والثاني هو نظم الأداء. فالنظام المعرفي يخزن المعلومات التي يتم الوصول إليها عن طريق أنظمة الأداء، ويستخدمها لضبط الصياغة، والتفسير، والتعبير عن الفكر، وطرح الأسئلة، والإشارة، وغير ذلك.⁽²⁾ وأن "الدراسات التي أجريت في السنوات القليلة الأخيرة قد نجحت إلى حد ما في تحديد مبادئ عامة في اللغة يمكن أن تعزى إلى وقف فطري."⁽³⁾

وهذا يعني أن اللغة تدخل بطريقة جوهرية في الفكر والعقل والعلاقات الاجتماعية. فخاصية وجود اللسان الذي يعبر عن اللغة عند البشر من جميع الأعراق والألوان، خاصية مشتركة، وربما كانت هذه الخاصية تعبر في الوقت نفسه عن وظائف أساسية مشتركة في حياة البشر مثل إعطاء المعلومات وطلبها، والتقاءها على عدد من المسلّمات العقلية مثل أن الاثنين أكبر من الواحد، وأن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين، وقابلية ترجمة الأفكار من لغة إلى أخرى. وحقائق الدين الأساسية كلها واحدة، فتوحيد الله سبحانه، وحقيقة النبوة،

(1) Ibid., p. 48.

(2) Ibid., p. 47.

(3) Ibid., p. 50.

وحقيقة المعاد... كانت الأساس في كل الرسائل السماوية، وهي هي الحقائق نفسها، رغم أن كل رسول كان يرسل بلسان قومه ليبين لهم.

ويناقش نعوم تشومسكي نظريات علماء اللغة المحدثين، لا سيّما الذين يقولون بالنسبية اللغوية، فيؤكد أن النظم اللغوية المختلفة عند البشر، مهما اختلفت في مستوياتها السطحية، فإنها تتشابه في مستوياتها العميقة. ويتساءل: ألا يعني ذلك أن قدرة اللغات المختلفة على وصف الواقع بصورة متشابهة أو متقاربة، هي وسيلة من وسائل التواصل بين الأمم والشعوب رغم اختلاف لغاتها؟! ألا يشكك ذلك في الصدق المطلق لمقولة أن اختلاف اللغات بين الشعوب يؤدي إلى اختلاف رؤية العالم!؟

ويبدو أن المدخل الذي قاد أعمال تشومسكي من بداياتها في خمسينات القرن العشرين حتى الآن هو مدخل "اللسانيات البيولوجية Biolinguistic approach" الذي أعاد تعزيز فهمه له في آخر ما كتب في مجال سعيه للوصول إلى تفسير للغة يقوم على مبادئ مستقرة principled explanation. وهذا المدخل ينظر إلى لغة الفرد الإنساني بوصفها حالة محددة لمكون من مكونات العقل.⁽¹⁾ وأن المسألة هي عنصر من عناصر النظرة الحديثة إلى العلم، حيث لا يكون هدف البحث العلمي الوصول إلى تفسيرات نهائية، وإنما للوصول إلى أفضل تفسير نظري لظاهرة معينة تقع ضمن خبرة الإنسان أو تكون موضوعاً لتجربته... "وأن الأطروحة التي تقود هذه المسعى في مجال اللغة هي أن "الأشياء التي نسميها عقلية، أو بالتأكيد العقل نفسه، هي خصائص تنشأ عن الدماغ، مع أن هذه الخصائص الناشئة غير قابلة للاختزال، وإنما يتم إنتاجها وفقاً لمبادئ... لم تتمكن من فهمها حتى الآن."⁽²⁾

(1) Chomsky, Noam. *Language and Mind*, Cambridge: Cambridge University Press, 2012, p. 173.

(2) Ibid., p 174.

ورغم الجدل الذي انتاب ولا يزال ينتاب فكرة دراسة اللغة بوصفها جزءاً من العالم الطبيعي، فإن تشومسكي لا يزال يفترض أن الجوانب المهمة من اللغة يمكن أن تدرس بوصفها جزءاً من العالم الطبيعي، وهذا هو معنى "منحى اللغويات البيولوجية" الذي أخذ شكله منذ نصف قرن من الزمان ولا يزال يُتبع ضمن عدد من المسارات.⁽¹⁾

ونظراً لأن الدراسة الطبيعية في مجال الكائنات الحية تعتمد في الأساس نظرية التطور العضوي، والانتخاب الطبيعي، فإن تشومسكي يستشهد بأقوال عدد من العلماء، ويميل إلى الاعتقاد بأن "اختراع اللغة" في سجل التطور العضوي كان أمراً مفاجئاً وسريعاً، وحدث في صورة "قفزة كبيرة إلى الأمام" great leap forward، وأن الأمر هو حدث وراثي معين سمح بإعادة تصميم شبكة الدماغ، بصورة تسمح بظهور أصل اللغة البشرية الغنية بالتراكيب، القادرة على إنتاج مدى واسع من وسائل التعبير عن الفكر.⁽²⁾

ويعتقد تشومسكي أن هناك ثلاثة عوامل تؤثر في نمو اللغة عند الفرد الإنساني: الأول هو عوامل وراثية تعد وفقاً فطرياً يملكه كل فرد في النوع البشري، وهذه العوامل تحدد المسيرة العامة لنمو القدرة اللغوية، والثاني هو الخبرة التي يمر بها الفرد وتؤدي إلى اختلاف الأفراد عن بعضهم، ولكن هذا الاختلاف يبقى في نطاق ضيق لا ينافس العامل الأول، أما العامل الثالث فهو مجموعة من المبادئ غير اللغوية، مثل مبادئ المعمار البنائي الذي يحدد النتائج ومبادئ الحساب الفعال الذي يحدد الخصائص العامة للغة المكتسبة، وهي مبادئ تذكرنا بمعتقدات بعض علماء الطبيعة من قبل، مثل قولهم: إن الطبيعة كاملة، وإن الطبيعة بسيطة جداً، وإن الطبيعة تسعى إلى الجمال. وفي السنوات الأخيرة أخذ تشومسكي ينقل الاهتمام الأكبر في فهم التصميم اللغوي

(1) Ibid., p. 175.

(2) Ibid., p. 176.

من العامل الأول إلى العامل الثالث الذي يقدم إجابات عن الأسئلة الرئيسية لبيولوجيا اللغة واستعمالها وتطورها. ومن ثم فهو يرى أن التعبيرات اللغوية التي تنتجها اللغة يجب أن تلبي شرطين متداخلين: الشرط الأول هو ما يفرضه النظام الحسي حركي للجهاز اللغوي، والشرط الثاني الذي يفرضه نظام الفكر الذي يبنى بصورة مقصودة، ويدخل في القدرة الفكرية البشرية وتنوعات الفعل اللغوي.⁽¹⁾

ويختم تشومسكي الفصل المشار إليه بالقول: "إن السعي للوصول إلى تفسير يقوم على مبادئ مستقرة، يواجه مهمات تدعو إلى التهيّب! فنحن نستطيع أن نصوغ الأهداف بوضوح معقول، لكننا لا نعرف كيف نحققها، والهدف هو إلى أي حد يمكننا أن نعرف أن الملكة اللغوية تعزى إلى مبادئ عامة تحكم الكائنات الحية؟ إننا في كل خطوة نحو الهدف نكتسب فهماً أوضح للخصائص المحورية الخاصة بالملكة اللغوية، ولكن يبقى المجال مفتوحاً لأسئلة عديدة، أثّرت منذ مئات الأعوام، ولا نملك إجابات عنها، ومن هذه الأسئلة مثلاً: كيف تتصل الخصائص العقلية بالبنية العضوية للدماغ، وهي مسائل يصعب حلها عند الحشرات، ولكنها ذات جوانب متميزة وغامضة جداً عندما نفكر بالملكة اللغوية البشرية، وأصولها التطورية."⁽²⁾

ويبدو أن النظريات المتعاقبة التي حاولت فهم العلاقة بين اللغة والفكر، سوف تستمر، وليس من المتوقع أن تحسم الموضوع نظرية واحدة، ذلك أن العلماء الذي يبحثون الموضوع يأتون من خلفيات مختلفة تنتمي إلى علوم الفلسفة والاجتماع والنفس. وأن التحليل النظري والتجريب العملي في الموضوع، لا يخلو من الاعتماد على عناصر مفيدة في فهمه، لكنها في الوقت نفسه غير كافية، فكل نظرية تفسر جانباً من الموضوع، ولا تفسر الموضوع كله.

(1) Ibid., p. 183.

(2) Ibid., p. 185.

ويبدو أن الموضوع سيبقى مفتوحاً للاجتهاد والحوار والجدل. أليست هذه طبيعة المعرفة البشرية!

ورغم أن كثيراً من علماء المسلمين توقفوا في فهم علاقة الفكر باللغة عند الآية القرآنية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، فإنهم توزعوا في فهمها على عدد من الأقوال، كما أشرنا إلى ما كتبه ابن جنّي من قبل؛ هل كان تعليم اللغة توقيفاً من الله سبحانه مباشرة ألهمه اللغة والنطق بها، إشارة إلى أسماء الأشياء ومن ثم إلى معانيها؟ أم أن الله سبحانه قد وهبه القدرة على التعلم، فتعلم مباشرة؟ أو أنه تعلم بمرور الوقت؟ ولماذا تم هذا التعليم بعد خلق الإنسان، ولم يخلق مزوداً بها؟ وكيف أن اللغة هي الرموز المنطوقة والمكتوبة والمرسومة والمتحركة هي كلها أساس ما يمتلكه الإنسان من فكر وعلم وثقافة، فاللغة هي أم الرموز الثقافية.^(١)

سوف يواصل علماء الطبيعة وعلماء الاجتماع بحثهم في مسألة العلاقة بين الفكر واللغة سواء كانوا ينطلقون من فلسفة طبيعية واجتماعية بحتة، دون النظر إلى هداية الوحي الإلهي، أم كانوا يأخذون بالحسبان هذه الهداية ويودون معرفة المزيد من العلم في ظلال هذه الهداية. لكن الذي نستطيع الاطمئنان إليه في خاتمة الحديث عن العلاقة بين الفكر واللغة، مجموعة من المبادئ التي ربما لا يقع حولها خلاف كبير:

- ليس من السهل أن نتخيل فكراً بشرياً دون تعبير لغوي عنه، وليس من السهل أن نستبعد أثر الفكر في إغناء اللغة فالعلاقة بين الفكر واللغة علاقة تبادلية تكاملية.

- نحن نؤمن أن الله سبحانه خلق الإنسان الأول، آدم أبا البشر، ثم زوده

(١) الذوادي، محمود. وعلم آدم الأسماء كلها في ميزان الرموز الثقافية، مجلة إسلامية المعرفة، السنة ١٩، العدد ٧٥، شتاء ١٤٣٥/١/٢٠١٤، ص ١٦١-١٨٦.

بالمملكة اللغوية بكيفية معينة ليس من السهل أن نتعرف عليها بقدر من اليقين.

- الملكة اللغوية جزء من الخلق الإلهي الفطري الموروث "التصميم" في الكيان البشري، وهي ترتبط بأدوات السمع والبصر والنطق، وكلها مهياة للقيام بأدوار تتصل باللغة والفكر. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ [التين: ٤]
- من المعقول أن نتخيل أن اللغة البشرية كانت في أول عهدها لغة واحدة، ثم توزع الناس في مناطق جغرافية منعزلة، فتباعدت اللهجات، ثم تطورت إلى لغات متميزة.
- الإنسان في كل العصور كان يتعلم اللغة ويعبر بها عن فهمه لما يحيطه به، عن طريق ما يسمعه في البيئة اللغوية التي ينشأ فيها.

ملخص لعدد من نظريات العلاقة بين الفكر واللغة

النظرية	اسم العالم	وفاته	مقولات النظرية
١ السلوكية	واطسون- سكنر	١٩٥٨ ١٩٨٥	اللغة نوع من السلوك، يكتسبه الفرد عن طريق التقليد والتعزيز والتكرار
٢ الإبستمولوجيا التكوينية	بياجيه	١٩٨٠	اللغة تاريخ الأفكار، تنمو اللغة من النمو البيولوجي، الفكر قبل اللغة
٣ الحتمية والنسبية اللغوية	سابير- وورف	١٩٣٩ ١٩٤١	وظيفة اللغة: التواصل والتكرار، اللغة تحدد التفكير، بنية النظام اللغوي تحدد رؤية العالم
٤ الوقف البيولوجي المشترك	تشومسكي	-...	اللغات لها مستويات سطحية مختلفة ومستوى عميق متشابه، أساس فطري مشترك لدى البشر

رابعاً: الفكر والترقي في المهارات اللغوية

اللغة العربية عند المهتمين بالفكر ليست موضوع اختصاص، وإنما هي وسيلة تواصل وتعبير وتفكير. وبقدر ما يملك الفرد من مفردات اللغة وتراكيبها ونصوصها المنظومة شعراً أو نثراً، يكون لديه مرونة في صياغة أفكاره والتعبير عنها بوضوح، ونفاذ حجة، وقوة تأثير. ومن الاهتمام باللغة العربية تفعيل قواعدها، لا سيما القواعد التي لا يهتم بها كثيرون، حتى بعض المتخصصين في اللغة، مثل قواعد النحت والاشتقاق. فبعض الأفكار الجديدة تحتاج إلى نحت مفردة لغوية جديدة أو اشتقاق تركيب لغوي جديد، وربما تصبح المفردة أو التركيب "بصمة" تُميّز من نَحَتْها أو اشْتَقَّها. وبعض الأفكار والمعاني تستقر في عقل السامع أو القارئ بصورة محببة إلى النفس، عندما تصاغ بطريقة موزونة يسهل حفظها وتذكرها بنصّها، على صورة بيت أو بيتين من الشعر.

ويكتسب الإنسان كثيراً من عناصر الملكة اللغوية من البيئة الاجتماعية الغنية التي ينشأ فيها. ولكن وَعَيْه على ضرورة النمو والترقي في اكتساب هذه العناصر، يزيد في إمكانية استفادته من تلك البيئة، ويحفزه على استخدام وسائل متعددة في تحقيق هذا النمو والترقي. ويبقى مع ذلك أن تعلم القرآن الكريم تلاوة وحفظاً يعدّ من أفضل الطرق والوسائل لتقويم اللسان وضبط الألفاظ وإغناء الأفكار، والترقي بمعاني الكتابة وألفاظها.

وقد أوضح ابن الأثير أثر القرآن الكريم في تنمية الملكة اللغوية في عدد من المواقع في كتابه "المثل السائر"، لعل أكثرها وضوحاً قوله: "إذا عَرَفَ مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن الكريم، اتَّخَذَهُ بَحْراً يستخرج منه الدرر والجواهر، ويودعها مطاوي كلامه، كما فعلتُه أنا فيما أنشأت من المكاتبات، وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة في استعمال أفانين الكلام."^(١) ومن ذلك ما أورده عن حفظ القرآن الكريم يقول: "الكاتب إذا أحبَّ الترقّي

(١) ابن الأثير، ضياء الدين (٦٣٧هـ). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانه، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د.ت.)، ص ٦١.

إلى درجة الاجتهاد في الكتابة، فإنه يحتاج إلى أشياء كثيرة، قد ذكرتها في صدر كتابي هذا، إلا أنّ رأسها وعمودها وذروة سنامها ثلاثة أشياء، هي حفظ القرآن الكريم، الإكثار من حفظ الأخبار النبوية، والأشعار.^(١)

والتفاعل الفكري بين الناس يلزمه استعمال وسائله المختلفة التي تؤدي كل وسيلة دوراً لا تؤديه الوسيلة الأخرى. فهذا التفاعل مثلاً لا يكفي فيه الاقتصار على المشافهة وإلقاء المحاضرات، ولا يكفي فيه الاقتصار على الكتابة وتبادل النصوص المكتوبة، فالمشافهة والمكاتبة أمران متكاملان؛ لأنّ كلاهما يؤدي دوراً مختلفاً عن الآخر. وتشير دراسات علم اللغة التطبيقي وعلم اللغة الاجتماعي إلى أنّ أصل جميع اللغات هو الخطاب الشفاهي. ومع أنّ الأعراق البشرية طورت آلاف اللغات، فإنّ القليل منها هو الذي بقي؛ لأنّ اللغات التي اختفت لم تكتب أبداً. وتقرر هذه الدراسات أنّ "الأصل الشفاهي للغة سمة لاصقة بها... والكتابة تعطي اللهجة قوةً تندُّ عن تلك التي تكون لأية لهجة شفاهية خالصة."^(٢)

فاللغة الشفاهية تؤدي مهمة مختلفة عن لغة الكتابة، فالأولى تمكن المتحدث من سحب المستمع إلى الخارج ليكون واحداً في الجماعة أو الجمهور، يحرك فيهم أفكاراً مشتركة، ويشير فيهم مشاعر مشتركة، ويكون الحديث أو الخطبة عاملاً من عوامل توحيد وعيهم وإدراكهم للموضوع الذي يجري الحديث عنه، وهو أمر يحرص عليه المفكر. أما المادة المكتوبة فإنها تستدعي أن يتوجه الفرد إلى قراءتها بمفرده، فتكون القراءة نشاطاً داخلياً يجذب القارئ إلى نفسه، ليتفحص وضوح الفكرة التي يقرأها، ويقيم حواراً داخلياً بين مضمونها والمضامين الفكرية ذات الصلة بها، حين يستدعي هذه المضامين من ذاكرته

(١) المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٢) أونج، والترج. الشفاهية والكتابية. ترجمة: حسن البنا عز الدين، مراجعة: محمد عصفور، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة عالم المعرفة رقم ١٨٢، شباط ١٩٩٤، ص ٥٤.

وبنيتة الفكرية السابقة، وهو أمر يحرص عليه المؤلف حين يكتب، على أمل أن يقوم الناس بقراءة أفكاره المكتوبة.

وإذا كانت المشافهة أقرب إلى الفطرة والطبيعة البشرية البسيطة، عندما نقارنها بالكتابة التي تطورت فيما بعد نتيجة تراكم الخبرة البشرية، واكتسابها لـ"تكنولوجيات" لاحقة، فإن ذلك لا يقلل من أهمية الكتابة وقيمتها، ذلك أن: "... الكتابة بالغة القيمة إلى حد بعيد، وأساسية حقاً، لتحقيق الإمكانيات الإنسانية الداخلية الكاملة، وليست التكنولوجيات مجرد عوامل مساعدة خارجية، بل هي تحولات داخلية للوعي، وتكون كذلك كأكثر ما تكون عندما تؤثر في الكلمة، ويمكن أن ترفع هذه التحولات من روح الإنسان المعنوية، وتزيد الكتابة من حدة الوعي. والغربة عن الوسط الطبيعي يمكن أن تنفعنا، بل هي في الحقيقة جوهرية للحياة الإنسانية التامة من جهات عديدة، ونحن لكي نحيا ونتفاهم أصلاً، لا نحتاج إلى القرب فحسب، بل نحتاج إلى البعد كذلك."^(١)

وتظهر قيمة الكتابة في أثرها الباقي مع الزمن، وربما يستمر تأثيرها حتى لو تم نقض محتواها، وتفنيده تماماً: "لكن المؤلف لا يمكن الوصول إليه في أي كتاب، فليس ثمة طريقة مباشرة لدحض نص، فحتى بعد التنفيذ الكلي والمدمر لأفكار الكتاب، يظل النص يقول ما قاله من قبل تماماً. وهذا أحد الأسباب لشيوع عبارة "الكتاب يقول"، بمعنى أن القول صحيح، وهو أيضاً أحد الأسباب التي من أجلها أحرقت الكتب، والنص الذي يقول ما يعرف العالم كله أنه باطل، سيظل يقول هذا البطلان إلى الأبد ما بقي النص، فالنصوص عصية بطبيعتها."^(٢)

وإذا كانت الفلسفة صورة متقدمة من إنجازات الفكر البشري، فإنها أبعد ما تكون عن العقل الشفاهي. إن "الفلسفة إذا تأملت في طبيعتها، فإن عليها أن تفسر كون التفكير الفلسفي لا يمكن أن يتم بواسطة تعقل الإنسان وحده، بل

(١) المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٨.

بوساطة العقل الإنساني الذي ألف تكنولوجيا الكتابة التي استوعبها استيعاباً عميقاً... والكتابة تفتح أمام الكلمة وأمام الوجود الإنساني إمكانات لا يمكن أن تحتلها من دون الكتابة." (١)

وقد تطورت تكنولوجيا المشافهة والمكاتبه فأصبحت متاحة للاستماع والقراءة في أي وقت وبصورة متكررة، بل وبتقانات وأساليب جديدة تماماً، تتيح للمستمع أو القارئ أن يتفاعل من المواد المسموعة والمقروءة، فيطلب التوضيح، أو يلجأ إلى المناقشة والموافقة أو الاعتراض، وقد تم ذلك كله مع تطور أساليب النشر الإلكتروني للمحاضرات والخطب، وللمقالات والكتب. وأصبحت هذه الفرص متاحة للناس عبر شبكات تواصل دولية يدخل إليها الملايين في كل لحظة.

لقد نقل التسجيل الإلكتروني أساليب التفاعل الفكري بالمشافهة والكتابة إلى عصر جديد يتمكن فيه صاحب الفكر أن يتواصل مع أعداد كبيرة جداً من الناس، فيستمع، ويتحدث، ويتحاور، ويقراء، ويكتب. وليس ثمة شك في أن على المهتم بالتفاعل الفكري، مثقفاً كان، أو مفكراً، أو داعية، أو مصلحاً، أن يلج هذه الساحات المفتوحة وأن يكون له فيها نصيب، تأثراً وتأثيراً.

خامساً: العبث الفكري واللغوي

ومن الضروري الوعي بالجهود التي تستهدف العبث بالفكر واللغة؛ ذلك أن مضامين اللغة هي معان تتفاوت في قيمتها، وتتفاوت في مصداقيتها، ويكون هذا التفاوت أحياناً بحسب مستعمل اللغة ومراده منها، فالبارة قد تكون صادقة، وقد تكون كاذبة، وقد يكون الكذب جهلاً، وقد يكون قصداً. والمتكلم يختار ألفاظ اللغة بصورة تعبر عن غرضه النبيل أو الخبيث، وقد يكون لهذه الألفاظ ظاهر صريح، أو باطن خفي، وقد تجد بعض الناس يؤولون ألفاظ اللغة فيحرفون الكلم عن مواضعه ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٩-٣٠٢

سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِالسِّنِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ
وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴿ [النساء: ٤٦] وقصة الانسحاب "من الأراضي المحتلة" عام
١٩٦٧، أو الانسحاب "من أراضٍ محتلة" معروفة لدى أبناء الجيل الذي ينتمي
إليه كاتب هذه السطور. ولفظ الرجعية كان -في حقبة الخمسينات والستينات
من القرن العشرين في البلاد العربية- وصفاً تكرر بسببه السلبي بفعل جهود
بعض السياسيين لمحاربة الاتجاهات المحافظة عموماً والإسلامية خصوصاً.
ولفظ الإرهاب منذ مطلع هذا القرن الحادي والعشرين أصبح يطلق على كل من
يعارض بعض السياسات الدولية أو المحلية، حتى لو كانت معارضته كلمة تقال
أو تكتب. وقد شرعت قوانين مقاومة الإرهاب في عدد من البلدان العربية لتطال
أصحاب الكلمة، أو حتى الإشارة، التي يسهل على مطبقي القوانين تفسيرها
بأنها مناهضة للنظام، أو تحريض على هذه المناهضة!

وإذا كانت اللغة أداة للتعبير، ووسيلة لإيصال فكرة معينة بين متكلم
ومستمع، فإنها كذلك وسيلة لإحداث تأثير محدد لدى المستمع، ربما يقتصر
التأثير في فكر ذلك المستمع، وقد ينتقل إلى التأثير في سلوكه، لذلك فليس
من المهم أن تتطابق الأفكار المقصودة من ألفاظ اللغة مع الدلالات المباشرة
لهذه الألفاظ فحسب، وإنما من المهم كذلك النظر في الأثر الذي تحدثه هذه
الألفاظ لدى المتلقي. ومن هنا يهتم متخصصو الدعاية والإعلان والإعلاميون
والسياسيون والدعاة، باختيار الألفاظ التي تتناسب مع التأثير المنشود الذي
يرغب هؤلاء في إحداثه في نفس المستمع أو القارئ.

ومن المعروف أن الإنسان يستطيع التفكير والتعبير عما يفكر به دون
استعمال اللغة الطبيعية، التي تستخدمها الجماعة البشرية في التعبير عن مضامين
الفكر. فالرسامون يعبرون بالرسم والألوان عن الأفكار التي تدور في أذهانهم،
والخريطة الجغرافية هي وصف بالأشكال والخطوط والألوان تعبر عن أنواع
من الأشياء وحجومها وخصائصها من سهل وجبل ونهر وبحر، دون الحاجة

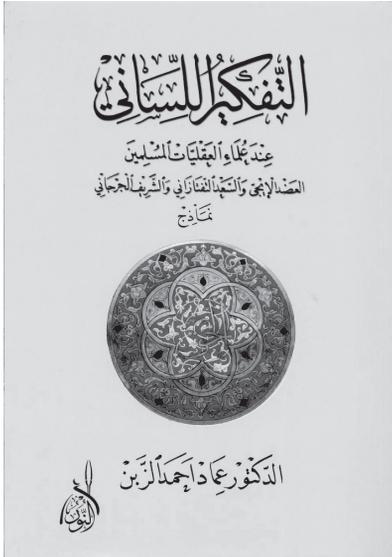
إلى النطق بالكلمات أو كتابتها. وتعبّر الصورة في بعض الأحيان عن دلالات لا تصل إليها ألف كلمة. ومع وجود طرق مختلفة للتعبير عن الفكر، فإن النظام اللغوي يبقى أكثر الطرق قدرة على التعبير عن الفكر البشري؛ ذلك أن الفكر يتصف بدرجة عالية من التعقيد، يحتاج من أجلها إلى طريقة مكافئة له.

وتزداد خطورة العبث باللغة في هذه الأيام التي أصبحت فيها وسائل الإعلام التقليدية والحديثة متاحة في كل لحظة، وخلفها أنظمة ومؤسسات واتجاهات، ولكل منها أهدافها في الوصول إلى عقول الناس وقلوبهم، وتستخدم في ذلك أنواعاً متعددة من المؤثرات التي تصل في قدرتها إلى حد برمجة العقول وغسيل الأدمغة وتقليب القلوب! إن ذلك لا يعني -بطبيعة الحال- أن جميع الناس في أي مجتمع يتنازلون بسهولة عما ترسخ في قناعاتهم وأعرافهم لعمليات التأثير اللغوي في النفوس؛ إذ من المتوقع أن يكون كثير من الناس على درجة من الوعي بحيث يدركون مقاصد الخطاب اللغوي وأهدافه، فيرفضون ويقاومون ما لا ينسجم مع قناعاتهم الراسخة.

سادساً: الكلام وحديث النفس

ومن موضوعات العلاقة بين الفكر واللغة، التمييز الذي قدمه علماء الكلام المسلمون، بين الكلام الحسي، والكلام النفسي. ومقولة الكلام النفسي أساساً جاءت من وصف القرآن الكريم بأنه كلام الله، ومن ثم تقرير التباين بين كلام الله وكلام البشر، فالله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. فالذين يقولون بالكلام النفسي وهم الأشاعرة على وجه التحديد، يعنون به الكلام الذي يناسب الذات الإلهية المتعالية عن الحدوث والفناء، فهو كلام لا يتكيف بصوت أو هيئة، وإنما هو صفة قديمة غير حادثة. لكن البحث في الكلام النفسي انتقل إلى الكلام البشري، فقالوا: إن الكلام البشري موجود حسي يفيض عن موجود نفسي، وعالجوا عدداً من المسائل منها حقيقة الكلام النفسي وماهيته، والبحث في العلاقة بين الكلام الحسي والكلام النفسي،

والبحث في خصائص الكلام النفسي. ويناقدش عماد الزبن مقولات ثلاثة من علماء العقلیات المسلمین فی موضوع الکلام النفسی مناقشة تفصیلة، وهؤلاء العلماء الثلاثة هم: عضد الدین الإیجی (ت ٧٥٦هـ)، وسعد الدین التفتازانی (ت ٧٩٢هـ)، والشریف الجرسانی (ت ٨١٦هـ).^(١) ویتوصل الباحث إلى أن هؤلاء العلماء الثلاثة قد تنبهوا لمسألة: "نظام القواعد النفسية والعقلية الذي تتأسس عليه مباحث الكلام الحسي، وتعد بحوثهم تبصراً مبكراً في استراتيجيات عميقة لإنتاج الفكر الإنساني، تربط بين الوجود الكلامي الحسي وتفاعلات نفسية وعقلية عميقة، وتشي بما وصلت إليه أنظارهم من قدرة معرفية على تجاوز ظواهر اللغة، ومحاولة تلمس مصادر الوجود الكلامي في مساحات وراء الحس، ولا يبعد أن نعدّ هذه البصائر اللسانية مقدمة لافتراض وجود حقيقة نفسية psychological reality لأنظمة الكلام الإنساني وقوانين هذا الكلام..."^(٢)



والكلام النفسي هذا له علاقة بالبيئة والمحيط الخارجي والظواهر التي تلاحظها الحواس، "فالأعيان الخارجية عندما تقع في دائرة ملاحظة النفس الإنسانية، تولد فيها الحاجة إلى التعبير، وهذا من شأنه الدفع إلى حصول التفاعلات الكلامية النفسية، التي تمثل فيض الكلام النفسي، الباعث بدوره على فيض الكلام الحسي، ومن هنا جاء ربط هؤلاء العلماء الخبر النفسي بالنسب الخارجية، وجعل

(١) الزبن، عماد أحمد. التفكير اللساني عند علماء العقلیات المسلمین، عمان: دار النور المبین للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م، ص ٣٠٧-٣٢٥.

(٢) وقد تكون هذه البصائر شبيهة بما قال به تشومسكي عن الأساس الفطري والكليات اللغوية.

النسب الخارجية عيار صحة النسب الكلامية... ثم تأتي الظواهر الداخلية، وهذه عوامل مركزية أيضاً، والمقصود هنا خصوصية العلم والفكر، والدوافع الغريزية، والمقتضيات الجسدية والنفسية، فكل هذه البواعث تولد الحراك النفسي الكلامي الداخلي، وتدفع النفس إلى التعبير عن نداءاتها المتجددة.^(١)

وبقطع النظر على الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة، وبين المتكلمين والسلفية، حول جواز القول بالكلام النفسي عن كلام الله سبحانه أو رفض القول بذلك، فإن الذي يعنينا في هذا السياق هو الكلام البشري. فثمة صورة للكلام المنطوق باللسان، وثمة حديث النفس الذي لا يُنطق به، والذي يسميه بعضهم بالكلام النفسي، ويرفضه بعضهم الآخر مكتفين بتسمية ذلك "حديث النفس" وليس الكلام النفسي. وثمة جدل حول ما يصح إطلاق لفظ الكلام عليه، فهل القول كلام، أم غير كلام؟ ومع ذلك فإن حديث النفس واختلافه عن الكلام اللفظي أمران معروفان دون خلاف. فالإنسان يحدث نفسه بما لا يقوله، والله يعلم ما يظهر بالكلام وما يخفى في الصدر. ويستشهد القائلون بحديث النفس أو الكلام النفسي بالكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكلام العرب، من ذلك:

- من القرآن الكريم، قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَ وَكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

- ومن الحديث حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه عز وجل قال: إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

(١) الزين، التفكير اللساني عند علماء العقليات المسلمين، مرجع سابق، ص ٣٢٤.

ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة." (١) وحديث أبي هريرة مرفوعاً، قال: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ). (٢)

- ومن كلام العرب قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وكنت قد زوّرتُ مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها... والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سَكَتَ." (٣)

- ومن شعر محمد إقبال الذي ترجمه إلى العربية عبد الوهاب عزام بيت، في معنى خواطر النفس التي يُبين عنها اللسان وهو:

صعدت إلى شفتي خواطر مهجتي ليبين عنها منطقي ولساني

ومن أبرز من استوفى الكلام عن حديث النفس والكلام النفسي القاضي أبو بكر الباقلاني. (٤)

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال ذلك صريح الإيمان. (٥)

(١) البخاري. صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة الحديث رقم ٦٤٩١، ص ١٦١٤.

(٢) البخاري. صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الأيمان والنذور باب إذا حنث ناسياً في الأيمان، رقم الحديث ٦٦٦٤، ص ١٦٥١، والحديث رقم ٦٤٩١، ص ١٦١٤.

(٣) البخاري. صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الحدود/ باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، حديث (٦٨٣٠). ص ١٦٩٠.

(٤) الباقلاني، القاضي أبو بكر (ت ٤٠٣هـ). الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، ط ٢، ٢٠٠٠م، ص ١٠١-١٠٧.

(٥) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، حديث رقم ٢٠٩، ج ١، ص ١١٩.

سابعاً: الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية وأثرهما في الفكر والثقافة والهوية

تفاوتت آراء الباحثين العرب حول دلالة مصطلح الثنائية اللغوية (Bilingualism) ومصطلح الازدواجية اللغوية (Diglossia) نظراً لاعتمادهم على ترجمة المصطلح الأجنبي للمفهومين، فقد لوحظ أن اللغات الأوروبية التي يعود إليها الباحثون العرب تستخدم المصطلح بطريقة غير منتظمة التحديد.⁽¹⁾ ويبدو أن الاتجاه الأقرب إلى الدلالة المباشرة هي أن الازدواجية اللغوية تعني وجود مستويين لغويين للغة الواحدة؛ مثلاً اللغة العربية الفصحى والعامية. وهي صفة للمجتمع بصورة عامة، ترسخ عبر فترة من الزمن لا تقل عن ثلاثة أجيال، أما الثنائية اللغوية فهي تعني وجود لغتين مختلفتين، لغة وطنية ولغة أخرى، وقد تكون هذه اللغة الأخرى، لغة أجنبية تستعمل من قبل أفراد عند الحاجة أو في مجالات ضيقة، أو لغة ثانية تستعمل على نطاق واسع في المجتمع، أو ممن اكتسبوا الثنائية اللغوية عن طريق النشأة في بيئة ثنائية اللغة أو عن طريق التعليم.⁽²⁾ فاللغة الأجنبية ربما تصبح موازية للغة القومية، وربما يتداخل استعمال اللغتين بصورة يعجز كثير من أفراد المجتمع عن التعبير عن مراده من الكلام بلغة واحدة، لا سيما إذا غلب استعمال اللكنة الأجنبية بصورة تؤثر على بناء المفاهيم والصور الذهنية بهذه اللغة، وليس باللغة الأم.

(1) Chin, Ng Bee and Wigglesworth, Gillian. *Bilingualism*, New York, Rutledge Applied Linguistic. 2007, pp 5-8. See also:

- Myers-Scotton, Carol. *Multiple Voices: An Introduction to Bilingualism*, New York: Blackwell Publishing Ltd, 2006, pp Chapter 2 on Dialect pp. 16-34, Chapter 3 on Bilingualism pp. 35-66.

- محمود، إبراهيم كابد. العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية. المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الإنسانية والإدارية)، المجلد الثالث، العدد الأول اذو الحجة ١٤٢٣ / مارس ٢٠٠٢م، ص ٥٣-١٠٨.

(٢) الموسى، نهاد. ما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون. ندوة الازدواجية في اللغة العربية، عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٨٨م، ص ٨٤.

وثمة دراسات كثيرة حول الازدواجية اللغوية، والثنائية اللغوية يعرفها أهل الاختصاص في الدراسات النفسية واللغوية والتربوية. وقد تنوعت هذه الدراسات تنوعاً كبيراً في مرجعياتها الفلسفية، والاجتماعية والسياسية، وفي مناهجها النظرية والميدانية المسحية أو التجريبية، وفي نتائجها التي تكشف عن آثار سلبية أو إيجابية على تعلم الفرد وتشكيل شخصيته وانتمائه، وعلى المجتمع وتماسكه واستقرار هويته... إلخ.

والذي يهمنا في هذا المقام هو أثر هاتين الظاهرتين على عملية التفكير ومستوى الدقة والوضوح في التعبير عن الأفكار بصورة تيسر فهمها وتمثلها، ففي مجال الازدواجية اللغوية نجد دراسات جادة تؤكد أن اللهجة "العامية قاصرة عن أن تفي بالتعبير عن الأمور الثقافية والفكرية والفلسفية، وعلى المتكلم في هذه المواضيع أن يعود إلى الفصحى إذا أراد التعبير عما يقول بشيء من الدقة."^(١)

وعلى كل حال فإن المسافة بين العامية والفصحى تضيق تدريجياً بانتشار التعليم وزيادة الوعي والثقافة بها. ويسهم القرار السياسي في حلّ الجزء الأكبر من المشكلات التي تعزى إلى وجود اللهجة أو اللهجات العامية. ولنتذكر أن قبائل العرب كانت تتكلم باللهجات متعددة، فلما أنزل القرآن الكريم وكتب باللهجة قريش، تكلم بها سائر العرب، ولا يزالون. ولنتذكر كذلك أن اللغة الفرنسية الحالية المستعملة في التعليم والإعلام والتعامل الثقافي قد بدأ اعتمادها ثم سادت بقرار ثوري، وأصبحت تعبيراً عن الثقافة الفرنسية منذ الثورة الفرنسية؛ إذ جرى قرار اعتماد اللهجة الباريسية من بين اللهجات الأخرى.

وقد لا تكون الازدواجية اللغوية على نفس القدر من الخطورة بالمقارنة بالثنائية اللغوية، فقد أظهرت نتائج كثير من البحوث التي جرت في بلدان

(١) الزغول، محمد راجي. الازدواجية في اللغة العربية، ورقة قدمت إلى ندوة الازدواجية اللغوية، التي نظمتها مجمع اللغة العربية الأردني والجامعة الأردنية، عمّان، ١٩٨٨.

كثيرة وجود مشكلات متعددة لغوية ونفسية واجتماعية، نتيجة التداخل في النظام اللغوي للغتين. ومن الموضوعات الذي حظيت بكثير من المعالجة ظاهرة ما يسمى الإنهاك اللغوي (attrition) الناتجة عن ثنائية اللغة تتحدث عنها الكتب والدوريات العلمية المتخصصة، لا سيما في مجال اللسانيات التطبيقية (Applied Linguistics).^(١)

يضاف إلى ذلك أن البحوث اللغوية والتربوية أوضحت أن التعليم بلغة الأم يرسخ ما يكتسبه المتعلمون بها ويسر عليهم اكتسابها، وأن التحصيل بلغة ثانية يؤدي إلى اضطرابات في تحصيل المعرفة أولاً وفي استخدامها ثانياً. وتشير تقارير التنمية البشرية لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي للدول التي تحتل موقع الصدارة وللدول المرشحة للصدارة أن استعمال اللغة القومية في التعليم، ومن ثم في مختلف مناشط المجتمع، يساعد في دفع المجتمع إلى الأمام، وهذا لا يعني عدم تعليم اللغة الأجنبية في صورة مادة من مواد المنهاج الدراسي، لما في ذلك من توسيع دائرة الاستفادة من مصادر المعرفة والثقافة المعاصرة.^(٢)

وعلى الصعيد الاجتماعي العام تعد اللغة في أي مجتمع العنصر الأكثر أهمية من عناصر الثقافة في ذلك المجتمع، وبالنسبة لمجتمعاتنا العربية، ترتبط اللغة العربية بالإسلام ارتباطاً وثيقاً، ليس فقط في تشكيل الثقافة العربية الإسلامية في المجتمعات العربية، وإنما دَخَلَ الإسلام واللسان العربي الذي جاء به الإسلام في ثقافة الشعوب المسلمة غير العربية. وفي بيان علاقة اللغة بالثقافة المجتمعية يصك الذوادي مصطلح "الرموز الثقافية الإنسانية" التي يَعدُّها "العناصر الحاسمة

(1) Chin, Ng Bee and Wigglesworth, Billian. *Bilingualism*, pp 70-78 see also:
- Bylund, Emanuel. Maturational constraints and first language attrition. *Language Learning*; 59(3), September, 2009, 687-715.

(٢) عبد العزيز محمد حسن، اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية في جمهورية مصر العربية: الواقع والتحديات واستشراف المستقبل. الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠٠٥، عمان: منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠٠٥م، ص ١٢٧-١٨٨.

التي تميّز الإنسان" عن جميع الكائنات الأخرى، ويقرر وجود: "اتفاق بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين اهتموا أكثر من غيرهم بدراسة عالم الرموز الثقافية عند الإنسان، بأنّ اللغة في شكلها المنطوق والمكتوب هي أهم تلك الرموز الثقافية جميعاً، والتي بدونها لا يمكن الحديث لا عن بقية الرموز الثقافية الأخرى، ولا على سيادة الإنسان على الأرض، ولا في الفضاء. وإذا كانت اللغة هي العمود الفقري بالنسبة إلى ظاهرة عالم الرموز الثقافية فإنها بحسب رؤيتنا تصبح أكثر الرموز الثقافية ترشحاً لا إلى حملها البصمات الميتافيزيقية في كينونتها فقط، وإنما أيضاً تصبح المصدر الرئيس في تمكين الرموز الثقافية الأخرى من التأثير بالومضات الماورائية."^(١)

ومن هنا يُعدُّ الذوادي التبعية الثقافية أخطر من التبعية السياسية والاقتصادية وغيرها من التبعيات؛ لأن الغزو الثقافي والاستلاب الثقافي والامبريالية الثقافية وأمثالها من المصطلحات هي في الحقيقة تعبيرات عن ظاهرة تفشي رموز ثقافة الآخر. "فالتبعية الثقافية للآخر تعني تبعية الروح الثقافية الرموزية للفرد والجماعة لهذا الآخر، الذي قد يكون هو العدو. وتمثل تبعية الروح الثقافية الرموزية للآخر المس بأهم عناصر تكوين هوية الفرد والمجموعة... والانتشار الواسع لاستعمال اللغة الإنجليزية (الأمريكية) أو الفرنسية في مجتمعات إفريقيا وآسيا، بدل استعمال اللغات الوطنية والمحلية لهذه الشعوب، لا يمثل فقط تفقيراً لتلك اللغات واللهجات... وإنما ينطوي أيضاً على أن الجهاد من أجل الفوز بالاستقلال اللغوي والثقافي سوف لن يكون أمراً هيناً، وذلك يعني في نهاية الأمر أن عمر التبعية اللغوية الثقافية، متى تجذرت الرموز الثقافية للآخر بالمجتمع التابع ليس بقصير."^(٢)

ولكن الازدواجية اللغوية تذكرنا بما هو أخطر من ذلك بكثير؛ إنَّها

(١) الذوادي، محمود. الثقافة بين تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الاجتماعية. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٦م، ص ١١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٥-١٣٦.

الازدواجية الفكرية! فالمواطن في مجتمعنا المعاصر يعيش في محيط من الثقافة تسهم في تشكيلها مؤسسات المجتمع المختلفة لا سيما أجهزة الإعلام والتواصل المعاصر. وهي ثقافة تسهم إسهاماً عميقاً في طريقة تفكير الإنسان. ومع أن المواطن في مجتمعاتنا ينشأ ضمن هوية وانتماء ديني تقليدي يتحدث عن المثال الذي ينبغي التوجه إلى تحقيقه، فإن الثقافة المعاصرة تكرر واقعاً بعيداً عن هذا المثال، تغلب عليه سطوة المادة والمال والسياسة.

وفي هذا المجال يسهب مالك بن نبي في الحديث عن الآثار المدمرة لازدواجية اللغة وذلك في كتابه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، فيتحدث عن خيانة الأفكار، وانتقام الأفكار، وموت الأفكار. فعندما تموت الأفكار تصبح العقول فارغة، وتستسلم اللغة للعجز، ويصبح المجتمع في حالة طفولية، يعبر عن غياب الأفكار بطرق طفولية بالحركة أو الصوت، "فحين لا توجد الأفكار لا توجد الكلمات... (و) ما نفهمه جيداً نعبّر عنه بوضوح، وتأتي الكلمات لتقوله بسهولة."^(١)

ثم يفرد مالك بن نبي فصلاً بعنوان الأفكار وازدواجية اللغة، وهو يتحدث عن ازدواجية اللغة بمعنى وجود لغة أجنبية يستعملها المجتمع إلى جانب اللغة الوطنية، ويعدّها غرساً من غراس العصر الاستعماري؛ إذ غرس المستعمر "فيما غرس من الظواهر المتصلة بالهياكل الاقتصادية والاجتماعية والإدارية في البلاد المستعمرة ظاهرة خاصة، هي ازدواجية اللغة، التي تتعلق ببناء الثقافة والعقلية، وبأفكاره... إن النتائج الاجتماعية ليست أبداً واحدة، ففي حالة تصبح ازدواجية اللغة مفجراً يعيد الحركة للعالم الثقافي... (وفي بلادٍ أخرى) فإنّ ازدواجية اللغة ليست فقط مجرد مفجّر، بل هي أكثر من ذلك ديناميت قُدِفَ في العالم الثقافي، وإذا كان لم

(١) ابن نبي، مالك. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، تقديم: عمر مسقاوي، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٨م. ص ٦٦.

ينسف كل شيء فإن انفجاره أحدث أغرب الانشاقات. "ففي الجزائر مثلاً شمل الانشقاق الذي أحدثته ازدواجية اللغة القمة والقاعدة، وجعل منهما ليس "نخبتين، وإنما مجتمعين متراكبين، أحدهما يمثل البلاد في وجهها التقليدي التاريخي، والثاني يريد صنع تاريخ ابتداءً من الصفر. فالأفكار المطبوعة للأولين والأفكار الموضوعية للآخرين، لا تستطيع التعايش في عالم ثقافي واحد. فالمجتمعان يتحدثان بلغتين مختلفتين." ويعطي المؤلف أمثلة عديدة على آثار هذه الازدواجية اللغوية في تشويه المصطلحات، وتغيير دلالاتها، وتعطيل القدرات الإبداعية، ويختم الفصل بالقول: "فأقل ما يمكن قوله في هذا المقام: هو أن ازدواج اللغة يمكن أن يتولد عنه نتائج تتعارض كلياً مع الثقافة الوطنية."^(١)

ونستدرك مرة أخرى بالقول إننا لا نعنى بذلك نبد تعلم اللغة الأجنبية، أو اللغات الأجنبية؛ فتعلمها أمر مهم ومفيد في توسيع ثقافة الإنسان المفكر، أو الذي يتحدث بالفكر، ولصفي الدين الحلي بيتان جميلان:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه فتلك له عند الملمات أعوان
تهافت على حفظ اللغات مجاهداً فكل لسان في الحقيقة إنسان

ومع ذلك فإن كثرة استخدام المصطلح الأجنبي في الحديث، لا سيما الشفاهي ليس أمراً محموداً، ويُعدُّ عجزُ الشخص عن التعبير بالعربية عن الفكرة والتجاؤهُ إلى المصطلح الأجنبي نقصاً غير لائق في حقّه.

خاتمة:

عالجنا في هذا الفصل العلاقة بين الفكر واللغة، من خلال سبعة عناوين فرعية، هي: العلاقة في بعدها التاريخي، والبيان موضوعاً لهذه العلاقة، والنظريات التفسيرية لهذه العلاقة والنظر في العلاقة التبادلية بينهما، والفكر

(١) المرجع السابق، ص ١٣٧-١٤٤

بين اللغة المنطوقة والعبث الفكري واللغوي، وحديث النفس، والازدواجية والثنائية اللغوية. وقد تبين لنا أن كل موضوع من هذه الموضوعات فيه مشاهدات وصفية، وخبرات علمية، ونظريات تفسيرية، ووجهات نظر مختلفة. كما تبين لنا أن موضوع العلاقة بين الفكر واللغة كان ولا يزال موضوع بحث ونظر منذ القديم، وله في التراث الإسلامي نصيب ملموس، وأن الإنسان يحدث نفسه بالأفكار قبل أن يحدث بها غيره، ورجحنا القول بالعلاقة التبادلية الوثيقة التي تظهر في صور التأثير والتأثر بين الفكر واللغة، فإذا أردنا أن نحقق البناء الفكري لدى الفرد أو المجتمع، فلا بد من النظر في المهمة التي تؤديها اللغة في هذا البناء. كذلك فإن درجة وضوح المفاهيم وتبلور الأفكار، يُعني اللغة ويُرقّي مهاراتها. وأخيراً تبين لنا أن لموضوع الازدواجية اللغوية جوانب متعددة يحيل بعضها على الازدواجية الفكرية، وأن للموضوع أبعاداً نفسية واجتماعية تستدعي الاهتمام المعالجة.

لكن من الواضح أنّ مادة هذا الفصل لم تستوف الحديث عن العلاقة بين الفكر واللغة، فهو موضوع واسع، فيه من الكتب والمراجع والدراسات شيء كثير، ولدراسة الموضوع مداخل متعددة، ويمكن لكل مدخل approach أن يقدم الموضوع بطريقة مختلفة عن المدخل الآخر. فثمة علاقة مهمة بين الفكر واللغة من الناحية الفلسفية، أو التاريخية، أو النفسية، أو الاجتماعية، أو السياسية... إلخ. وما أثبتناه هنا هو نبذ قصيرة عن العناوين السبعة المشار إليها.

الفصل السادس

مراكز إنتاج الفكر، ومختبرات بناء الأفكار

مقدمة

أولاً: تطوير الأفكار بين الإبداع الفردي والعمل المؤسسي

ثانياً: أهمية التخصص والتفرغ والعمل في فرق البحث

ثالثاً: نشأة مراكز البحث واتجاهات عملها

رابعاً: البحث في موضوع مراكز البحث

خامساً: مراكز البحث والإعلام

سادساً: مراكز البحوث في العالم العربي

سابعاً: قضايا المسلمين في مراكز البحث الغربية

ثامناً: تعريف ببعض مراكز البحث في العالم

خاتمة

مراكز إنتاج الفكر، ومختبرات بناء الأفكار

مقدمة:

عرفت المجتمعات المعاصرة مؤسسات للبحوث والدراسات، تتخصص في إنتاج الأفكار وتطويرها وصياغتها. وتحمل هذه المؤسسات أسماء مختلفة منها: مركز، أو معهد، أو منتدى، أو جمعية، ... إلخ. وقد أطلق عليها باللغة الإنجليزية عبارة Think tanks، وترجم هذه العبارة بطرق مختلفة، منها ما يقارب دلالة المعنى اللغوي فيقال: خزانات الأفكار، أو صهاريج الأفكار، أو مستودعات الأفكار، أو صوامع التفكير، أو مختبرات صنع الأدمغة، ...، ومنها ما يحاول إعطاءها وصفاً سلبياً مثل: أدمغة لحرب الأفكار. أو مصانع أسلحة الفكر، وأغلبها يكتفي بالدلالة العملية المباشرة لعنوان المؤسسة: مركز بحوث أو مركز دراسات.

ومن الواضح أن هذه المؤسسات لا تنتج الأفكار من أجل تخزينها، لتصبح وثائق تشير إلى منجزات المؤسسة، وتزيد في بنود السيرة الذاتية لها، وإنما تُنتجها من أجل أن تتمكن الجهات المستهدفة بهذه الأفكار من الاستعانة بها في اتخاذ القرارات المناسبة. ولذلك فإن هذه الجهات المستهدفة تتطلع أن تقوم هذه المؤسسات بالمهام المنوطة بها، ومن أجل ذلك فإنها توفر لها الدعم المالي، والحرية في تنظيم النشاطات اللازمة من اجتماعات ومؤتمرات ومنشورات، التي يشترك فيها باحثون وخبراء ومختصون بموضوع البحث، من داخل المؤسسة وخارجها، ومن داخل الدولة وخارجها كذلك.

ولهذه المؤسسات برامج عمل ومشروعات وخطط مرحلية، تضعها وفق أولويات معينة تؤثر فيها الظروف والأوضاع العامة، أو حاجات الجهات

المستهدفة أو الممولة، إما لحل المشكلات القائمة أو المتوقعة، أو لرسم مسارات المستقبل، وَفَقَّ ما هو محتمل، أو ممكن، أو ما يجب أن يكون! ومن الواضح كذلك أنَّ هذه المؤسسات تتنوع موضوعات اهتمامها، وتشمل مسائل السياسة الداخلية، والعلاقات الدولية، وقضايا الاقتصاد والتسويق والتنمية، وموضوعات البيئة، وقضايا الأسرة، والطفولة، والتعليم، وغير ذلك. وسوف نجد من هذه المؤسسات ما يدور عمله في نطاقات محلية ضيقة، أو إقليمية محددة، أو دولية عامة.

ويحاول هذا الفصل أن يعرض بإيجاز شيئاً من تاريخ هذه المؤسسات، والفكرة الأساسية التي تقوم ممارساتها عليها، والمهام التي تؤديها، ونماذج متنوعة من هذه المؤسسات في بلدان العالم، إضافة إلى إطلالة سريعة على وضع مراكز البحوث في العالم العربي.

أولاً: تطوير الأفكار بين الإبداع الفردي والعمل المؤسسي

الإنسان مدنيٌّ بالطبع، لا يستطيع أن يوفّر متطلبات حياته بمفرده، لذلك فهو يعيش مع غيره من الناس في مجموعات، وبين أفراد كل مجموعة علاقات اجتماعية تقوم على التعاون المشترك، والاعتماد المتبادل، والإنتاج الجماعي في معظم متطلبات الحياة. ومع ذلك فإنَّ تاريخ الفكر البشري يشير إلى أنَّ التفكير والإنتاج الفكري كان في معظم فترات التاريخ عملية فردية إلى حد كبير. لكن بعض جوانب الحياة الاجتماعية تتطلب التفكير الجماعي، سواءً من حيث تداول التفكير في موضوع معين، بين مجموعة من الأفراد، للوصول إلى فكرة مشتركة، يقول بها أفراد المجموعة، أو من حيث تداول التفكير في فكرة فرد واحد، للوصول إلى قناعة مشتركة بين أفراد المجموعة. وقد يتم تحقيق أحد هذين المسارين من التفكير الجماعي بصورة عفوية غير مخطط لها، وقد يتم ذلك باتفاق مسبق على خطة تتحدد فيها أدوار المشاركين

في التفكير وخطوات عملهم للوصول إلى نتيجة محددة، وهذا هو شأن البحث العلمي الذي تقوم به مؤسسات متخصصة.

تمرين: شهد تاريخ الأفكار أمثلة كثيرة من التفكير الجماعي العفوي، وأمثلة أخرى من مواقف التشاور والتداول المخطط له.

* يقترح تكوين فريقين، يتكون كل منهما من ٤-٦ أفراد لعمل ما يأتي:

- الفريق الأول يتذاكر ويتفاكر في أمثلة من التفكير الجماعي العفوي في التاريخ الإسلامي (ثلاثة أمثلة).

- والفريق الثاني يتذاكر ويتفاكر في أمثلة من التفكير الجماعي المبرمج في التاريخ الإسلامي (ثلاثة أمثلة).

ولا شك في أنّ المؤسسات التعليمية ومجالس المناقشة والمحاورة والمناظرة والجدل... كانت تغذي قدرة الفرد على تطوير الأفكار وصياغتها، كما عُرف ذلك في محاورات أفلاطون، ومناقشات أرسطو منذ أيام اليونان.

وعرفت بعض فترات التاريخ أنواعاً من التفكير والبحث الجماعي، والتشاور العلمي، فالإمام أبو حنيفة النعمان -رحمه الله- كان يحاور تلاميذه، فيعطي كلّ منهم رأيه في المسألة ويتجادلون فيها، حتى يتم استيعابها وفهمها، "وبعد أن يقلّبوا النظر من كل نواحيه يُدلي هو بالرأي الذي تنتجه هذه الدراسة، ويكون صَفْوَهَا، فيقر الجميع به ويرضونه." (١) فكان منهجه أشبه بالمدارسة منه إلى شيخ يُلقي درسه على تلاميذه. والمعروف أن أصحاب أبي حنيفة هم الذين كتبوا فِقْهَهُ وجمعوا ما كان ينتهي إليه دَرْسُهُ، بل إنَّ أكثرهم اهتماماً بتدوين فقه أستاذه وهو الأمام محمد بن الحسن، كان يكتب ما يحفظه هو من نتائج الدارسة، أو ما سمعه من زميله أبي يوسف، ثم يعرض ما يكتبه على أبي يوسف. وبذلك كان تدوين الفقه الحنفي أشبه ما يكون بالفقه الجماعي.

(١) أبو زهرة، الإمام محمد. أبو حنيفة حياته وآراؤه وفقهه، القاهرة: دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٤٢، ص ٨٧.

واختار إخوان الصفا أن يعبروا عن مواقفهم وآرائهم بصورة تخفي شخصيات الأفراد الذين كانوا يشكّلون المجموعة.

وقد اعتمد المعهد الملكي للشؤون الدولية الذي أنشئ في بريطانيا عام ١٩٢٧ قاعدة تطبق في المناقشات التي تتم في اجتماعاته. والقاعدة أن المشاركين في الاجتماع يتبادلون المعلومات والآراء ويستخدمونها بحرية، دون أن تنسب هذه الآراء لأي منهم، ودون الكشف عن مواقف أو انتماءات المشاركين. فإذا انتهت المناقشات إلى نتيجة محددة تكون هذه النتيجة هي موقف المعهد. وسميت هذه القاعدة قاعدة تشاتام هاوس Chatham House Rule؛ لأنّ المبنى الذي بدأ المعهد اجتماعاته فيه كان يحمل هذا الاسم، واشتهر المبنى بأن عدداً من الشخصيات السياسية البريطانية المشهورة توالى على اتخاذه منزلاً سكنياً.^(١)

وإذا كان توجه المجتمعات في هذه الأيام هو الإغلاء من شأن التفكير الجماعي ونتائج عمل الفريق، والعمل المؤسسي في بناء الأفكار واتخاذ القرارات، فإنّ معظم ما دُوّن في التاريخ البشري، في الحضارة الإسلامية، وغيرها من الحضارات، دُوّن بأسماء مؤلفين أفراداً، وكان عبقرية إنتاج الفكر يقوم بها الأفراد عندما يخلون بأنفسهم للتفكير والكتابة. وفكرة المؤسسات العلمية البحثية بصورتها المعروفة اليوم فكرة حديثة لم تظهر قديماً على نطاق واسع لا في العالم الإسلامي ولا في الغرب الأوروبي. فهذه المؤسسات التي تسمى مراكز الفكر أو مختبرات تصنيع الأفكار قادت إليها الحاجة وتراكم الخبرات، كما قادت الحاجة والخبرات المتراكمة إلى إنشاء المؤسسات المتخصصة الأخرى في كثير من مجالات الحياة.

(1) Chatham House Rule. Retrieved March 21, 2014

<http://www.chathamhouse.org/about/chatham-house-rule>

ثانياً: أهمية التخصص والتفرغ والعمل في فرق البحث

العمل في مراكز البحوث مهنة محددة تتطلب التفرغ لها، واكتساب المعرفة والمهارة اللازمة لإتقان هذا العمل. وهذا هو شأن سائر المهن المتخصصة. وإذا كانت كثير من المهن تخصص في إنتاج الأشياء، فإن مهنة البحث تخصص في إنتاج الأفكار والتفقه في أبواب العلم، ومن ثمَّ فشراف هذه المهنة من شرف الأفكار التي ترنو مراكز البحوث إلى إنتاجها، ومن شرف العلم الذي يبحث فيه العالم والمتعلم. وقد يصل هذا الشرف من الرفعة إلى ما يصل إليه الجهاد في سبيل الله.

إنَّ الروح التي يثيرها في النفس قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْئَةٍ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] أنَّ النفرة إلى العلم والتعلم والفقهِ والتفقه، لا تقل أهمية عن النفرة إلى الجهاد والقتال، وأنَّ الجهود المطلوبة لبناء العلم والثقافة والحضارة، مطلوبة في كل حين، ووقتها ليس مقصوراً على الظروف والحالات الطارئة التي تظهر فيها مشكلات يلزم حلها، ومن ثمَّ يلزم فيها العمل للتغيير والإصلاح. كما أنَّ الحاجة إلى نفرة طائفة من أبناء الأمة والمجتمع، لبناء الأفكار المستقبلية، وتكوين الرؤى الاستراتيجية، ليست من قبيل ردِّ الفعل لوقائع وأحداث تتطلب المعالجة، وإنما تكمن الحاجة إليها من أجل صناعة الأحداث، وتوجيه حركة الحياة في مراقي التقدم والتطور. وبهذا التفكير يستطيع المجتمع أن يملك زمام المبادرة، في بناء المشاريع وتنفيذها على أسس من العلم والمعرفة والبصيرة والحكمة، بعيداً عن التمويل المُذلل، والترهل الكسول، والبيروقراطية المقيتة، والفساد القاتل!

ولا شك في أنَّ سبيل ذلك هو حشد العلماء المتفرغين للبحث في مشاريع علمية محددة، وفق رؤى استشرافية مبصرة، ونظم إدارية محكمة، وذلك هو عمل مراكز البحث وخزانات التفكير.

يقول الشيخ ابن عاشور في تعقيبه على الآية الكريمة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾: "وقد كان من مقاصد الإسلام بث علومه وآدابه بين الأمة، وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين، كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها، من أجل ذلك عقب التحريض على الجهاد بما يبين أن ليس من المصلحة تمخض المسلمين كلهم لأن يكونوا غزاة أو جنداً، وأن ليس حظُّ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله؛ من حيث إن كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين، فهذا يؤيده بتوسيع سلطانه وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه، فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفیان لاستبقاء سلطانهما إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان." (١)

ثم يقول: "... ولذلك كانت هذه الآية أصلاً في وجوب طلب العلم على طائفة عظيمة من المسلمين وجوباً على الكفاية، أي على المقدار الكافي لتحصيل المقصد من ذلك الإيجاب. وأشعر نفي وجوب النفر على جميع المسلمين وإثبات إيجابه على طائفة من كل فرقة منهم، بأن الذين يجب عليهم النفر ليسوا بأوفر عدداً من الذين يقون للتفقه والإنذار، وأن ليست إحدى الحالتين بأولى من الأخرى على الإطلاق..."

ما الفروق العملية، وما الفروق في التطور الدلالي لاستعمال مصطلحات: النقباء، والرؤساء، والعلماء، وأي مصطلحات أخرى استعملت في التاريخ الإسلامي المبكر؟

والتفقه: تكلف الفقه، وهي مشتقة من فقه (بكسر القاف) إذا فهم ما يدق فهمه فهو فاقه. فالفقه أخص من العلم، ولذلك نجد في القرآن استعمال الفقه فيما يخفى علمه كقوله: ﴿لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾... (٢)

(١) ابن عاشور. التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١١، ص ٥٩.

(٢) المرجع السابق، ج ١١، ص ٦١.

ولذلك فإنَّ العمل في مراكز البحوث ليس وسيلة لتأمين فرصة عمل لمن لم يتوفر له عمل في مواقع أخرى، وإنَّما هو اختيار للكفاءات القادرة على فقه ما يخفى فِهمُه وعِلْمُه. لأنَّ هذا العمل يتطلب صناعة ثقيلة، هي بناء الرأي وصناعة الفكر في مسائل على قدر كبير من الأهمية، تُقدِّم لصناع القرار في المجتمع، لتكون أساساً متيناً لاتخاذ قرارات تتصف بالحكمة والرشد والتوازن.

إنَّ فكرة بناء المؤسسات التي تنظم الأفكار وتمارسها ليس أمراً جديداً؛ إذ نجد لها أمثلة في التاريخ الإسلامي المبكر، وقد تكون صور هذه المؤسسات

اذكر عناوين مؤسسات بحثية
أنشأتها حركات إصلاحية في العالم
الإسلامي؛ إسلامية أو قومية...
وكان لها دور ملموس في تطوير
الإنتاج العلمي والفكري، ثم بيَّن
ذلك الدور.

بسيطة ثم تطورت، أو صغيرة ثم كبرت،
أم عفوية ثم تقننت...، فمؤسسات مثل
المسجد، والسوق، والمدرسة، والحسبة،
والقضاء، من بين هذه المؤسسات التي نمت
وتطورت مع الزمن، إلا أن مجالات معينة
افتقدت النمو والتطور في آليات الحكم
على قيمة الأفكار وطرق تطبيقها، ومن بين

هذه المجالات التي افتقدت البناء المؤسسي، مع أنها تمثل عدداً من المبادئ الأساسية في الفكر الإسلامي مجالات: الإجماع والاجتهاد والشورى؛ أي المؤسسة التي تحكم عمل السلطة السياسية وهي الشورى، والمؤسسة التي تحكم عمل السلطة العلمية وهي الاجتهاد، رغم وجود عدد من الأمثلة المبكرة على بدايات للتنظيم والتقنين منذ عصر النبوة في مسألة النقباء مثلاً؛ حيث يروي ابن هشام عن ابن اسحق عن كعب بن مالك في قصة بيعة العقبة قول رسول الله ﷺ: "أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم. فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس."^(١)

(١) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (توفي ١٨٣هـ). سيرة النبي ﷺ (سيرة ابن هشام). تحقيق ودراسة: مجدي فتحي السيد، طنطا: دار الصحابة، ط ١، ١٩٩٥م، ج ٢، ص ٦١.

ونجد إرهاصات أخرى في عصر الخلافة الراشدة لا سيما في جهود أبي بكر وعمر، حيث يروي ابن قيم الجوزية عن طريقة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في المشاورة قال: "كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا ورد عليه حكم... فلم يجد في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ حكماً،" جمع رؤساء الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به. وكان عمر يفعل ذلك، فإذا أعياه أن يجد ذلك في الكتاب والسنة سأل: هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء؟ فإن كان لأبي بكر قضاء قضى به، وإلا جمع علماء الناس واستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به.^(١)

ومثلما أن الحكومات والشركات والأحزاب في الدول المختلفة تؤسس مراكز بحوث متخصصة وتوفر لهذه المراكز الكفاءات العلمية والموارد المالية التي تُمكنها من أداء مهماتها، فإن الحركات الإصلاحية التي تسعى إلى التغيير في الواقع الاجتماعي والسياسي تحتاج كذلك إلى هذه المراكز التي توفر لها المعرفة والرؤى الاستشرافية على أساس من البحث والتحليل العلمي، وتُمكنها من امتلاك زمام المبادرة في مواقفها ونشاطاتها، والإسهام في تكوين الرأي العام المنسجم مع أهدافها، ودون ذلك سوف تظل جهود هذه الحركات ومواقفها ردود فعل غير مدروسة، تلاحق فيها الأحداث ولا تملك صنعها، وتلهث وراء المعلومات التي تحتكرها الجهات المنافسة.

ولكن ما أهمية فرق البحث والعمل الفكري الجماعي؟

في الإجابة عن هذا السؤال، نتذكر القول السائر: إنَّ الفكرة العظيمة هي فكرة عظيمة في ذاتها، وليس لأنها من "بنات أفكار" مفكرٍ عظيم، فقد تأتي هذه الفكرة العظيمة من شخص عادي تماماً. ومع أن هذا الأمر صحيح في مجمله، فإنَّ الطريقة التي تُبنى فيها الفكرة لا تقلُّ أهميةً عن الفكرة ذاتها.

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٥٥، ج١، ص٦٢.

فإذا كان الهدف من مراكز البحوث هو الوصول إلى فكر يتصف بقدر من المرجعية، أكثر مما يتصف به الفكر الصادر عن شخص واحد، مهما علا شأنه، فإنَّ الاجتهاد الجماعي الذي يمارسه فريق العمل من أجل بناء فكرة محددة، أو إنجاز بناء فكري معين، يُعدُّ منهجيةً تكتسب قدرًا من المرجعية، وطريقةً تتصف بقدر من الضبط والموثوقية. إنَّ ذلك لا يחדش قيمة الإبداع الفردي، أو يقلل من شأنه، فقد يكون الرأي الذي ينتهي إليه الاجتهاد الجماعي لفريق العمل في مركز البحوث هو رأي شخص واحد في الأساس، لكن الفريق يجد، في أثناء التداول والتشاور والمناقشة، أنَّ هذا الرأي يستند إلى حجج قوية من طول تأمل، وتكامل خبرة، وتعدد في زوايا النظر، وعندها لا يجد أعضاء الفريق رأياً آخر أقوى من ذلك الرأي فيصبح هو رأي الفريق، واجتهاد الجماعة.

الحكم على مراكز البحوث في بلد كامل عندما يصدر عن عمل جماعي تقوم به مؤسسة، أو مجموعة مؤسسات، ربما يكون في الأساس ملاحظة شخصية لباحث واحد، فالحكم على مراكز الأبحاث في الأردن بأنها "جميعاً مؤسسات فردية" جاء في وثيقة صادرة عن مجموعة مؤسسات بحثية في صورة عمل جماعي. لكن هذا الحكم لم يظهر في الوثيقة على أنه نتيجة بحث علمي قاد إلى هذه النتيجة، واكتفى بالإشارة إلى أن مرجع هذه النتيجة هو مقال منشور في جريدة يومية، وعند الرجوع إلى ذلك المقال لم يظهر أنه هذه النتيجة كانت تستند إلى عمل بحثي.

- الحكم قد يكون صحيحاً ويصف الواقع فعلاً، ولكن ما الفرق بين إصدار حكم شخصي، والتوصل إلى نتيجة عن طريق البحث؟
- ابحث عن أمثلة أخرى لأحكام عامة تصدر عن مراكز بحوث، لكن هذه الأحكام لا تكون نتيجة للبحث!

ومع ذلك فإنَّ اقتصار الفريق على عضو واحد يتفوق على غيره في قدراته وخبراته، ويكون محورياً لبناء الأفكار، أو اختبارها ونقدها، ليس أمراً محموداً،^(١) لا سيّما إذا كان الأعضاء الآخرون في الفريق من ذوي القدرات والخبرات المتواضعة، فيكتفون بالتأمين على رأي ذلك العضو المتفوق، وفي أحسن الأحوال، يكتشفون راحة الرأي الذي يأتي به، فينتهي الأمر إلى غياب المعنى الحقيقي للفريق. فالفريق الجيد يمتاز كل عضو من أعضائه بخصائص قد لا يمتاز بها غيره من الأعضاء، ويفكر في الأمر بطريقة قد لا يفكر فيها غيره، ويستشرف في المسألة ما لا يستشرفه غيره، فيأتي الاجتهاد الجمعي أكثر رشداً وأبلغ حكمة. ولذلك تجد فريق العمل في مراكز البحوث يتكون من عدد من الأعضاء من خبرات متنوعة، تستكمل متطلبات البحث في الموضوع، وليسوا نسخاً مكررة من التخصص أو الخبرة أو الكفاءة.

مجامع الفقه الإسلامي في الواقع المعاصر هي مراكز بحث تمارس عمل الفريق والاجتهاد الجماعي. والمسائل التي تعرض على هذه المجامع هي في الغالب مسائل مستجدة في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو الطب، وغير ذلك من مسائل الواقع الاجتماعي المعاصر. والخبرة المطلوبة للوصول إلى حكم في مسألة من المسائل لا تقتصر على الإحاطة بجوانب "فقه النصوص" الذي يختص بأصول الشريعة الإسلامية من قرآن كريم

(١) لاحظ الفريق الذي أعد وثيقة: "دليل إرشادي لمراكز الدراسات ومؤسسات البحث والفكر والرأي في العالم العربي"، أن: "السمة الغالبة على المراكز البحثية في الأردن هي أنها جمعياً مؤسسات فردية، مرتبطة باسم مؤسسها، ويديرها شخص واحد... فغلبة الصبغة الفردية على تأسيس المراكز تجعلها أشبه بتأسيس المشروع الربحي الفردي أكثر من كونه مبادرة جماعية هدفها الأساس هو فكري وعلمي ابتغاء لملء فراغ في الأبحاث والدراسات التي تعالج مواضيع معينة... وقد أدى هذا الوضع... إلى غياب آليات المساءلة... انظر:

- دليل إرشادي لمراكز الدراسات ومؤسسات البحث والفكر والرأي في العالم العربي، عمان/الأردن: منشورات شبكة الديمقراطيين في العالم العربي ومركز "بصّر" لدراسات المجتمع المدني، ٢٠١١، ص ٢٨. وقد تم توثيق تلك الفقرة من مقالة صحفية في جريدة الغد الأردنية باسم "مي الطاهر" بتاريخ ٢٠/٩/٢٠١١م.

وسنة نبوية واجتهادات السابقين في صورة قياس أو إجماع أو غير ذلك، وإنما تتضمن الخبرة المطلوبة فيها "فقه الواقع" الذي استجدت المسألة فيه، فإذا كانت قضية اقتصادية، فلا بد من حضور الخبرة اللازمة ليس في الاقتصاد وحسب، وإنما في الاقتصاد الخاص بتلك المسألة على وجه التحديد، إضافة إلى حضور المصالح المشروعة للجهات التي سوف تتأثر بالفتوى المطلوب من المجمع أن يصل إليها، سواءً كانت هذه الجهات أفراداً أو جماعات أو مؤسسات.

إنَّ الجهود العلمية والبحثية المطلوبة لتحقيق مشاريع "إسلامية المعرفة" في مجال معرفي معين مثل علم النفس أو علم الاجتماع، تتطلب فرقاً بحثية تجتمع في كل فريق الخبرات المتنوعة اللازمة لتحقيق الهدف المنشود. إنَّ الباحث المتخصص في القرآن الكريم يستطيع أن يمارس منهج التفسير الموضوعي، ليصل إلى ما يهدي إليه القرآن الكريم في مجال النفس الإنسانية، أو في مجال مسألة محددة من مسائل النفس الإنسانية. ولكن ما يصل إليه من نتائج قد لا يجيب عن الأسئلة التي تطرحها النظريات النفسية الحديثة والمعاصرة، التي تطوّر معظمها في العالم الغربي، وفق رؤية تغيب عنها الهداية الدينية، وربما تستنكر تلك الرؤية هذه الهداية. ولذلك فإنَّ حضور أهل التخصص العلمي في علم النفس الذين وصلوا إلى درجة من التمكن في هذا العلم، وفي المسألة المراد بحثها من مسائل ذلك العلم، يُعد ضرورة من ضرورات البحث والاجتهاد الجماعي المطلوب في مشاريع إسلامية المعرفة.

إننا نفترض بطبيعة الحال أنَّ أعضاء الفريق العاملين في مجمع فقهي أو مركز بحثي، يمتلكون خبرات متنوعة، ولكنهم يجتمعون على هدف واحد، ويسعون إلى تحقيقه مخلصين، والهدف هو الاشتراك معاً في بناء فكري يعبر عن الحقيقة المنشودة، ويتمثل في حكم شرعي يراد تطبيقه في مسألة اقتصادية، أو منظور إسلامي يراد تفعيله في تدريس موضوع معين في مدرسة أو جامعة،

أو في حل عملي لمشكلة معينة من مشكلات الواقع الاجتماعي؛ حلٌ يستهدي بمقاصد الشريعة في تحقيق مصالح البلاد والعباد.

ومع توفر روح التعاون الإيجابية ومشاعر الإخلاص في السعي للوصول إلى الحقيقة المنشودة لدى جميع أعضاء الفريق، ثمة مسائل إجرائية عديدة تختص بطريقة تشكيل الفريق، وإدارة اجتماعاته، وتوفير متطلبات التفكير الجماعي، والتعامل مع الاختلافات الحادة في الرأي، وطريقة اتخاذ القرار، وغير ذلك. والكتب والمراجع المتخصصة في هذه الجوانب تتضمن مقترحات وخبرات، سيكون الاستئناس بها أمراً مفيداً.

- روح الفريق، العمل الجماعي، الشورى... إلخ مفاهيم ذات دلالات متداخلة، أذكر مفاهيم أخرى يمكن أن تقع في هذه الفئة من المفاهيم.
- ما الذي يميز عمل الفريق في إنتاج الأفكار عن عمل الفريق في إنتاج الأشياء؟
- ما عناصر عمل الفريق في مراكز البحوث؟
- ارسم لوحة تعبر عن عمل الفريق في مراكز البحوث.

ثالثاً: نشأة مراكز البحث وأهدافها واتجاهات عملها

سبق أن أشرنا إلى بعض "المدارس الفكرية" في الفلسفة أو الاقتصاد أو السياسة، وقد تشكل كثير من هذه المدارس في بداية أمرها من حلقات أو منتديات أو "صالونات" فكرية تجمع عدداً من المهتمين بموضوع معين، ويبرز منهم من يصوغ "مشروعاً فكرياً" تلتقي عليه "الجماعة العلمية" أو "الجماعة الفكرية" وتتحاور فيه. ومعظم المدارس الفكرية في التاريخ الإسلامي وفي التجربة الغربية الحديثة كانت قد بدأت بهذه الطريقة.

تختلف مراجع تاريخ الأفكار في بداية تأسيس المراكز البحثية في العالم في العصر الحديث، إذ يرى لورنس ريد أن عام ١٧٨٧ شهد أول مجموعة من الأشخاص أسست ما يمكن أن يُعدَّ أول مركز للبحوث في العالم، وذلك عندما

أسس توماس كلارسون في بريطانيا "جمعية إلغاء تجارة الرقيق الأفريقي". وأخذت الجمعية تناضل من أجل هذا الهدف متسلحة بالأفكار والحقائق التي لا يمكن دحضها عن صور المعاناة، والقمع، والتعذيب، وإهدار الكرامة الإنسانية، الذي يتعرض له الرقيق المجلوب من أفريقيا.^(١)

ويرى "سلمان شيخ"، مدير مركز "بروكنجز الدوحة" أن أول هذه المراكز بدأ في روسيا القيصرية عام ١٨٣١ باسم المعهد الملكي للدراسات الدفاعية والأمنية.^(٢) بينما تتحدث مراجع أخرى عن أول مركز كان جمعية فايان البحثية ذات الميول الاشتراكية في العاصمة البريطانية-لندن عام ١٨٨٤.^(٣) وتلا ذلك إنشاء مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي في العام ١٩١٠ في العاصمة الأمريكية/واشنطن. لكن معظم المراجع تشير إلى أن أول مركز بحثي بالمواصفات

(١) Reed, Lawrence W. *A Student's Essay That Changed the World*, London: Mackinac Center for Public Policy, 2009, p 3-4

وهذا المرجع هو كتيب صغير الحجم (١٢ صفحة) يتحدث عن قصة توماس كلارسون الذي كان طالباً في جامعة كمبردج في الخامسة والعشرين من العمر، شارك في مسابقة مقالة، عن معاناة الرقيق الأفريقي، وأجرى بحثاً ملاًه بالدلائل والشهادات الحية عن القسوة التي يصعب وصفها، وفازت المقالة بالجائزة. لكن كلارسون أخذ بعد ذلك يفكر في ما كتبه، ومسؤوليته عما عبر عنه في المقالة، وانتهى الأمر بالتداول مع مجموعة من أصدقائه وتكوين جمعية حملت على نفسها السعي لإيقاف هذه المعاناة الإنسانية الصارخة.

(٢) شيخ، سلمان. مراكز الفكر: منفعة عامة للمجتمع، نقلاً عن موقع معهد بروكنجز الدوحة على الرابط:

– <http://www.brookings.edu/ar/research/opinions/2014/04/06-think-tanks-public-good-shaikh>

تم استرجاع هذا الرابط بتاريخ ١٦ / ٦ / ٢٠١٤.

(٣) أخذت جمعية فايان هذا الاسم من اسم جنرال روماني كويتوس فايوس الذي تجنب مواجهة جيش هنيبعل في القرن الثالث قبل الميلاد، واستخدم في المواجهة تكتيكات أخرى. ذلك أن الجمعية اختطت طريقاً لتحويل المجتمع البريطاني إلى مجتمع اشتراكي بالالتزام بعملية تطويرية دون اللجوء إلى الثورة. انظر في ذلك:

– <http://www.victorianweb.org/history/fabian.html>

تم استرجاع هذا الرابط بتاريخ ١٦ / ٦ / ٢٠١٤.

المعروفة اليوم هو مركز بروكنغز في الولايات المتحدة الأمريكية الذي تأسس في واشنطن العام ١٩١٦.

وقد استدعى نشوء الدول القومية في الغرب وتضارب المصالح فيما بينها، من الحكومات أن تبذل جهوداً كبيرة في اتخاذ القرارات المناسبة، سواءً على المستوى المحلي أو الإقليمي أو الدولي. وأعضاء الحكومة في العادة ليس لديهم الاختصاص الكافي، ولا الوقت اللازم، للتفكير في كل مسألة تعرض لهم، وما أكثر هذه المسائل! فالحكومات تذهب وتأتي بالانتخاب، وحظوظها في إقناع الناخبين مرهونة بقراراتها التي تحل المشكلات، ولا تثير مشكلات أخرى. وهذا يجعل الحكومة ملزمة باعتمادها قراراتٍ مبنيةً على أسس معرفية راسخة، يعينها في تطوير هذه الأسس فريق من الباحثين المبدعين الذين تتكامل في جماعتهم التخصصات الفنية، والخبرات العملية، والرؤى الاستراتيجية، الضرورية للمشكلة التي تكون موضع البحث، وهذه هي مهمة مراكز البحوث.

لقد أصبحت مراكز "البحوث والدراسات" الملحقة برئاسة الحكومة أو الوزارات ظاهرة أساسية في معظم دول العالم. وبعض هذه المراكز هي وحدات ضمن الهيكل الرسمي لمؤسسات الدولة، تقوم بالدراسات المتخصصة في الشؤون الخاصة بكل وزارة، وتتلقى موازنتها المالية ضمن موازنة وزاراتها. وتكون مهمة هذه المراكز أقرب إلى توفير البيانات والمعلومات الأساسية والتقارير الدورية، ويمكنها أن تقدم أفكاراً جديدة لتطوير أداء الوزارة المعنية. وأعمال هذه الوحدات مبرمجة في العادة بصورة تقليدية رتيبة. لكن هناك مراكز أخرى تهتم بدراسات أوسع نطاقاً، وتتعلق بالسياسات العامة والرؤى الاستراتيجية والقضايا الكبيرة. وتجربة الدول الغربية في هذا النوع من المراكز هي إعطاء الحرية الفكرية لهذه المراكز، وتمكينها من أن تكون أكثر استقلالاً عن مؤسسات الحكومة، فقد تكون تابعة للأحزاب المتنافسة، أو للجامعات أو مستقلة تماماً، وتنال من الدعم المالي شيئاً كثيراً، ويكون استقلالها أساساً

لحريرتها في البحث والدراسة، ولإعطائها الوقت الكافي، والمال اللازم لتنفيذ برامجها، دون ضغط القضايا الراهنة والمشكلات المستعجلة.

إن مراكز البحث هذه تنتج أفكاراً استراتيجية كبيرة، في مسائل السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية والمشكلات البيئية، وصراع المصالح والحروب الفكرية. وثمة جهات متعددة "تشتري" خبرات هذه المراكز حين تلجأ إليها لتقديم توصياتها لصناع القرار سواءً في الحكومات أو الأحزاب المتنافسة، أو الشركات الكبرى.

إنَّ استقلالية هذه المراكز البحثية عن السلطة العلمية الجامعية، وعن السلطة العملية السياسية تجعلها أقدر على الجمع بين مختلف أشكال المعرفة ذات العلاقة المباشرة وغير المباشرة بموضوع البحث، وتحليل المشكلات المعقدة، بمنهجية تكاملية تتسم بالحرية والخروج عن الأطر البيروقراطية، والتفكير "المفتوح النهايات" في تخيل البدائل والاحتمالات "السيناريوهات" وما يترتب على كل منها.

وتتنوع الأهداف الخاصة لمراكز البحوث تنوعاً واسعاً، وذلك تبعاً لتنوع مرجعياتها الفكرية والسياسية ومصادر تمويلها، وبؤرة اهتماماتها. ومع ذلك يمكن ملاحظة وجود أهداف عامة تشترك فيها معظم المراكز البحثية. ولتحديد هذه الأهداف العامة، حاولنا الرجوع إلى المواقع الإلكترونية لأكثر من خمسين مركزاً من مراكز البحوث من بلدان مختلفة. ولاحظنا أن صياغة أهداف كل مركز تنسجم مع محور الاهتمام الأساسي للمركز، فمحور الاهتمام لبعض المراكز يظهر من اسم المركز الرؤى الاستراتيجية والسياسات العامة، أو المسائل الاقتصادية، أو الاجتماعية أو الصحية أو التعليمية... إلخ. وبعضها يجمع في اسمه بين البحث والتدريب، وبعضها يحمل في اسمه موقفه الفكري والسياسي في اليمين المحافظ أو اليسار المتطرف أو الوسط الليبرالي. وبعضها يحمل في اسمه بعداً جغرافياً تتحدد معه نشاطات المركز في تلك المنطقة الجغرافية أو

يتخصص في نشاطاته لخدمتها. وعندما يسطر المركز أهدافه بصورة محددة فإنه في الغالب يذكر طيفاً واسعاً من أهداف عامة يشترك المركز مع غيره في بعضها أو يتخصص في صياغة بعضها الآخر ويعرف ذلك عنه ويعرف به. ومع ذلك فإن معظم المراكز تشترك في محاولة تحقيق ثلاث فئات من الأهداف:

- ١- إنتاج المعرفة والأفكار لخدمة الجهات المستهدفة من الحكومة أو القطاع الخاص، من خلال إجراء الدراسات والبحوث على يد الباحثين في داخل المركز أو دعم من يقوم بها من الباحثين الآخرين.
- ٢- رفع كفاءة الباحثين في إجراء الدراسات والبحوث في مجالات اهتمام المركز من خلال برامج التدريب وتبادل الخبرات.
- ٣- تثقيف فئات معينة من المجتمع أو الجمهور العام فيه والترويج لأفكار وتوجهات المركز عن طريق وسائل النشر والتغطية الإعلامية.

لقد حولت مراكز البحث رسالتها الأساسية التي تقوم على تقديم أفكار حيادية للإدارة السياسية والعسكرية التي تساعد أصحاب القرار على اتخاذ القرار، إلى منظمات لممارسة الضغط باتجاه سياسات محددة حول القضايا المحلية والقضايا الدولية، وارتبطت هذه المراكز بشبكات الاتصال والتأثير على صناعات القرار في فروع الحكومة التشريعية والتنفيذية والقضائية، فضلاً عن الاقتصاد والإعلام.

إنَّ صنَّاع القرار ومستشاريهم يبنون شبكة اتصالات فاعلة مع مراكز البحث، للحصول على المواد المطلوبة لدعم توجُّه معين أو لِنَقْض توجُّه آخر، وتوظف هذه المواد من خلال تمريرها إلى أجهزة الإعلام التي تدير عليها صوراً متعددة من حروب الأفكار بين الشخصيات والأحزاب والحكومات المتنافسة. وهنا "تبرز مشكلة تمويل هذه المراكز واستقلاليتها عن المؤسسات والدوائر الحكومية ومصالحها في ضوء التباعد المتزايد لسياسات الأحزاب السياسية.

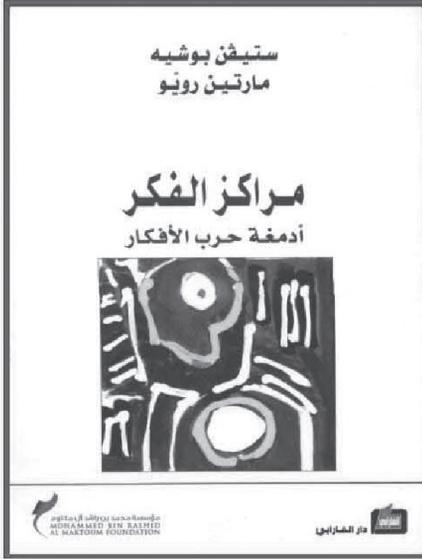
ومن هنا يأتي الشك حول نتائج البحوث من حيث التزامها بالمقاييس العلمية. ولتأكيد أثر مراكز البحوث على السياسة الأمريكية، في مواجهة النقابات ونشطاء البيئة، تسعى هذه المراكز إلى البقاء قريبة من الإعلام لإثارة انتباه السياسيين وتسويق الأفكار، وهو ما يجعل حضور هذه المراكز وأثرها مجالاً لطرح أسئلة مهمة حول أثر الدعم المالي الذي يقدم إلى هذه المراكز.⁽¹⁾

لقد أصبحت مراكز البحث مجالاً رحباً لتحركات بعض المفكرين ذوي التوجهات الإيديولوجية المغامرة، التي ارتبطت أحلامهم مع مصالح شركات كبرى. إن بعض هؤلاء المفكرين اتسعت أحلامهم لتغيير صورة العالم، من خلال إقناع المسؤولين باتخاذ قرارات سياسية وعسكرية ذات انعكاسات على العالم كله. وقد ظهرت في السنوات العشر الماضية مئات الكتب والمقالات في الغرب، تتحدث عن نتائج الأفكار التدميرية التي طورها فريق من الباحثين الذين عرفوا بالمحافظين الجدد، ضمن مشروع بحثي سُمي "مشروع للقرن الأمريكي الجديد". تشكل هذا الفريق عام ١٩٩٧م، بدعم من شركات صنع السلاح في أمريكا، وقدموا مخططاً للرئيس كلنتون عام ١٩٩٨م، للسيطرة على العالم تحت ذرائع الحرب الوقائية، بدءاً من احتلال العراق والسيطرة طويلة المدى على جميع منابع النفط في منطقة الشرق الأوسط. وفي اللحظة التي استلم فيها بوش الابن الرئاسة الأمريكية بدأ مباشرة بتنفيذ تلك الخطة، وعيّن معظم أعضاء ذلك الفريق البحثي في مواقع صنع القرار في أمريكا، لا سيما سياسات الحرب والدفاع والاقتصاد والعلاقات الدولية. وبطبيعة الحال سنجد فئات من المجتمع ترحب بهذه السياسات تحت ذريعة المصالح الوطنية، وسنجد فئات أخرى تعارضها، لأنها ترى أن هذه السياسات تولد في نهاية المطاف من الأعداء ما يهدد تلك المصالح الوطنية.

إنّ المثال المشار إليه ليس المثال الوحيد عن مراكز الفكر التي تنتج أفكاراً "شيطانية" من النوع المشار إليه. والتنافس على المصالح والنفوذ بين أوروبا

(1) Arinm Kubilay Yado. *Think Tanks: The Brain Trusts of US Foreign Policy*, Springer VS, 2013, 93-94

والولايات المتحدة الأمريكية، كشف عن كثير من الخبايا الفكرية لدى الطرفين، وهي خبايا يتم صنعها في مراكز الفكر التي تعد أدمغة لحرب الأفكار كما عبر عنها أحد الكتب الصادرة في فرنسا.^(١)



لكن مراكز الفكر ليست كلها من النوع المشار إليه، فهناك مئات من مراكز الفكر في الغرب تحاول صناعة "أبنية فكرية" استراتيجية لخدمة هذا العالم وتمكينه من مواجهة التحديات الاجتماعية والاقتصادية والبيئية.^(٢)

وإذا كان وجود المراكز الفكرية يمثل ظاهرة غني في البناء الفكري في أي مجتمع، فإن مجتمعات العالم الإسلامي فقيرة فكرياً إلى حد كبير. والحاجة ماسة إلى إنشاء

كثير من هذه المراكز الفكرية المتخصصة؛ فهذه المراكز تستطيع أن تؤدي دوراً مهماً في توليد الأفكار وتطويرها من خلال المشاريع البحثية الجماعية، بالإضافة إلى أنها توفر أساساً معرفياً لاتخاذ القرارات المناسبة أو تزويد متخذ القرار بالمسوغات اللازمة لاتخاذ قراره.

(١) بوشيه، ستيفن، ورويو، مارتين. مراكز الفكر: أدمغة حرب الأفكار. بيروت: دار الفارابي، وأبو ظبي: مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم. ٢٠٠٩م.

(٢) في الولايات المتحدة وحدها أكثر من ١٨٠٠ مركز من هذه المراكز، منها حوالي ٤٠٠ مركز تقع مكاتبها قريباً من مركز صنع القرار في واشنطن، وأشهرها معهد بروكينغز المهتم بالدراسات الاجتماعية والاقتصاد، ومؤسسة راند التي تعمل في مجالات عديدة أهمها الدفاع والأمن القومي، ومؤسسة كارنيجي المتخصصة في السياسة والعلاقات الخارجية. وفي أوروبا أكثر من ١٢٠٠ مركز فكري، وفي الصين حوالي ٤٢٥ مركزاً.

ونظراً لأنّ العاملين في مراكز البحوث ليسوا من مستوى واحد من الخبرة والكفاءة في الموضوعات المختلفة، فإنّ وجودهم معاً في فرق بحثية يوفر فرصة لهم جميعاً لتبادل الخبرات ونمو الكفاءات، فضلاً عن فرص التدريب التي يجدها شباب العلماء والباحثين في هذه المراكز.

مع أنّ أهداف المراكز البحثية تنوعاً تنوعاً واسعاً، فإنّ جمّع البيانات الأساسية وتنظيمها وتحليلها للوصول إلى معلومات ذات قيمة هو هدف مشترك لمعظم أنواع البحوث. وتكون هذه المعلومات هي الأساس لاتخاذ القرارات. وبعض مراكز البحوث متخصصة في نوع معين من المعلومات هي قياس الرأي العام تجاه قضايا سياسية أو اقتصادية أو تعليمية ... إلخ، مما يعين صانع القرار على اتخاذ القرار المناسب. ويتم قياس الرأي العام أحياناً بصورة دورية للكشف عن اتجاه التغيير مع الزمن، أو التغيير نتيجة أحداث، أو مواقف، أو قرارات معينة.

وتقوم بعض التحليلات السياسية على التنويه بنتائج دراسات قياس الرأي العام، ويتوقعون على أساسها نتائج محددة، مثل نتائج الانتخابات مثلاً. والانطباع الذي يتكون لدى المتلقي أنّ النتائج المتوقعة للانتخابات ستكون مطابقة أو قريبة جداً للنتائج التي أظهرتها دراسات قياس الرأي العام، مع العلم بأنّ التنويه الإعلامي الواسع بنتائج القياس ربما يكون أداة فعالة في التأثير في الرأي العام ليكون في الاتجاه المنشود للترويج الإعلامي.⁽¹⁾ وهذا ما يعبر عنه بالتلاعب بالرأي العام.

والتلاعب هو المصطلح المناسب الذي يتضمن دلالة الاستياء؛ لأنه يمارس استراتيجيات غير عادلة، أو خادعة، ومع ذلك فإنّ معظم الحكومات في العالم تمارسه ليس مع الدول المنافسة فحسب، ولكن حتى مع شعوبها. فقد ذكرت صحيفة الغارديان في عددها الصادر يوم ١٦

(1) Frankovic, Kathleen A. "Exit polls and Pre-Election Polls" in: *The Sage Handbook of Public Opinion Research*, by Wolfgang Donsbach and Michael Trogott. Sage Publication Ltd, 2007, p. 570-579.

مارس عام ٢٠١٤، ذكرت أن "وزارة الدفاع البريطانية تطور برنامجاً بحثياً سريعاً تقدر كلفته بملايين الجنيهات، حول مستقبل الحرب الإلكترونية، بما في ذلك كيفية توظيف التكنولوجيات الناشئة مثل وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي وتقنيات التأثير النفسي التي يمكن تسخيرها من قبل الجيش للتأثير في معتقدات الناس." ومن هذه المشاريع مشروع يسمى "تقنيات جديدة للتأثير في مشاعر العامة وتوليد التصورات"^(١). وهذه البرامج يتم تمويلها من قبل وزارة الدفاع البريطانية في شراكة مع شركات الأسلحة، والأكاديميين، وخبراء التسويق، ومراكز البحوث Think Tanks. ومع أن مشروعات عديدة ومتنوعة يتم تطويرها، تتعلق بتصنيع السلاح وقضايا الجيش، والرأي العام حول الجيش والسلاح، فإن الإعلان عن هذه المشروعات يأتي تحت عناوين عامة غير محددة، مثل "نشاطات جمع البيانات والتواصل Imformation Activities and Outreach"^(٢).

ومن هذه المشاريع مشروع "الاستهداف كامل المدى Full Spectrum Targeting، وهو مفهوم جديد يتصف بالتعقيد، يزداد الاهتمام به في وزارة الدفاع، ويدرس معارك المستقبل من الناحية الاجتماعية والإدراكية بدلاً من الآثار المادية، والتركيز هنا على تحديد واستمالة الأفراد ذوي التأثير والسيطرة على قنوات المعلومات، وتدمير الأهداف عن طريق تدمير الروح المعنوية بدلاً من الضرورة العسكرية. ويقوم بهذا المشروع مركز بحثي يسمى معهد التغيير في لندن، الذي سبق له أن قام بكثير من البحوث لصالح الحكومة، لا سيما مشاريع فهم الجاليات الإسلامية في بريطانيا"^(٣).

(1) Novel Techniques for Public Sentiment and Perception Elicitation.

(2) <http://www.theguardian.com/uk-news/2014/mar/16/mod-secret-cyberwarfare-programme>.

تاريخ الاسترجاع ٢٠١٤/٦/١٦

(٣) المرجع السابق.

وقد نشر موقع مشروع اليسار الجديد^(١) مقالة بعنوان: تشكيل العقول: السياسة الخارجية والتلاعب بالرأي العام.^(٢) وتوثقُ المقالة الأعمال التي تقوم بها الوكالات الحكومية للتلاعب بالرأي العام التي هي مسؤولة أمامه. وتؤكد أن هذا التلاعب موثق جيداً، وتذكّر بمقولة قديمة للمؤلف "إدوارد بيرني" الذي يُعدّ الأب لصناعة العلاقات العامة، ضمّنها كتابه عن الدعاية ويؤكد فيه "أن التلاعب الواعي والذكي لعادات العامة وآرائهم هو عنصر مهم في المجتمع الديمقراطي، فهؤلاء الذين يتحكمون بالآليات الخفية للمجتمع يشكلون حكومة غير مرئية، هي القوة الحاكمة في البلاد، فنحن محكومون، وعقولنا تُصنّع، وأذواقنا تتشكل، وأفكارنا تأتي من الخارج... فإذا كان هناك مؤسسة في الدولة وظيفتها ممارسة العنف، فإن القائد العسكري يريد أن تكون حربه على أسوأ ما يريد السياسي... والموت والتدمير الناتج عن ذلك يحتاج إلى درجة من تأييد الرأي العام لاستمراره للمدة الضرورية. إن آليات الحصول على دعم الرأي العام أمر أساسي في السياسة الخارجية، وترى لجنة الدفاع في مجلس العموم البريطاني أن "عدم الوفاق بين القوات المسلحة وعامة المواطنين هو واحد من أعظم المهددات الاستراتيجية للدفاع. ودون استراتيجيه تواصل تأخذ زمام المبادرة سيكون هناك نقص خطير في دعم العامة للدفاع."^(٣)

(١) مشروع اليسار الجديد New Left Projects، يعرفون أنفسهم بأنهم مجموعة من النشطاء متخصصة في إنتاج تعليقات وتحليلات حول قضايا تُهم اليسار السياسي بصورة عامة، وهي ليس منتمية إلى أي حزب سياسي اتجاه فكري، لكنها تسهم في بناء ثقافة جمعية برؤية يسارية تخاطب من يعد نفسه من اليسار أو أولئك الآخرين الذي يجدون اهتماماً في أفكاره وأولوياته. انظر ذلك في الرابط: <http://www.newleftproject.org/index.php/site/about/>

تاريخ الاسترجاع ٢٠١٤/٦/١٦

(2) *Moulding Minds: Foreign Policy and the Manipulation of Public Opinion.*

(٣) مشروع اليسار الجديد انظر الرابط:

<http://www.newleftproject.org/index.php/site/about/>

تاريخ الاسترجاع ٢٠١٤/٦/١٦

رابعاً: البحث في موضوع مراكز البحث

نشطت في السنوات الأخيرة مجموعات بحثية مختلفة تدرس واقع مراكز البحوث، وتتعلم في الكشف عن طبيعة عملها، وما تحاول تحقيقه من أهداف، وما تثيره من تساؤلات، ولا سيما من خلال "تلاعبها" بالرأي العام والإعلام، فضلاً عما تقدمه من توصيات للسياسيين ورجال المال والاقتصاد، أو ما تقدمه لهم من تبرير لقراراتهم. وتهتم هذه المجموعات البحثية على وجه الخصوص بمصادر الدعم التي تتلقاها مراكز البحوث ومدى الشفافية التي تظهرها هذه المراكز عن هذه المصادر. ومن بين هذه المجموعات البحثية مجموعة أمريكية تسمى Transparify، ويمكن تسميتها بالعربية "مجموعة كشف الشفافية"، ومركز إدموند سافرا للأخلاقيات في هارفارد Edmond J. Safra Center for Ethics at Harvard، ومؤسسة بريطانية أطلقت على نفسها اسم "من يمولكم؟ Who funds you؟".

وقد نشرت مجموعة transparify نتائج دراسة مسحية هي الأولى من نوعها، وقد أجرتها على ١٦٩ من المراكز البحثية التي يصدق عليها اسم Think Tanks في ٤٧ دولة. وقد كشفت هذه الدراسة عن سجل ضعيف من حيث الإدلاء ببيانات موثوقة عن مصادر تمويل المراكز البحثية. وقد أحدثت الدراسة ضجة كبيرة في أوساط مراكز البحوث حتى قبل الإعلان عن النتائج. وقد صُنفت مراكز البحث التي شملتها الدراسة ضمن ست فئات: أولها عالية الشفافية، وآخرها معتمة تماماً. ويرمز لدرجة الشفافية بعدد النجوم فأعلاها في درجة الشفافية لها خمسة نجوم، والتي تليها في الشفافية لها أربعة نجوم وهكذا حتى الفئة السادسة التي ليس لها أية نجمة. وكان عدد المراكز البحثية في الدرجات الست كما في الشكل.

وأشار التقرير إلى أن مركزاً واحداً من بين كل ثلاثة مراكز يظهر شفافية كافية عن مصادر تمويله. وأظهرت النتائج أن ٢١ مركزاً فقط تتصف بشفافية عالية، إضافة إلى ١٤ مركزاً آخر تُعدّ شفافة بصورة عامة، بينما كان ١٣٤ مركزاً يظهر قليلاً من الشفافية عن مصادر تمويله أو لا يعطي أية معلومات نهائياً.

Global Rating Results

■ 5 Star ■ 4 Star ■ 3 Star ■ 2 Star ■ 1 Star ■ 0 Star

Global (169)

21

14

13

70

30

21

ويلاحظ أن المراكز التي تتصف بشفافية عالية وعددها ٢١ مركزاً تتوزع على ٢٦ دولة من دول العالم، واللافت للنظر أن عدد المراكز البحثية التي تتصف بشفافية عالية في جمهورية الجبل الأسود أكثر منها في الولايات المتحدة الأمريكية.

"إن مراكز البحوث يمكنها أن تقوم بدور إيجابي في إجراء بحوث سياسات تتصف بالاستقلال والعمق من أجل تنوير السياسيين والإعلام والعامّة. ومع ذلك فإن البيانات تكشف عن أن بعض مراكز البحوث الرئيسة لا تزال غير شفافة مالياً كما يمكنها ذلك. ونقص الشفافية هذا يمكن أن يثير أسئلة عن برامج عملها الخفية، وبذلك تهدم فاعلية قطاع مراكز البحث بأجمعه."^(١)

وتواصل الجهود التي تسعى إلى عولمة مراكز الفكر وجمع بيانات تفصيلية عن أهداف هذه المراكز ونشاطاتها في كل أنحاء العالم. وفي هذا المجال تأسس عام ١٩٨٩ برنامج في جامعة بنسلفانيا الأمريكية بهدف "توفير قاعدة بيانات عن هذه المراكز، وإجراء بحوث حول اتجاهاتها ودورها بوصفها عناصر فاعلة في المجتمع المدني في عمليات صنع السياسات." وبدأ البرنامج منذ عام ٢٠٠٧ في نشر كشف عالمي عن مراكز الفكر في مختلف أنحاء العالم، وتقديم خدمات فنية وبرامج بناء قدرات في ٨١ دولة. وفي تقريره عن عام ٢٠١٣ الذي

(1) Transparify. *How Transparent are Think Tanks about Who Funds Them?* Tbilisi/ Georgia: Transparify, May 2014, p.3.

صدر في يناير ٢٠١٤، يشير البرنامج إلى سعيه لإنشاء شبكات إقليمية ودولية لمراكز الفكر من أجل تيسير التعاون وتحقيق منافع عامة.

"وهدفنا هو خلق مؤسسات دائمة ومشاركات رسمية، لإدماج مراكز الفكر وتفعيل دورها لإنتاج "بحوث سياسات" من مستوى متقدم، قادرة على تشكيل آراء وممارسات العامة والنخبة في مجال المنفعة العامة."^(١)

واسم البرنامج "برنامج مراكز الفكر والمجتمعات المدنية."^(٢) وقد وضع التقرير الذي يتكون من ١١٧ صفحة على غلافه الخارجي عبارة توضح شعار البرنامج، وهو: "المساعدة في جسر الهوة بين المعرفة والسياسة". كما وضع ثلاث عبارات توضح هدفه المعلن ومجال عمله وهي:

- "البحث في التوجهات والتحديات التي تواجه مراكز البحوث وصناع السياسات، وجماعات المجتمع المدني ذات الاهتمام بالسياسات.
- بناء قدرات مراكز الفكر في العالم، والاحتفاظ بهذه القدرات وتقويتها.
- توفير أكبر قاعدة بيانات وأكثرها شمولاً عن أكثر من ستة آلاف مركز فكري في العالم.

وقد أسهم في الدراسة المسحية لمراكز البحوث لعام ٢٠١٣، مجموعة كبيرة من الخبراء، زاد عددهم عن تسعة آلاف من صحفيين، وصناع قرار، وممولين من القطاع العام والقطاع الخاص، ومتخصصين في دراسة موضوعات أو مناطق محددة، كان دورهم هو ترشيح أسماء مراكز البحث وتقويم مستويات أدائها. وخضعت البيانات التي تم جمعها لتحليل تفصيلي ومراجعة معمقة، شارك فيه مئات من المتخصصين بالاعتماد على معايير وضوابط محددة، جعلت

(1) McGann, James G. 2013 *Global Go to Think Tank Index Report*. Philadelphia, PA, USA, Think Tanks and Civil Societies Program, University of Pennsylvania, 2014, p.5.

(2) The Think Tanks and Civil Societies Program.

إدارة المشروع على قدر من الثقة بأن ما أنجزته يعدّ أهم قائمة مرجعية لمراكز البحث ذات الأداء العالي في العالم.

وكان عدد مراكز البحوث التي تضمنتها الدراسة ٦٨٢٦ مركزاً بحثياً، من ١٨٢ دولة في العالم، توزعت على الصورة الآتية: الولايات المتحدة الأمريكية ١٧٨٠ مركزاً (٢٦,٠٧٪)، وأوروبا الغربية ١٢٧٠ مركزاً بنسبة (١٨,٦٪)، الصين ٤٢٦ (٦,٢٪)، (الهند ٢٨٦ (٤,٢٪) ، اليابان ١٠٨ (١,٦٪)، البلاد العربية ٣٨٧ (٥,٧٪). ويتضمن التقرير تصنيفات متعددة لمراكز البحوث على أساس التوزيع الجغرافي للمراكز في العالم، والوظيفة المتخصصة لهذه المراكز، وجوانب الإنجاز المتميز لها، مما يقدم صورة أكثر شمولية عن عمل هذه المراكز على المستوى العالمي.

وقد امتاز كشاف مراكز البحث لعام ٢٠١٣ عن كشافات السنوات السابقة بتقسيمات جديدة لمجموعات الدول، وبإضافة عناوين جديدة للكشافات الفرعية منها مثلاً: ترتيب أهم مراكز البحث في العالم المختصة بالدفاع والأمن الوطني، وترتيب أهم مراكز البحث في العالم المختصة بالسياسة الخارجية والعلاقات الدولية، وأفضل مؤسسات بحثية تتضمن تعاون مركزين بحثيين أو أكثر، وأفضل شبكات المراكز البحثية، وأفضل مؤتمر يعقده مركز بحثي، وأفضل مركز بحثي في نمط التنظيم والإدارة، وأفضل فكرة أو نموذج معرفي يطوره مركز بحثي، وأفضل بحث متداخل التخصصات ينفذه مركز بحثي، إلخ.

ورغم التحسينات الكثيرة التي تضمنها إنجاز هذا التقرير، فإن إدارة المشروع تعترف بأنّها تكتشف باستمرار ثغرات جديدة تحتاج إلى عناية أكبر في التقارير القادمة.

ومن المعايير التي استخدمت في تقييم مراكز البحوث وتقدير كفاءتها: نوعية القيادة والتزامها في تحقيق رسالة المركز وأهدافه، وتوظيف الموارد المالية والبشرية لغرض تلك الرسالة، واستقلالية المركز، وشهرة الباحثين في

المركز، والقدرة على تجنيد مفكرين ومحللين من مستوى النخبة المتميزة، والضبط الأكاديمي للبحوث المنجزة، وعدد هذه البحوث، وأثر مركز البحث والبحوث والبرامج التي أنجزها على صناع السياسات والعناصر الفاعلة في المجتمع، وسهولة التواصل مع المؤسسات المهمة في الدولة والفئات المستهدفة بعمل المركز، والقدرة على التشبيك وعمل شراكات مع مراكز بحوث أخرى وممارسين سياسيين، وحجم النشاطات الكلية وتنوعها، وتوظيف صناع القرار لتقارير المركز وتوصياته واستخدامه منجزاته، ونوعية برامج البحث وبرامج التعليم في المركز، واستعمال الوسائل المتنوعة من إلكترونية ومطبوعة ومسموعة للتواصل مع الجمهور المستهدف، وحضور المركز في وسائل الإعلام، نوعية الموقع الإلكتروني على الإنترنت، وفعالية استخدام مصادر التمويل وفق شروط الممولين، القدرة على جسر الهوة بين الأكاديميين وصناع القرار، ومدى النجاح في إبداع أفكار جديدة، وبرامج مبتكرة، إلخ.

ويتضمن التقرير أربعة أنواع من الجداول، أولها ثلاثة جداول للترتيب العام لأفضل المراكز البحثية في العالم، وثانيها عشرة جداول بترتيب أفضل المراكز حسب المناطق الجغرافية، وفي النوع الثالث اثنا عشر جدولاً لترتيب أفضل المراكز حسب مجال البحث، وفي النوع الرابع من الجدول اثنان وعشرون جدولاً لترتيب أفضل البحوث حسب الإنجاز الخاص.

وفي التصنيف العام لأفضل المراكز في العالم وفق مجمل المعايير جاءت مؤسسة بروكينجز في الولايات المتحدة في قمة ترتيب مراكز البحث في العالم، يليها شاثام هاوس Chatham House في المملكة المتحدة، ثم وَقَف كارنيجي للسلام العالمي ثم مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية وكلاهما في الولايات المتحدة، ثم مركز ستوكهولم لبحوث السلام العالمي في السويد، ثم مركز بروجيل في بلجيكا، ثم مجلس العلاقات الخارجية في الولايات المتحدة، ثم مؤسسة راند في الولايات المتحدة، ثم المعهد العالمي للدراسات الإستراتيجية

في المملكة المتحدة، ثم مركز وودرو ويلسن العالمي للمفكرين في الولايات المتحدة. ويحتل مركز ألماني المرتبة ١٢، ومركز ياباني المرتبة ١٣، ومركز صيني المرتبة ٢٠، ومركز برازيلي المرتبة ٢١، ومركز كندي المرتبة ٢٢، ومركز فرنسي المرتبة ٢٥، ويحتل المركز رقم ٢٨ فرع موسكو من مؤسسة كارنيجي الأمريكية العالمية في روسيا، ويحمل مركز الأهرام في مصر المرتبة ٤٨، ومركز دراسات المجتمع المدني في الهند في المرتبة ٥٠، ومركز البحوث الاقتصادية في كينيا في المرتبة ٦٢، والمؤسسة التركية للدراسات الاقتصادية والاجتماعية في تركيا في المرتبة ٧٤، ومركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في إندونيسيا في المرتبة ٧٧، ومركز دراسات السياسة العامة في ماليزيا في المرتبة ٩٠، ومركز بحوث الخليج في المملكة العربية السعودية في المرتبة ١٤٣.

ولم يخصص التقرير فئة خاصة للبحوث في الدول العربية، وإنما وضع هذه الدول ضمن فئة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وتشمل الدولة العربية وإسرائيل وتركيا وإيران. وقد تضمنت هذه المنطقة أفضل ٥٠ مركزاً بحثياً، جاء في قمتها مركز الأهرام، يليه مركز بروكنجز الدوحة في قطر، ثم مركز دراسات الاقتصاد والسياسة في تركيا، ثم مركز كارنيجي الشرق الأوسط في لبنان، ثم مركز دراسات الأمن الوطني في إسرائيل، ثم مركز الجزيرة للدراسات في قطر، ثم مركز بحوث الخليج في المملكة العربية السعودية، ثم منتدى الفكر العربي في الأردن، ثم مركز بيجن - السادات للدراسات الإستراتيجية في إسرائيل. وكان نصيب تركيا منها ٤ مراكز، وإيران مركز واحد وإسرائيل ١١ مركزاً. وتوزعت الدول العربية بقية المراكز فكان نصيب مصر ٩ مراكز، والإمارات ٤، والأردن، وقطر، والكويت، ولبنان ٣ مراكز لكل منها، والمغرب، والبحرين، مركزان لكل منهما، والسعودية، وفلسطين، وتونس، وليبيا، واليمن، مركز واحد لكل منها.

أما من حيث تصنيف المراكز وفق الموضوعات البحثية، فتبدأ بترتيب

المراكز التي تهتم بقضايا الدفاع والأمن القومي، وجاء في المرتبة الأولى مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية أولاً، ثم مؤسسة راند في الولايات المتحدة، ثم المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في بريطانيا، ثم مؤسسة بروكنجز الأمريكية، ثم بيت شاثام البريطانية. ويظهر في القائمة المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية في مصر في المرتبة ١٩، ثم مركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية والسياسية في المرتبة ٢٢، ثم مركز دراسات الوحدة العربية في لبنان في المرتبة ٤٦، ثم مركز الدراسات الاستراتيجية في الأردن في المرتبة ٥٥.

وفي مجال السياسات الاقتصادية المحلية جاءت مؤسسة بروكنجز والمكتب الوطني للدراسات الاقتصادية وكلاهما في الولايات المتحدة، ثم يأتي معهد آدم سميث في المملكة المتحدة في المرتبة الثالثة. وظهر المركز المصري للدراسات الاقتصادية في مصر في المرتبة ٧٤ ضمن القائمة التي تحتوي على ٨٠ مركزاً.

وفي مجال السياسات التعليمية جاءت المؤسسات الخمس الأولى من الولايات المتحدة، وأولها مؤسسة بروكنجز. ولم يظهر اسم مؤسسة بحثية عربية رائدة في مجال التعليم ضمن أول خمسين مؤسسة.

وفي مجال مراكز البحث المتخصصة بسياسات الطاقة والموارد جاء في المرتبة الأول معهد أكسفورد لدراسات الطاقة في المملكة المتحدة، ويليه خمسة مراكز من الولايات المتحدة، ثم مركز من اليابان، ثم مركز من الهند، ثم مركز من سنغافورة. ولم يظهر اسم أي مركز بحثي عربي في هذا المجال.

وفيما يختص بمراكز البحوث المتخصصة في مجال البيئة جاء معهد موارد العالم في الولايات المتحدة في المرتبة الأولى، ثم معهد ستكهولم للبيئة في السويد، ويليه ذلك خمسة مؤسسات بحثية من الولايات المتحدة. ولم يظهر اسم أي مركز بحثي عربي في هذه القائمة التي تتضمن ٧٠ مركزاً.

وفي مجال مراكز البحث المختصة بالسياسات الخارجية والشؤون الدولية يأتي معهد بروكنجز في الولايات المتحدة في المرتبة الأولى، يليه وقف

كارنجي للسلام العالمي من الولايات المتحدة كذلك، ثم مركز شاثام هاوس في المملكة المتحدة، ويظهر في القائمة التي تضم ٦٥ مركزاً، مركزاً من البلاد العربية، الأول مركز الأهرام المصري في المرتبة ١٤، والثاني مركز الدراسات الاستراتيجية في الأردن في المرتبة ٤٧.

وفي مجال مراكز البحوث المختصة بالسياسات الصحية يأتي مركز كامبرج لبحوث الخدمات الصحية في المملكة المتحدة في المرتبة الأولى، يليه مراكز بلومبرغ لبحوث الصحة العامة، ثم مؤسسة راند، ثم مؤسسة بروكنجز، والمراكز الثلاثة في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا يظهر أي مركز عربي في القائمة التي تتضمن ثلاثين مركزاً.

وفي مجال مراكز البحوث المختصة بالعلوم والتكنولوجيا جاء في المرتبة الأولى معهد ماكس بلانك الألماني، ثم برنامج معهد ماساشوستس للتكنولوجيا في الولايات المتحدة، ثم مؤسسة التطوير المعلومات والتكنولوجيا الأمريكية، ثم مؤسسة راند الأمريكية، ثم مركز بحوث التطوير الألماني. ولا يظهر أي مركز عربي في هذه القائمة.

وفي مجال مراكز البحوث المختصة بالسياسات الاجتماعية يأتي في المرتبة الأولى مؤسسة بروكنجز، ثم المعهد الحضري، ثم مؤسسة راند، وكلها من الولايات المتحدة الأمريكية، ثم معهد فريزر الكندي، ولا يظهر في القائمة أي مركز عربي.

وفي مجال مراكز البحث المتخصصة بالشفافية والحوكمة الرشيدة يأتي في المرتبة الأولى مركز الشفافية الدولية الألماني، ثم بيت الحرية (فريدم هاوس) الأمريكي في المرتبة الثانية، ثم ثلاثة معاهد بريطانية، ولا يظهر أي مركز عربي في القائمة.

وفي مجال أفضل البحوث من حيث تطوير الأفكار والنماذج المعرفية يأتي وقف كارنجي للسلام العالمي في المرتبة الأولى، يليه معهد باترسون للاقتصاد العالمي وكلاهما في الولايات المتحدة، ثم يأتي مركز شاثام هاوس البريطاني في المرتبة الثالثة، يليها مركز بريكس للسياسات في البرازيل. ويظهر

اسم المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية في القاهرة في المرتبة ٢٢ ضمن القائمة التي تحتوى على ٤٠ مركزاً.

ومن حيث انتماء المراكز البحثية للأحزاب السياسية تأتي أول ثلاثة مراكز في ألمانيا وهي بالترتيب مؤسسة كونراد اديناور، ثم مؤسسة فريدريك إيبيرت، ثم هنريك بول ستفتانغ، ويأتي بعدها مركز ديموس البريطاني، وجمعية فابيان البريطانية. ويظهر في القائمة التي تتضمن ٣٠ مركزاً، مركز وحيد في الولايات المتحدة في المرتبة ١١ وهو معهد السياسات التقدمية، ولا يظهر أي مركز عربي.

ومن حيث المراكز البحثية المرتبط بالجامعات يأتي في المرتبة الأولى مركز بلفير للعلوم والشؤون الدولية في جامعة هارفارد الأمريكية، ثم مجموعة أيدياز/ للسياسات العامة المرتبط بمدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية في بريطانيا، ثم مركز البحوث والدراسات الدولية في فرنسا، ويظهر مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية المرتبط بجامعة المستنصرية في العراق ويأتي في آخر القائمة التي تتكون من ٤٠ مركزاً.

وتأتي أهمية هذه الوثيقة ليس فقط من النتائج التي تمخضت عنها، وإنما تأتي كذلك من أعمال منهجية ذات مستويات عالية من الضبط، وسلسلة من الإجراءات والخطوات شارك في تحديدها وممارستها عدد كبير من الباحثين. وكان لهذا النمط من الدراسات أثره في انتباه إدارات المراكز البحثية إلى أمور متعددة وجوانب متنوعة من عمل المراكز لم تكن موضع رعاية واهتمام في السابق. لكن هذه الأمور بعد إثارة الأسئلة حولها أصبحت موضع اهتمام وبرمجة في عمل المراكز.

لا شك في أن تقويم عمل أية مؤسسة مهمة أساسية من مهامها، وربما يتضمن الهيكل الإداري للمؤسسة مكوناً خاصاً للتقويم. ومع ذلك فإنَّ ثمة أهمية خاصة أن يتم تقويم عمل المؤسسة من خارجها.

- يمكن عمل جلسة عصف فكري لمناقشة أهمية طريقتي التقويم، والفروق التي ربما تظهر بين نتيجة التقويمين.

ورغم أن عدداً من مراكز البحوث الأمريكية تمارس عملها ونفوذها لمدة تزيد عن نصف قرن، فإن الغموض لا يزال يُلفُّ كثيراً مما يدور فيها، ويبدو أن ظاهرة الغموض هذه ليست مسألة عرضية حول وجود هذه المراكز، بالقدر الذي هو مفتاح حقيقي لتأثيرها. فبالمقارنة مع مصادر المعرفة الأخرى مثل الجامعات والوكالات الحكومية والأعمال والإعلام، فإنّ مراكز البحث في الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص تمارس مقداراً هائلاً من الضغط على المواطنين والمشرعين في طريقة فهمهم للعالم. إن هذه المراكز تؤثر بعمق على الحكومة والإعلام والدور السياسي للمفكرين. فخلال نصف القرن الماضي لم يكن هناك تحولات جديدة أثرت على النظام السياسي للولايات المتحدة ومحتوى التشريعات الفعلية أكثر مما فعلت مراكز البحوث، ومع ذلك فإن تحليل هذه الظاهرة بقي في نطاق ضيق جداً.

وقد نُشرت في الآونة الأخيرة بعض الكتب المتخصصة التي تكشف عن المدى الذي وصلت إليه مراكز البحوث في الولايات المتحدة الأمريكية من التأثير على عملية صنع السياسات الأمريكية في البيت الأبيض والكونغرس، لا سيما السياسات الخارجية. ومن بين المراكز التي وصل أثرها إلى حدود كبيرة معهد بروكنجز، ومؤسسة التراث Heritage Foundation، ومشروع للقرن الأمريكي الجديد Project for the new American Century. لقد أصبحت بعض مراكز البحوث المشهورة من اللابعين الرئيسيين في الساحة السياسية. وخلال نصف القرن الماضي كانت مراكز البحوث عنصراً أساسياً في هيكلية السياسة الأمريكية، عن طريق تقديم النصيحة للرؤساء وصناع السياسات، وتقديم شهادات الخبراء في اجتماعات الكونغرس.

إن كثيراً من التقارير التي قدمتها مراكز البحوث وأُخذت على ضوءها قرارات بقيت لسنين موضع جدل،^(١) بما في ذلك تطوير ونقل صواريخ الدفاع الوطني، وحرب جورج بوش الابن على الإرهاب. وقد كشفت الكتب والدراسات حول واقع مراكز البحث الأمريكية، عن نقص وعدم شفافية في البيانات الأساسية عن هذه المراكز، وطرق إدارتها، والنفوذ الذي تتمتع به في العاصمة الأمريكية، والمحابة التي تلقاها بوصفها مؤسسات معفاة من الضرائب. كما توصلت هذه الدراسات إلى أن هذه المراكز تنظر إلى القضايا العامة وتقوم بتحليلها بنجاح أكثر بكثير مما تستطيع ملاحظة جوانب العجز والقصور في هذه المراكز نفسها، وملاحظة حاجتها إلى الاهتمام بضبط جودة عملها وهذا يؤكد الحاجة إلى تغيير جوهري في أنماط إدارتها، بحيث توجه الجهد البحثي اللازم لمعرفة الآثار بعيدة المدى المترتبة على السياسات التي أوصت بها في المجال الأمني والاقتصادي والبيئي وجرى اعتمادها. وقد كانت هذه التوصيات نتيجة مباشرة لاستجابة هذه المراكز للقضايا المستعجلة التي تحال إليها أو المناسبات الطارئة التي تتنافس مراكز البحوث في اقتناصها.^(٢)

(١) يمكن التعرف كثير من أمثلة نفوذ مراكز البحوث وأثرها في شن الحروب الأمريكية في العالم في كتاب (أندرو باكفيتش) أستاذ العلاقات الدولية في جامعة بوستن الذي كان مشاركاً في هذه الحروب، والكتاب بعنوان العسكرية الأمريكية الجديدة: كيف يتم إغراء الأمريكيين بالحروب.

- Bacevich, Andrew J. *The New American Militarism: how American are seduced by wars*, Oxford and New York: Oxford University Press, 2005.

(٢) من بين الكتب التي درست واقع مراكز البحث الأمريكية، وأثارت الشكوك على مشاكل إدارتها الكتب الثلاثة الآتية:

- Abelson, Donald. *A Capitol Idea: Think Tanks and US Foreign Policy*. Montreal, Canada, McGill-Queen's University Press (August 14, 2006).

- Weidenbaum, Murray, *The Competition of Ideas: The World of the Washington Think Tanks*, Piscataway, New Jersey: Transaction Publishers (March 31, 2011).

- Medvetz, Thomas. *Think Tanks in America*, Chicago: University Of Chicago Press, (September 6, 2012).

خامساً: مراكز البحث والإعلام

تعتمد مراكز البحوث على الإعلام اعتماداً كبيراً، فثمة توجهات إيديولوجية مشتركة بين بعض مراكز البحوث وبعض وسائل الإعلام، لا سيما القنوات التلفزيونية التي يشاهدها ملايين الناس، حيث تظهر هذه الوسائل شخصيات هذه المراكز وتقاريرها بصورة مكثقة. وهناك مؤسسات صحفية تابعة مباشرة لمراكز البحوث فمثلاً يصدر "مجلس العلاقات الخارجية" Council on Foreign Relations الأمريكي صحيفة دورية واسعة الانتشار والتأثير هي "الشؤون الخارجية" Foreign Affairs. ويصدر وقف كارنجي للسلام العالمي Carnegie Endowment for International Peace مجلة "السياسة الخارجية: Foreign Policy، ويصدر معهد الشرق الأوسط "مجلة الشرق الأوسط" Middle East Journal، ويصدر "معهد الولايات المتحدة للسلام سلسلة التقارير المتخصصة Special Reports، ويصدر مركز معلومات الدفاع سلسلة "مراقبة قضايا الدفاع" Defense Monitor.

ومن بين مراكز البحث ذات التوجه السياسي الفاعل "المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي" Jewish Institute for National Security Affairs الذي يقيم علاقة وثيقة بوزارة الدفاع الأمريكية، ويصدر مجلة لا تخفي أيديها الصريح لإسرائيل وهي مجلة شؤون عالمية Global Affairs. وتصدر مؤسسة راند "مجلة علمية محكمة تسمى "مجلة راند للاقتصاد" RAND Journal of Economics، ويصدر مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية مجلة باسم "واشنطن كوارترلي". ورئيس المؤسسة الأمريكية الجديدة "The New American Foundation، وهو ستيف كول، كان قبل ذلك مدير التحرير في جريدة واشنطن بوست. ويصدر مركز وودرو ويلسن العالمي للمفكرين Woodrow Wilson International Center for Scholars مجلة فصلية بعنوان "ويلسون كوارترلي". وترتبط مجلة نيو ريبليك بمجلس القيادة الديمقراطية The Democratic Leadership Council ... وهكذا.

ويعد وليام كريستول أحد شخصيات المحافظين الجدد الذي له حضور واسع في المراكز البحثية والإعلام. ففي مجال المراكز البحثية كان أحد مؤسسي "مشروع قرن أمريكي جديد" Project for the New American Century (PNAC) وعضو الإدارة الاستشارية في "مركز الأخلاقيات والسياسة العامة"، ومدير مركز "مبادرة السياسة الخارجية" وعضو إدارة في عدد من المؤسسات البحثية منها: "لجنة الطوارئ لدعم إسرائيل"، و"حافظ على أمريكا سليمة". أما في مجال الإعلام فله كذلك حضور واسع، فهو مؤسس مجلة "ويكلي ستاندرد"، وهو معلق سياسي في عدد من الشبكات الإخبارية التلفازية والإذاعية.

هناك كثير من الصحفيين الذين عملوا أو لا يزالون يعملون في أكثر من صحيفة ومجلة وبرنامج تلفزيوني، وهم في الأساس باحثون في أحد مراكز البحث المعروفة، ومثال ذلك فريد زكريا الذي أدار عدداً من البرامج البحثية في معهد الأمن الدولي الأمريكي، وعمل رئيساً لتحرير النسخة الدولية من مجلة نيوزويك، وقدم عدداً من البرامج التلفزيونية في الشؤون الدولية، ويكتب في صحيفة الواشنطن بوست.

وقد نشرت مؤسسة ترانسباريتي Transparency على مدونتها مقالة كتبتها "جين ارمسترونج"^(١) والكاتبة هي محللة في مركز بحثي يسمى "منظمة مبادرة المساءلة العامة" Public Accountability Initiative . وتوثق المقالة تفاصيل عن طبيعة العلاقة بين مراكز البحث والصحافة. أكدت الباحثة في تلك المقالة أن وسائل الإعلام في كثير من الأحيان لا تذكر العلاقات الوثيقة بين الصناعات الدفاعية ومراكز البحوث، لا سيما في

(١) انظر المقالة في الرابط

- <http://www.transparify.org/blog/2014/3/2/gin-armstrong>

تاريخ الاسترجاع ٢٠١٤/٦/١٦

المناقشات التي تتم حول قضايا الأمن القومي.^(١) والمقالة هي مثال معبر عن التغطية التي تقوم بها أجهزة الإعلام لتقارير ودراسات مراكز البحوث الأمريكية. وهو موضوع التدخل العسكري الأمريكي الذي كان متوقعا في الأزمة السورية.

بيّنت المقالة أنه في شهر واحد من صيف ٢٠١٣، تمت الإشارة ١٤٤ مرة إلى سبعة من مراكز البحوث المشهورة في الصحف الأمريكية في سياق الجدل الذي كان قائما حول التدخل الأمريكي في سوريا. فقد وجدت الباحثة وزملاؤها في "مبادرة المساءلة العامة" أنّ الصحافة قد جرى احتلالها من أفراد ومؤسسات بحثية تدعمها الصناعات العسكرية. وأنّ معظم هذه المؤسسات لا تكشف عن علاقاتها مع تلك الصناعات. وعلى سبيل المثال فإنّ مؤسسة بروكنجز، ومركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، ومعهد دراسات الحرب كانت أكثر المؤسسات البحثية التي تم التنويه بأعمالها حول الموضوع، فخبراء بروكنجز وردت أسماؤهم في ٣١ مقالة في الصحف الأمريكية. ومع أنّ بروكنجز تعلن أنها مؤسسة مستقلة، لكنها تتسلم ملايين الدولارات من الصناعات العسكرية بما في ذلك بوينغ،^(٢) ولوكهيد،^(٣) ونورثروب جرومان،^(٤) وبوز ألين هاملتون.^(٥)

(١) لكن هناك منظمات بحثية متخصصة في كشف مثل هذه العلاقات، وتحليل أثارها على السياسات الداخلية والخارجية.

(٢) شركة صناعة طائرات مدنية وعسكرية، وهي الأكبر في العالم.

(٣) شركة صناعة طائرات تخدم البحرية الأمريكية وقوة الدفاع اليابانية، والقوات الجوية الاسترالية، والقوات الجوية البرازيلية.

(٤) شركة نورثروب جرومان هي ثالث أكبر مقاول للمعدات الدفاعية للجيش الأمريكي وأكبر بائني للقطع البحرية وهي الشركة التي أنتجت كل حاملات الطائرات الأمريكية وعدد من الغواصات النووية.

(٥) وهي مؤسسة خدمات استراتيجية ودفاعية. وتقدم خدماتها في الأساس لوزارة الدفاع والجيش والبحرية وموضوعات الفضاء والاستخبارات.

ومن المعروف أن رonald ساندرز رئيس مجلس الاستشارات التربوية في بروكنجز هو كذلك نائب الرئيس في بوز ألين هامتلون.

وقد جرى التنويه بالمركز المعروف باسم: "مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية" في ٣٠ مقالة عن سوريا وعلاقات هذا المركز مع الصناعات العسكرية علاقات واسعة من خلال الأعمال الاستشارية وعضوية مجالس الأمناء. فمثلاً المستشارية الرئيسة في المركز المذكور مارغريت سدني آشورث نائبة الرئيس للعلاقات مع الحكومة في نورثروب جرومان.

أما "معهد دراسات الحرب" فإن التنوية بتحليلاته ذكرت في ذلك الشهر في ٢٢ مقالة عن سوريا، ومن المعروف أن أحد محرري وول ستريت جورنال واسمها "اليزابيث أوباغي" ذكر اسمها على لسان كل من وزير الخارجية الأمريكي جون كيري والسيناتور جون مكين في جلسات الاستماع في الكونغرس الأمريكي، من أجل تبرير التدخل العسكري في سوريا. ومجلس الإدارة في هذا المعهد يمثل أعلام الصناعات العسكرية الرئيسة الأمريكية.

المهم أن البعد الإعلامي الذي نحاول الإشارة إليه في هذا المثال هو أن الصحف التي نشرت هذه المقالات لم تكشف عن علاقة مراكز البحث بالصناعات العسكرية، ليس فقط في مجال التمويل المالي السخي الذي تقدمه هذه الصناعات، وإنما من خلال الشخصيات الرئيسة في هذه المراكز التي تعمل في الوقت نفسه في الصناعات العسكرية.

إن فكرة تسويق الأفكار كما تسوق المنتجات المادية خضعت لجدل قوي، ومثال ذلك التغطية الإعلامية التي نالتها أعمال معهد فريزر الكندي، فالمعهد يوظف استراتيجية متطورة للتواصل مع وسائل الإعلام الرئيسة ووسائل الاتصال الاجتماعي لتعريف الجمهور بمعلومات عن الاختيارات السياسية التي يواجهونها. ونتيجة لذلك فإن السياسات تتبع خطأً يوافق عليه الرأي العام. وكمثال على ذلك فإن الأعمال التي قام بها المعهد في عام واحد (٢٠١١) في عدد من المجالات مثل الرفاهية الاقتصادية، والرعاية الصحية، ومقارنة الدول

في مجال سياسات الطاقة، ومستويات الضرائب، حصلت على تغطية في وسائل الإعلام الكندية والعالمية ١٦٧٤٥ مرة.^(١)

وينظر الصحفيون عادة إلى الموظفين والعاملين في مراكز البحوث للحصول على مادة يملؤون بها أعمدتهم، بينما ينظر خبراء مراكز البحوث إلى الحصول على شهرة معينة لأشخاصهم في وسائل الإعلام، حيث يظهرون بصفتهم "خبراء" يتم التنويه بأرائهم وخبراتهم في البرامج الإخبارية والحوارية في قنوات الإذاعة والتلفزة ووسائل الإعلام المطبوعة، وبعض المراكز البحثية تقدم برامج منتظمة. ومثال ذلك مركز وودرو ويلسون لمفكري العالم يقدم برنامجاً إذاعياً منتظماً بعنوان "حوار" يذاع عبر مائتي محطة ويستقطب حوالي مائتي ألف مستمع. وبعض المراكز مثل مؤسسة بروكنجز، ومؤسسة هيرتيج تملك استديوهات تلفزيونية تبث برنامجاً أسبوعياً منتظماً عبر PBS وهي قناة التلفزيون العامة التي تملكها الحكومة. وكثير من خبراء مراكز البحوث يظهرون عدة مرات في الأسبوع في القنوات التلفزيونية الأكثر شهرة مثل CNN وغيرها. ولا ننسى أن حضور مراكز البحث وخبرائها في وسائل الإعلام الإلكترونية أخذ يتزايد بصورة كبيرة.

هناك كثير من المراجع والدراسات التي وثقت التحيز الذي تلعبه وسائل الإعلام، ومن بين هذه الدراسات ما نشره إدوارد هيرمان ونعوم تشومسكي في كتابهما "صناعة الموافقة"، حيث يشير المؤلفان إلى أن "نموذج الدعاية" يتكون من "المصافي" التي تحدد محتوى وسائل الإعلام، والنتيجة هي تكوين صورة محددة عن العالم تخدم المصالح الاقتصادية للجماعات المتنفة، ويحدث هذا من خلال اختيار الموضوعات ونشر المخاوف، وتأطير القضايا، وتصفية

http://www.fraserinstitute.org/uploadedFiles/fraser-ca/Content/About_Us/Who_We_Are/what-is-a-think-tank.pdf (١)

المعلومات، واستخدام أساليب التركيز، ونبرة الخطاب، وإبقاء الجدل ضمن الحدود المقبولة." (١)

ويضيف المؤلفان: "من المؤكد أن هناك كثيراً من الأشياء يمكن فعلها، إن الرأي العام يتشكل من خلال ما يسمعه الناس من السياسيين، وما يقرأونه في الصحف وما يسمعونه من المعلقين، وعليه فهناك كثير من الأشياء يمكن علمها." (٢)

سادساً: مراكز البحوث في العالم العربي

لقد أصبحت المراكز البحثية في أي مجتمع معاصر سمةً من سمات التقدم العلمي والثقافي والحضاري، تعبّر عن حيوية المجتمع وقدرته على التواصل وتوظيف المستجدات من الخبرات الفكرية والعملية. ومن ثم فإن البيئة السياسية والثقافية للمجتمع وتطوره الحضاري هي التي توفر لهذه المراكز قدرتها على العمل الفاعل والتأثير، من خلال الأطر التشريعية، والدعم المالي، والحرية السياسية، والاستقلال الفعلي.

وإنه لمن المحزن حقاً أن نلاحظ الفقر في البحوث والدراسات العربية التي تختص بتوثيق البيانات الإحصائية والتقويمية عن أية مسألة أو قضية في العالم العربي، وما يتوفر من هذه البيانات هي أقرب إلى الخبرات الفردية والانطباعات الشخصية. (٣) وعلى الباحث الذي يود الحصول على بيانات ذات قيمة عن العالم العربي أن يعود إلى الدراسات والبحوث التي قامت بها مؤسسات أجنبية. وموضوع مراكز البحوث في هذا المجال لا يشدّ عن سائر الموضوعات الأخرى، من حيث الفقر في البيانات الإحصائية والتقويمية.

(1) Herman, Edward and Chomsky, Naom. *Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media*, New York: Pantheon (January 15, 2002) p. 298.

(2) Ibid.

(٣) يمكن أن نستثني من ذلك البيانات المتعلقة بقوى المعارضة في العالم العربي التي تتولى وزارات الداخلية والمؤسسات الأمنية رصدها وتوثيقها وتوظيفها بصورة فاعلة!

ومع أن البيانات التي تقدمها الدراسات والبحوث لا بد أن تكون أساساً للقرارات التي يتخذها المسؤولون في الدول العربية، في المسائل السياسية والاقتصادية والأمنية، فإن واقع الحال أن أساس معظم هذه القرارات هي المزاج الشخصي لصانع القرار، أو من يحيط به من المستشارين الأجانب.^(١) وحين يلزم الاستشهاد بالبيانات فإن مصادرها سوف تكون وثائق الأمم المتحدة، ولا سيما البنك الدولي أو صندوق النقد الدولي، وتقارير مراكز الدراسات والبحوث الأمريكية والأوروبية.

ومن الملاحظ أن المؤسسات الدولية والأمريكية والأوروبية لا تفرد دراسات مستقلة عن العالم العربي، بل تُجملُه مع الإقليم الأكبر الذي يسمونه الشرق الأوسط وشمال أفريقيا MENA، حيث تحرص هذه المؤسسات أن تُوجد مكاناً مناسباً لدولة الاحتلال الإسرائيلي فيه، إضافة إلى تركيا وإيران وقبرص.

بغض النظر عن معرفة النوايا الحقيقية لهذه الطريقة في الحديث عن العالم العربي، يمكن النظر في النتائج المترتبة عليها:

- ليس في ذلك إهمال لمسمى العالم العربي، وتأكيد لمسمى الشرق الأوسط، وفصل للجنح الإفريقي من العالم العربي حتى عن مفهوم الشرق الأوسط بالتأكيد على ذكر شمال إفريقيا مضافاً إلى الشرق الأوسط!؟
- ما النتائج الأخرى التي يمكن التفكير فيها؟

وحتى تتمكن من معرفة البيانات الخاصة بالعالم العربي من الدراسات الأجنبية عليك أن تبذل جهداً إضافياً، لفصل بيانات البلاد العربية عن بيانات الإقليم. ويتضح ذلك إلى حد كبير من

(١) وجد وليد عبد الهادي في بحثه عن دور مراكز البحوث والدراسات في الأردن، أن صانع القرار لا يعتمد على البيانات والنتائج التي تقوم بها مراكز البحوث حتى تلك المراكز التي تمولها الحكومة، وكان أحد الأمثلة على ذلك أن قيام صانع القرار بتغيير الحكومات لا يرتبط بنتائج استطلاعات الرأي التي يقوم بها مركز الدراسات الإستراتيجية في الجامعة الأردنية عن شعبية الحكومات. انظر: عبد الهادي، وليد. دور مراكز الأبحاث في صناعة القرار السياسي الأردني ١٩٨٩-٢٠١٠. بيروت: معهد عصام فارس للسياسة العامة والشؤون الدولية في الجامعة الأمريكية في بيروت، سلسلة برنامج "الأبحاث عن صنع السياسات العامة في العالم العربي، سلسلة أوراق عمل رقم ١١ (تشرين الأول ٢٠١٢)، ص ١٣-١٤.

البيانات التي قدمتها الدراسة الأمريكية التي نفذتها جامعة بنسلفانيا بعنوان "برنامج مراكز الفكر والمجتمعات المدنية." وصادر تقريرها في يناير ٢٠١٤.^(١)

وقد حاولنا أن نقرأ بعض صور الحضور للمراكز البحثية العربية في هذا التقرير. وتبين لنا أن عدد المؤسسات البحثية في العالم العربي التي تستحق مسمى Think Tank، هو ٣٨٧ مؤسسة، موزعة على جميع الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية، باستثناء الصومال وجيبوتي وجزر القمر. وتمثل أقل من ٥٧٪ من مجموع المراكز البحثية التي تضمنها التقرير (٦٨٢٦). ومن حيث عدد المراكز في البلاد العربية التي تضمنها التقرير تأتي مصر في المرتبة الأولى، (٥٥ مركزاً)، ثم فلسطين والعراق (٤٣ مركزاً لكل منهما)، ثم الأردن (٤٠ مركزاً)، ثم تونس (٣٩ مركزاً)، ثم اليمن والمغرب (٣٠ مركزاً لكل منهما)، ثم لبنان (٢٧ مركزاً). ويلاحظ أن المملكة العربية السعودية لديها ٧ مراكز فقط، بينما كان للإمارات العربية المتحدة ١٤ مركزاً، وللكويت ١١ مركزاً، ولقطر ١٠ مراكز.

وتُظهرُ قائمة أشهر مائة مركز بحثي خارج الولايات المتحدة الأمريكية اسم مركز عربي واحد هو مركز الأهرام الذي يأتي في المرتبة ٦٦. وفي قائمة أشهر ٤٥ مركزاً بحثياً في إقليم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا يظهر ١٦ مركزاً إسرائيلياً وتركياً. ويلفت النظر أن المرتبة الأولى في القائمة يحتلها مركز كارنيغي - بيروت، وهو فرع لمؤسسة أمريكية. ويقع مركز بروكينجز الدوحة ضمن أشهر خمسة مراكز، وهو كذلك فرع لمؤسسة أمريكية. ويتحدد الحضور العربي ضمن هذه المراكز الخمسة في مركز الأهرام المصري، ومركز الخليج السعودي فقط.

ومن الواضح أن الفقر البحثي في العالم العربي يتمثل في تواضع عدد المراكز البحثية بالمقارنة مع الدول والأقاليم الأخرى في العالم. لكن الفقر يتمثل في

(1) McGann, James G. 2013 *Global Go to Think Tank Index Report*. Philadelphia, PA, USA, Think Tanks and Civil Societies Program, University of Pennsylvania, 2014.

- ويوضح التقرير أن برنامج المراكز البحثية والمجتمعات المدنية (The Think Tanks and Civil Societies Program (TTCS)) الذي يتولى عمل هذا الكشاف سنوياً يقدم خدماته في ٨١ بلداً من بلدان العالم، انظر التقرير ص ٥.

جوانب أخرى لا تقل أهمية عن الجانب العددي؛ إذ كانت رتب بعض مراكز البحث في البلاد العربية التي ظهرت في جداول التقرير متواضعة جداً على جميع معايير نوعية الإنجاز التي بلغت ٢٨ معياراً. ومن بين هذه المعايير مدى نجاح المركز في إنتاج أفكار وبرامج إبداعية، وأثر هذه البرامج في تطوير القيم الاجتماعية وتحسين نوعية الحياة، والقدرة على إشراك أصوات جديدة في عملية صنع السياسات، والالتزام بتطوير معايير وسياسات لإنتاج براهين دقيقة مبنية على البحث والتحليل الموضوعي المستقل عن المصالح الشخصية أو المؤسسية أو المالية، والقدرة على تجنيد مفكرين وباحثين من نوعية متميزة والاحتفاظ بهم.^(١)

وبالاعتماد على الخبرة الشخصية لكاتب هذه السطور، فإنه يمكن القول بأن نوعية معظم البحوث التي تنتجها مراكز البحث في البلاد العربية، تتصف بضعف واضح فيما يختص بالتصميم البحثي ومنهجية جمع البيانات وتحليلها. والتقارير البحثية حتى الجودة منها قلما تصل إلى صانع القرار ليستفيد منها، وإن وصلت، فقلما يأخذها مأخذ الجد، لاعتماده على مرجعيات أخرى.

وكثير من العرب أو من ذوي الأصول العربية يعملون في مراكز بحثية أجنبية أو أنشأوا مراكز بحثية في بلدان أجنبية، مثال ذلك هشام الشرايبي، فلسطيني الأصل أنشأ مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون الأمريكية، وهناك كثير من الباحثين العرب في "مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي" يتقدمهم نائب الرئيس للدراسات فيها، والمشرف على أبحاث كارنيغي في واشنطن وبيروت حول شؤون الشرق الأوسط، الوزير الأردني الأسبق مروان المعشر. وجيمس زغبى هو الذي أنشأ المعهد العربي - الأمريكي، ويتولى القيام بدراسات تقوم على استطلاع الرأي Galup. ورضوان المصمودي من أصل تونسي أنشأ مركز دراسات الإسلام والديمقراطية. وكبير الباحثين في معهد هدسون الأمريكي هو حسن منيمنة اللبناني الأصل... وهكذا

(١) المرجع السابق ص ١٣-١٤.

فمعظم مصادر المعرفة عن مراكز البحوث العربية هي مقالات صحفية تعبر عن انطباعات وتوجهات الكاتب، أو أوراق تقدم إلى مؤتمرات، وتخلو من البيانات الدقيقة، ولا تمثل بحوثاً علمية. وما قد تتضمنه من بيانات لا تكون موثقة توثيقاً علمياً، ومثال ذلك أننا نجد مقالة صحفية لكاتبة ... جاء فيها أن "نسبة الإنفاق الحكومي على المراكز البحثية في العالم العربي بلغت بحسب آخر الإحصاءات نحو ٩٠,٨٪، فيما بلغت نسبة تمويل القطاع الخاص لتلك المراكز نحو ٩,٢٪ فقط." ويقتصر توثيق هذه المعلومة بالقول: "هذا ما أكدته الدكتور... أمين عام المجلس الوطني للبحوث العلمية في ..."^(١) ونظراً لأهمية هذه المعلومة الإحصائية فإننا نجد عشرات المقالات الصحفية الأخرى، تنقلها على ذمة المقالة الأولى.

وقد نشر "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" في الدوحة/ قطر عام ٢٠١٣، دراسة بعنوان: دور مراكز الأبحاث في الوطن العربي: الواقع الراهن شروط الانتقال إلى فاعلية أكبر."^(٢) ولكن الدراسة اعتمدت في الأساس على مقالات صحفية نشر معظمها على مواقع إلكترونية. فقد ورد في البحث ٥٠ هامشاً منها ٣٩ هامشاً لمواقع إلكترونية، اعتمد على موقعين منه اثنتي عشرة مرة. أما بقية الهوامش، فإن منها تعليقات توضيحية لا يشير إلى مرجع، ومنها خمسة مراجع لكتب أو بحوث في مجلات. أما الأربعة هوامش المتبقية فهي لأوراق مؤتمرات عرضت في مراكز بحوث. والبيانات الإحصائية التي تختص بمراكز البحوث العربية جاءت من تقرير دراسة جامعة بنسلفانيا لعام ٢٠١١، وهي موجودة على رابط إلكتروني.

وحين تتحمس بعض المؤسسات لإصدار دليل عن مراكز البحث في البلاد

(١) انظر المقالة المشار إليها في الرابط:

http://www.saaaid.net/daeyat/omima/260.htm?print_it=1

تم استرجاع الرابط في ٢٠١٤/٦/٣٠

(٢) محمود، خالد وليد. دور مراكز الأبحاث في الوطن العربي: الواقع الراهن وشروط الانتقال إلى فاعلية أكبر، (سلسلة دراسات) الدوحة/قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣

العربية، ونتوقع أن نجد فيه بيانات إحصائية شاملة، نصاب بخيبة أمل كبيرة. مثال ذلك الدليل الذي أصدرته مجموعة من مراكز البحوث بعنوان: "دليل إرشادي لمراكز الدراسات ومؤسسات البحث والفكر والرأي في العالم العربي". فهذا الدليل اعتمد في ذكر بياناته عن عدد المراكز في الشرق الأوسط (ومنه البلدان العربية) على وثيقتين الأولى تقرير التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٣، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، والثانية هي تقرير ودراسة جامعة بنسلفانيا للمراكز البحثية لعام ٢٠١١، ونجد أن المؤسسات البحثية المشاركة في إعداد الدليل عدد محدود من المراكز، جاءت من الأردن ولبنان وفلسطين فقط.^(١)

وقد يكون حكمنا على غياب الدراسات والبحوث الأصيلة عن مراكز البحوث في العالم العربي حكماً قريباً من الواقع، لكن ذلك لا يستبعد وجود بعض الاستثناءات. ومنها بحث فريد يستند إلى جمع بيانات من مصادر أولية وتحليلها للتوصل إلى نتائج محددة، هذا البحث هو الذي أجراه الدكتور وليد عبد الهادي بتمويل من معهد عصام فارس للسياسة العامة والشؤون الدولية في الجامعة الأمريكية في بيروت،^(٢) وكان البحث بعنوان: "دور مراكز الأبحاث في صناعة القرار السياسي الأردني ١٩٨٩-٢٠١٠". ووجد أن ٨٠٪ من المؤسسات الحكومية الأردنية لديها ميزانيات لأغراض القيام بالدراسات والبحوث، ومع ذلك فإن نسبة مصادر المعلومات الحكومية - أي المصادر الذاتية- لقرارات هذه المؤسسات لا تزيد عن ٢٠٪، ونسبة المعلومات التي تحصل عليها هذه المؤسسات من كل من الجامعات ومراكز الدراسات الحكومية الأخرى والخاصة هي كذلك ٢٠٪. كما وجدت الدراسة أن نصف مراكز الدراسات الحكومية تلقت طلبات تكليف من المؤسسات الحكومية

(١) دليل إرشادي لمراكز الدراسات ومؤسسات البحث والفكر والرأي في العالم العربي، عمان/ الأردن: منشورات شبكة الديمقراطيين في العالم العربي ومركز بصر لدراسات المجتمع المدني، ٢٠١١، ص ١١.

(٢) عبد الهادي، "دور مراكز الأبحاث في صناعة القرار السياسي الأردني ١٩٨٩-٢٠١٠"، مرجع سابق

للقيام بدراسات محددة، بينما النصف الآخر لم يتلق أي تكليف من أية جهة رسمية، وأن المراكز الحكومية بصورة عامة "تقدم تقارير للمؤسسات الحكومية، وتأخذ هذه التقارير طابع العمل الروتيني في أغلب الأحيان، وتستخدم كمصادر للمعلومات أكثر منها لتقديم بدائل للقرار."^(١)

وتوصلت الدراسة إلى نتائج خاصة بعدد من الموضوعات مثل علاقة مراكز الدراسات بصنع القرار الأردني، تناول مراكز الأبحاث لموضوع مدينة معان، وموضوع النظام الانتخابي. وختمت الدراسة بخلاصة عامة أكدت أن مراكز الدراسات الأردنية "تعمل... في إطار بيئة ضاغطة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، كما أن العلاقة بين المراكز وهيئات صنع القرار السياسي والاقتصادي لا تعدو أن تكون علاقة غير منتظمة، وهي في أغلب الأحيان من طرف واحد وهو المراكز أكثر من أي دور واضح لهيئات صنع القرار. من ناحية أخرى، من الواضح أن مراكز الدراسات الرسمية أقرب لمراكز صنع القرار من المراكز الخاصة، لكن متابعة ما أنتجته هذه المراكز الرسمية لا تشير لأثر واضح لهذه العلاقة."^(٢)

وفي غيبة الدراسات الإحصائية العربية الرصينة عن واقع مراكز البحوث في العالم العربي، فإننا نجد أنفسنا مضطرين للبحث عن واقع هذه المراكز كما تظهر المقالات الصحفية المنشورة على الشبكة العالمية (الإنترنت)، فمعظمها يُكثر من الشكوى والندب والعيول على مستوى القصور والعجز والتخلف، ويضرب أمثلة صارخة على الفارق بين واقع هذه المراكز بالمقارنة مع المراكز في البلدان الأخرى.

ومن اللافت للنظر أنّ مراكز الفكر في البلاد العربية قد انتشرت في السنوات الأخيرة انتشاراً واسعاً، وذلك في ثلاثة مسارب:

(١) المرجع نفسه، ص ١٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢.

الأول: إنشاء فروع في العواصم العربية، لمراكز الفكر الأجنبية، وتكاد لا تجد مركزاً أمريكياً إلا وتجد له فرعاً أو أكثر في البلاد العربية.

الثاني: إنشاء مراكز بحوث ودراسات محلية تقوم بتنظيم نشاطات علمية في صورة مشاريع بحثية أو ندوات وحلقات دراسية ومؤتمرات، بالتعاون مع المراكز الأجنبية وبتمويل سخّي منها.

الثالث: إنشاء مراكز دراسات واستشارات وتدريب محلية، تسوّق نفسها بالاعتماد على خبرات شخصيات أجنبية، لا سيما في برامج التدريب في التنمية البشرية أو إدارة المشاريع. وتكون مادة هذه البرامج معتمدة على كتابات أجنبية مترجمة، وشهاداتها معتمدة من مركز أجنبي، وقلما تجد إعلاناً عن برنامج من هذه البرامج لا ينوّه بجامعة أجنبية، أو أستاذ أجنبي، يكون هو المدرب الخبير.

فيما يأتي مثال على صيغة إعلان عن دورة ينظمها أحد مراكز البحوث المحلية في بلد عربي:

"وتأتي هذه ... نتيجة لما يشهده العالم في الآونة الأخيرة من الدور المتنامي الذي بدأت تلعبه مراكز الفكر في التأثير على عملية صياغة السياسات العامة، وسعياً لتحقيق هذا الدور فقد تم الاتفاق مع نخبة مُتتقاة من الخبراء وأصحاب التجارب الدولية المميّزة من الخبراء الدوليين من جامعة ... يتصدرهم الأستاذ الدكتور ... الأستاذ بجامعة ...، لما له من خبرات لأكثر من ثلاثين عاماً في تأسيس وإدارة مراكز الفكر في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، الذي يُعدّ صاحب أكبر وأوسع المؤلفات العالمية في هذا الصدد. علماً بأن شهادات المشاركين ستمنح من جامعة ...، بالإضافة إلى شهادة أخرى من مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء...."

يُرجى قراءة الإعلان مرة أخرى، ثم الاجتهاد في إبداء خمس ملحوظات على الإعلان، واستخلاص الحكم الذي تراه مناسباً

سابعاً: قضايا المسلمين في مراكز البحث الغربية

منذ انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١، تحول اهتمام مراكز البحث الغربية من الخطر الأحمر، الذي كان الاتحاد السوفيتي يمثله، إلى الخطر الأخضر الذي يمثله العالم الإسلامي. وانشغلت مراكز البحث الغربية والصحافة المرتبطة بها بالبحث عن أوجه الخطر التي تمثلها الجماعات الإسلامية التي تحاول تأكيد هوية الشعوب والدول الإسلامية، وبدأت الحكومات الغربية تصنف هذه الجماعات وتلصق بها تهمة الإرهاب، وتمارس الضغوط الكبيرة على دول العالم الإسلامي لمواجهة هذه الجماعات، والحد من نفوذها، وتجفيف منابعها المالية، ومصادر تجنيد أفرادها في مؤسسات التعليم.

كان مصطلح "صراع الحضارات" واحداً من المصطلحات التي دخلت بكثافة لغة العلاقة بين الإسلام والغرب، في الربع الأخير من القرن العشرين. والمصطلح ليس مصطلحاً غريباً عن أدبيات تاريخ الأفكار، ولكن الحيوية التي دبت في هذا المصطلح مع نهاية الحرب الباردة ربما تكون قد بدأت باعتماد هذا المصطلح أساساً لنظرية فسر بها المستشرق الصهيوني الأمريكي "برنارد لويس" ما سماه جذور الغضب الإسلامي، وذلك في مقالة مطولة (٧٣٨٢ كلمة) بهذا العنوان، نشرتها له مجلة أتلانتك في سبتمبر ١٩٩٠^(١). ثم تلقف معهد أمريكان انتربرايز ذو الاتجاه المحافظ ذلك المصطلح وتبنّاه وعمق دلالاته، وذلك في محاضرة قدمها صاموئيل هنتجتون عام ١٩٩٢، ثم طور هنتجتون الأطروحة في بحث مطول في مجلة الشؤون الدولية بعنوان "صدام الحضارات"

(١) انظر المقالة بتمامها في رابط المجلة:

- <http://www.theatlantic.com/magazine/archive/1990/09/the-roots-of-muslim-rage/304643/>

تاريخ الاسترجاع ٢٠١٤/٧/٧

في عام ١٩٩٣^(١). ثم وسع هنتجتون أطروحته ونشرها في كتاب بعنوان: "صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي" في عام ١٩٩٦. ولا ننسى أن "لويس" و"هنتجتون" من خبراء مراكز البحوث المحافظة في الولايات المتحدة وعلى وجه الخصوص معهد أميركان انتربرايز المحافظ،^(٢) وأن المجلتين المشار إليهما هما أذرع لهذه المراكز.

وقد كثف هنتجتون اهتمامه وكتاباتة عن الإسلام والمسلمين بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، وانصب هذا الاهتمام على التحديات التي تواجه الحضارة الغربية وخاصة من الحضارتين الإسلامية والصينية ونشر كتاباً عن الحضارة الإسلامية. وكتب "مقالة مشهورة أخرى في عدد مجلة النيوزويك السنوي في ديسمبر ٢٠٠١ بعنوان "عصر حروب المسلمين" مكررا رؤيته التي سبق أن طرحها في كتابه، ومفسرا لأبعاد هذه الحروب؛ بما يعني أن نظريته قد تحققت، وأن حروب المسلمين ستشكل الملمح الرئيسي للقرن الحادي والعشرين.^(٣)

ويندر أن نجد مركزاً بحثياً واحداً من مراكز البحوث الأمريكية لا يهتم بشؤون العالم الإسلامي، لا سيما عندما تقع أحداث سياسية مهمة في بلدان العالم الإسلامي، وما أكثر ما تحدث هذه الأحداث! ولذلك كان من الطبيعي

(١) تقول موسوعة ويكيبيديا الحرّة عن مقال هنتجتون في مجلة الشؤون الدولية "أثار هذا المقال أكبر قدر من التعليقات والحوارات منذ أربعينيات القرن الماضي" انظر الرابط:

– http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B5%D8%A7%D9%85%D9%88%D9%8A%D9%84_%D9%87%D9%86%D8%AA%D9%86%D8%AC%D8%AA%D9%88%D9%86

تاريخ الاسترجاع ٢٠١٤/٧/٧

(٢) انظر اسم برنارد لويس وصاموئيل هنتجتون في موقع المعهد المشار إليه على الرابط:

– http://en.wikipedia.org/wiki/American_Enterprise_Institute

تاريخ الاسترجاع ٢٠١٤/٧/٧

(٣) انظر التعريف بصاموئيل هنتجتون في الرابط:

– http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B5%D8%A7%D9%85%D9%88%D9%8A%D9%84_%D9%87%D9%86%D8%AA%D9%86%D8%AC%D8%AA%D9%88%D9%86

أن تكون أحداث الربيع العربي موضع اهتمام ومراقبة ليس لدى صانعي القرار من السياسيين والعسكريين فحسب، وإنما كذلك لدى مراكز البحوث على اختلاف توجهاتها. وقد نشرت مجلة السياسة الدولية التي تصدر عن مؤسسة الأهرام في مصر مقالة ترصد رؤية ثلاثة من مراكز البحوث الأمريكية أحداث ثورة الخامس والعشرين من يناير في مصر، وهي: "معهد أميركان انتربرايز"، و"معهد بروكنجز"، و"معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى"؛ لبيان طريقة تقييم هذه المراكز للأحداث وتعامل النظام المصري مع مطالب المتظاهرين، وشكل الحياة السياسية في مصر بعد مبارك، وتأثير ذلك في مصالح الولايات المتحدة وعلاقتها بحليفاتها مصر.^(١)

وفي سياق اهتمام مراكز البحوث الغربية وأذرعها الإعلامية بقضايا العالم الإسلامي، نشرت مجلة أيرش تايمز في عددها الصادر ٩ حزيران ٢٠١٤ م في قسم الأديان والمعتقدات، مقالة كتبها Patsy McGarry بعنوان إيرلندا أقرب البلدان للتعاليم الاقتصادية الإسلامية. تحدث فيها عن نتائج دراسة أجراها باحثان من جامعة جورج واشنطن في الولايات المتحدة الأمريكية هما الدكتور حسين العسكري والدكتورة شهرزاد رحمان. ونقل الكاتب بعض البيانات التي ذكرها الدكتور العسكري في مقابلة له مع بي بي سي البريطانية. استخدم الباحثان ما سموه مؤشر الالتزام الإسلامي 'Islamicity index' حيث طبقا لمثاليات الإسلام في عدد من مجالات الحياة في المجتمع: الإنجاز الاقتصادي، الحوكمة، الحقوق الإنسانية والسياسية، والعلاقات الدولية... في ٢٠٨ بلداً من بلدان العالم. ولاحظ الباحث أن الدول الإسلامية ظهرت في نتائج الدراسة بصورة سيئة جداً، واتهم هذه الدول بأن الصفة الدينية (الإسلامية) التي تدعيها هي أداة للسيطرة. وقال: يجب أن نؤكد أن كثيراً من الدول التي تدعي الإسلام هي دول ظالمة، وفسادة، وغير متطورة، وغير "إسلامية" بأي معنى يمتد إليه الخيال.

(١) عبد العزيز، مروة. العسكر والإخوان، رؤية مراكز الأبحاث الأمريكية لمستقبل مصر بعد الثورة، مجلة السياسة الدولية، القاهرة: مؤسسة الأهرام، الإثنين ٢٠١٤/٧/٧.

أظهرت النتائج أن الدول العشر الأولى حسب ترتيب الالتزام بالقيم الإسلامية في مجال العدالة الاقتصادية: هي إيرلندا، والدنمارك، ولكسمبروغ، والسويد، والمملكة المتحدة، ونيوزيلندا، وسينغافورة، وفلندا، والنرويج، وبلجيكا. وجاءت ماليزيا في المرتبة ٣٣، والكويت في المرتبة ٤٢، بينما جاءت هولندا والولايات المتحدة في المرتبة ١٥، وفرنسا في المرتبة ١٧. وجاءت إسرائيل في المرتبة ٢٧، وهي مرتبة تسبق معظم الدول ذات الأغلبية الإسلامية. ولم تظهر أي دولة إسلامية ضمن أول ٢٥ دولة من حيث الالتزام بالقيم الاقتصادية القرآنية، ولم تظهر أية دولة عربية ضمن أول ٥٠ دولة. وللمفارقة الصارخة جاءت المملكة العربية السعودية في المرتبة ٩١، وقطر في المرتبة ١١١. وفي المؤشر الكلي للالتزام الإسلامي، الذي يتضمن المعايير القانونية والحكم، والحقوق الإنسانية والسياسية، والعلاقات الدولية، إضافة إلى العوامل الاقتصادية، جاءت ترتيب الدول العشر الأولى على الوجه الآتي: نيوزيلندا، لكسمبورغ، إيرلندا، أيسلندا، فنلندا، الدنمارك، كندا، المملكة المتحدة، أستراليا، هولندا. بينما جاءت ماليزيا في المرتبة ٣٨، والكويت في المرتبة ٤٨.

وخلص الباحث إلى القول: عندما يكون في أية دولة أو مجتمع مثل: حكام غير منتخبين، فاسدون، طغاة، وتسود فيها ممارسات عدم المساواة أمام القانون، وعدم تكافؤ الفرص في التنمية البشرية، وتغيب حرية الاختيار، ويوجد الثراء والفقر جنباً إلى جنب، وتلجأ الأطراف المتنازعة إلى العدوان في تسوية النزاعات، وتنتشر صور الظلم من أي نوع، فهذا يدل بالبداهة على أن المجتمع ليس مجتمعاً إسلامياً.^(١)

(1) THE IRISH TIMES. Section: Religion & Beliefs, see the link:

– <http://www.irishtimes.com/news/social-affairs/religion-and-beliefs/ireland-closest-to-islamic-economic-teachings-1.1826354>.

Retrieved 10 June 2014.

وفي التعليق على هذه الدراسة يمكننا القول إن هناك دراسات عديدة غير هذه الدراسة تبين أن كثيراً من الدول غير الإسلامية تمارس من القيم التي يسعى الإسلام إلى تحقيقها أكثر بكثير مما يتحقق لمواطني البلاد الإسلامية، لا سيما قيم العدل، والمساواة، والالتزام بالقانون، وتكافؤ الفرص، والمصالح الاقتصادية والأمنية... إلخ. ورغم أن النتائج المعلنة في هذه الدراسات تنسجم مع الانطباعات العامة لدى غالبية القراء المسلمين، وغير المسلمين، عند النظر إلى مظاهر التخلف في البلاد الإسلامية. إلا أنه ليس من السهل الحكم على صدق التصميم البحثي لهذه الدراسات من الناحية العلمية.

يلاحظ أن نتائج الدراسة تتحدد في نوعية الأسئلة التي يحاول البحث الوصول إلى إجابات عنها. فعندما تختص الأسئلة بالنظام السياسي ونوعية الحكام، فالنتائج سوف تكون مختلفة تماماً عنها فيما لو كانت تختص بمشاعر الناس العاديين وأنماط سلوكهم. وعندما يقوم الباحثون غير المسلمين بعمل دراسات عن واقع الالتزام بالإسلام في العالم الإسلامي، تكون القضايا المطروحة مختلفة، وتكون النتائج مختلفة تماماً؛ فالدراسة التي أجراها مركز باو للبحوث الأمريكي Pew Research Center لم تطرح أسئلة تختص بالحكام ونظام الحكم، وجاءت البيانات مطمئنة للشعور الإسلامي، حيث وجدت أن معظم المسلمين في جميع أنحاء العالم ملتزمون التزاماً عميقاً بإيمانهم، ويريدون أن تشكل تعاليمه حياتهم الشخصية ومجتمعاتهم السياسية ويحكموا بالشريعة.⁽¹⁾

ومن الجدير بالذكر أن الحديث عن القيم في الدراسات التي تتم في الغرب غالباً يتجاوز البعد الأخلاقي الفردي، ليكون الحديث عن القيم في تمثلاتها وتجلياتها الاجتماعية العامة؛ مثل مسائل الحريات، وحقوق الإنسان، والعدل،

(1) Pew Research Center. *The World's Muslims: Religion, Politics and Society*, April

30, 2013.

والمساواة، والالتزام بالقانون، وتكافؤ الفرص، وتجليات هذه القيم داخل المجتمع. أما تعامل المجتمع الغربي مع الشعوب الأخرى، وتجليات تلك القيم في السياسة الخارجية للمجتمع الغربي، فتلك مسائل أخرى.

إنّ الدراسات الغربية التي توجه النقد للمجتمع الغربي فيما يتصل بالقيم الاجتماعية والسياسة الخارجية وحقوق الإنسان ... أكثر عدداً وأشد قسوة من النقد الذي نوجهه نحن العرب أو المسلمين لذلك المجتمع. وهذه الدراسات النقدية كذلك أشد قسوة مما يمكن أن نوجهه نحن لمظاهر الضعف والتخلف وغياب القيم في مجتمعاتنا. والمسألة المطروحة هنا ليست المفاضلة بيننا وبينهم، فكل مجتمع له وعليه. والتفاضل يكون وفق المعيار المعتمد للمقارنة.

وكثير من الناس ينظرون إلى نتائج البحث في ضوء الانطباعات السائدة لديهم، ففي البحث المشار إليه حول غياب القيم الإسلامية في البلاد الإسلامية، فإن الغالبية العظمى من الناس لا تتردد في قبول نتائج البحث لأنها تطابق الواقع الذي يرون، ولذلك ليس لديها ما يسوغ التشكيك في صدق التصميم البحثي، أو الدوافع الشخصية أو السياسية للباحثين.

وكل من لديه خبرة في البحث يعرف أن التصميم البحثي مهما كان متقناً فهناك مهددات للصدق الداخلي والصدق الخارجي، وقلما ينجو البحث من التعرض لبعض هذه المهددات. حتى في البحوث ذات الضبط التجريبي. فالادعاء بأن نتائج البحث مشكوك فيها للخلل في التصميم البحثي لا يعني شيئاً كثيراً من الناحية العملية، ما لم تتصادم النتائج مع المواقف والاتجاهات المسبقة التي تحدد رد فعل القارئ.

إنّ مصدر التوجيه الأساس للنتائج في البحوث ذات التضمينات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، هو الطريقة التي تصاغ فيها أسئلة البحث، والمعايير

التي تعتمد في الحكم على الظواهر؛ إذ يصعب تبرئة صياغة الأسئلة ومعايير الحكم من الذاتية التي تقود إلى الإجابات المرغوب فيها. والدراسات "الأمريكية" الخاصة بالتشكيك في نتائج الدراسات والبحوث التي تقدمها كثير من مراكز الأبحاث الأمريكية Think Tanks، أكثر من أن تحصى، لا سيما بحوث السياسة الخارجية والعلاقات الدولية والتنافس الاقتصادي وقضايا البيئة، وغيرها. وعند المقارنة بين دوافع الباحث في قضية تتعلق بالإسلام أو المسلمين، عندما يكون الباحث مسلماً، أو غير مسلم، سوف نجد مصدراً آخر للتوجه نحو نتائج محددة. ولذلك يسهل تصميم الأسئلة التي تقود إلى النتائج المرغوب فيها.

إنّ الترويج الإعلامي والتسويق التجاري لنتائج البحوث هو أخطر ما تتعرض له البحوث. ويقع هذا الخطر في جميع المراحل: في تصميم البحث وتنفيذه ونشر نتائجه. وأستشهد بظاهرتين:

- الظاهرة الأولى تختص بالطريقة التي يقدم فيها الإعلام نتائج البحث، بدءاً من العنوان، ثم ذكر نتائج محددة والسكوت عن غيرها، وأخيراً في اختيار من يعلق عليها.

- أما الظاهرة الثانية فهي الترويج الاستهلاكي لمنتجات بحثية محددة. وآخر ما قرأت في هذا المجال هذا اليوم هو فضيحة البحوث الطبية التي تحدثت عنها مجلة Chronicle of Higher Education في عددها الصادر اليوم الخميس الثالث من تموز (يوليو) ٢٠١٤^(١). وهو موضوع معروض في المحاكم منذ أكثر من سنة، ويتعلق بأخطاء في التصميم والتحليل الإحصائي لبيانات بحوث طبية قادت إلى استخدام علاجات معينة لأمراض الضغط والقلب.

(١) http://chronicle.com/article/In-Japan-Research%20Scandal/147417/?cid=at&utm_source=at&utm_medium=en

تم الاسترجاع في يوم ٣ تموز (يوليو) ٢٠١٤.

ثامناً: تعريف ببعض مراكز البحث في العالم

١- معهد بروكنجز^(١) Brookings Institution

يعود إنشاء معهد بروكنجز إلى عام ١٩١٦. وتعود تسميته إلى روبرت بروكنجز (١٨٥٠-١٩٣٢) وهو رجل أعمال أمريكي ناجح، جمع ثروة كبيرة، ثم قرر أن يهتم بالعمل الخيري، فأنشأ معهداً مستقلاً لدراسات الحكومة، معنياً بتحليل قضايا السياسة العامة على المستوى القومي الأمريكي، استناداً إلى دراسة تقوم على الحقائق، ولجعل العلم أساساً لفهم عمل الحكومة. ثم أنشأ بعد ذلك معهداً للاقتصاد، ومدرسة للدراسات العليا في السياسة العامة، وفي عام ١٩٢٧، دمجت المؤسسات الثلاث معاً تحت اسم معهد بروكنجز. ورسالة المعهد هي تطوير وإجراء ودعم البحث في حقول عامة من الاقتصاد وإدارة الحكومة والعلوم السياسية والاجتماعية. وسرعان ما أصبح ولا يزال مركز البحوث الأكثر تأثيراً في الولايات المتحدة والعالم. وقد شهد عدد من الرؤساء الأمريكيين وقادة الكونجرس بقيمة الدراسات التي يقدمها خبراء المعهد، في كثير من القرارات المهمة في السياسة الأمريكية المحلية والخارجية. وكثير من مشاريع القوانين التي تعرض في الكونجرس الأمريكي تعد مسوداتها في هذا المعهد. وبعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ أسهم المعهد في تطوير الاستراتيجيات التي تعالج التحديات الداخلية والخارجية، منها المقترحات التي أثرت في صياغة قانون الأمن الوطني والعمليات الاستخباراتية العالمية.

٢- المعهد الملكي للشؤون الدولية (تشاتام هاوس)

Royal Institute of International Affairs (Chatham House)^(٢)

أنشئ المعهد عام ١٩٢٠، في لندن على قاعدة تشاتام هاوس ذات الشهرة

(1) <http://www.brookings.edu/about/history>

تاريخ الاسترجاع ٢٠١٤/٦/١٦

(2) http://www.bibliotecapleyades.net/sociopolitica/esp_sociopol_cfr_10.htm

تاريخ الاسترجاع 16/6/2014

العالمية التي تعني حرية التعبير، وعدم الكشف عن الآراء الفردية للمشاركين في المناقشات الحرة، وذلك من أجل تحقيق مناقشات صريحة وصادقة حول القضايا المثيرة للجدل. والمعهد هو مرجع عالمي ريادي في التحليل المستقل والمناقشات المفيدة والآراء المؤثرة في كيفية بناء عالم من الأمن والرخاء، وإشراك الحكومات والقطاع الخاص ومؤسسات المجتمع المدني في مناقشات مفتوحة حول التطورات المهمة في الشؤون الدولية، وتطوير تحليلات دقيقة ومستقلة حول التحديات والفرص الدولية والإقليمية والخاصة بدول محددة، وتقديم أفكارٍ لصانعي القرار وغيرهم، ممن يؤثرون في صنعه، حول كيفية توظيف هذه الأفكار على المدى القريب والبعيد.

وتتضمن البحوث التي يجريها المعهد قضايا الطاقة والبيئة والموارد، والاقتصاد العالمي، والأمن الدولي والقانون الدولي ودراسات المناطق.

احتل المعهد المرتبة الأولى في التأثير الدولي لست سنوات متتالية (خارج الولايات المتحدة)، والمرتبة الثانية لثلاث سنوات أخرى عالمياً بما في ذلك الولايات المتحدة.

٣- الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية

The Chinese Academy of Social Sciences (CASS)⁽¹⁾

أنشئت عام ١٩٧٧ وهي أهم مؤسسة في الصين للبحوث الأكاديمية في مجالات البحث في الفلسفة والعلوم الاجتماعية وصنع السياسات. وتعد أرفع مؤسسة للبحوث في قارة آسيا. وتتكون الآن من ٣١ معهداً للبحوث المتخصصة، و٥٠ مركزاً تمارس البحث في أكثر من ٢٦٠ من المجالات المعرفية البينية، ويعمل فيها ٣٧٦٧ موظفاً، منهم حوالي ثلاثة آلاف باحث محترف. والهدف الأساس هو تطوير العلوم الاجتماعية، وضمان استمرار

(1) <http://bic.cass.cn/english/Index.asp>

حيوية الأمة عن طريق العلم والتعليم. وبذل الجهود اللازمة في مجال التنافس العالمي. وتتميز اهتمامات الأكاديمية بالتركيز على الدراسات الشمولية التي تبني استراتيجيات كبرى ذات طبيعة استشرافية، وتعتمد فكر ماركس-لينين-ماو، وتقدم دراسات نظرية في الإصلاح والتطوير الاقتصادي والديموقراطية والثقافة الشعبية، والقضايا الدولية، فضلاً عن كون الأكاديمية مركزاً لتدريب وبناء الطاقات البشرية عالية الكفاءة في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانيات والإدارة.

٤- وَقْف كارنيجي للسلام العالمي

Carnegie endowment for international peace⁽¹⁾

أنشئت هذه المؤسسة عام ١٩١٠ على يد أندرو كارنيجي (Andrew Carnegie) وهو أمريكي من مواليد اسكتلندا (١٨٣٥-١٩١٩) اكتسب نجاحاً باهراً في مجالات الأعمال والصناعة وكون ثروة كبيرة، ثم كرس بقية حياته لإنشاء المؤسسات الخيرية والثقافية. وقد رصد لهذه المؤسسة وقفاً مالياً مقداره عشرة ملايين دولار، ليكون مركزاً للبحوث يختص بالسياسات الخارجية بهدف الحد من الحروب. وتعرّف المؤسسة نفسها على أنها مؤسسة غير ربحية غير حزبية، مهمتها تعزيز التعاون بين الدول، وترويج التزام الولايات المتحدة الفاعل على الساحة الدولية. وتمارس عملها عن طريق إجراء البحوث، وتنظيم المؤتمرات والندوات، ونشر الكتب والمطبوعات، وإنشاء مؤسسات متخصصة وشبكات دولية. وتهتم بدراسات المناطق والعلاقات بين الحكومات والمنظمات الدولية ومنظمات المجتمع المدني، وتركز عملها على القوى التي تحدث التغيير على المستوى العالمي لا سيما العلاقات السياسية، والقوى الاقتصادية والتطورات التكنولوجية.

(1) <http://carnegieendowment.org/>

ولهذه المؤسسة فروع وبرامج ومشروعات في كثير من بلدان العالم، من بينها مشروع كارنيجي للشرق الأوسط الذي أنشئ عام ٢٠٠٢، لتقديم رؤى تحليلية مقارنة مبنية على خبرة إقليمية عميقة، تسهم في توجيه التطورات السياسية في العالم العربي. ويتولى هذا المشروع مهمة تطوير برنامج أبحاث يعتمد على التعاون مع باحثين ومؤسسات في العالم العربي، والبلدان الأخرى. ومن بين أهداف المشروع مساعدة الشخصيات السياسية في العالم العربي على فهم التحديات التي تواجههم على المستوى الدولي بشكل أفضل. ويقدم برنامجاً تدريبياً للشباب الباحثين في المنطقة، لتمكينهم من ممارسة البحث وفق الخبرات التي توفرها برامج كارنيجي الأخرى.

وقد عدّه تقرير جامعة بنسلفانيا عن مراكز البحوث لعام ٢٠١٣ ثالث أكثر مراكز البحوث تأثيراً في العالم، بعد معهد بروكنجز الأمريكي، ومعهد تشاتام البريطاني.

٥- المعهد الياباني للشؤون الدولية

The Japan Institute of International Affairs (JIIA)⁽¹⁾

تأسس المعهد عام ١٩٥٩ في صورة مركز بحوث خاص للبحث في السياسات غير الحزبية، ويركز على الشؤون الدولية وقضايا الأمن، إضافة إلى مدى واسع من المشروعات البحثية. ويشجع المعهد الحوار والدراسات المشتركة مع مؤسسات أخرى، ومع خبراء من اليابان وخارجها، ويفحص السياسة الخارجية لليابان، ويقدم مقترحات للحكومة، وينشر ما يتوصل إليه من معلومات للجمهور العام. ويتعاون المعهد مع شبكة واسعة من المفكرين والباحثين الزملاء للمعهد، ويعد المعهد مصدراً لا يستغنى عنه في توفير المعلومات عن الشؤون الدولية في عالم شديد التعقيد.

(1) <http://www2.jiia.or.jp/en/>

وقد أنشئ المعهد ليعمل على غرار المعهد الملكي للشؤون الدولية في بريطانيا (تشاتام هاوس)، وحصل على دعم من شخصيات وازنة في السياسة اليابانية من الأحزاب كافة، ورجال الأعمال والإعلام والدوائر الأكاديمية. ورغم أنه بدأ معهداً مستقلاً إلا أنه ارتبط بوزارة الشؤون الخارجية بوصفه مؤسسة تهتم بالمصلحة العامة، واعترافاً بما قدمه من خدمات في هذا المجال. لا سيما في جمعه الموارد البشرية والحكمة المتوفرة لدى الصناعة والحكومة والجامعات، وشبكات اتصالاته وعلاقاته بقيادة البحث والفكر في العالم، بهدف تحقيق النمو والتقدم في اليابان والعالم.

٦- المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات/ قطر^(١)

مؤسسة بحثية فكرية مستقلة متخصصة في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وبخاصة في جوانبها التطبيقية، أنشئ في ٢٠١٠ في العاصمة القطرية الدوحة. ويُعنى المركز بتشخيص الأوضاع في العالم العربيّ، دولاً ومجتمعاتٍ، وتحليلها، وبتحليل السياسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ويقدم تحليلات سياسية مستقلة. ويطرح التحدّيات التي تواجه الأمة على مستوى المواطنة والهوية، والتجزئة والوحدة، والسيادة والتبعية والركود العلمي والتكنولوجي، وقضايا التنمية. ويهتم بعلاقات العالم العربيّ ومجتمعاته مع محيطه المباشر في آسيا وأفريقيا، ومع السياسات الأوروبية والأمريكية. ويُعنى كذلك بالنظريات الاجتماعية والفكر السياسي والتاريخ عناية تحليلية ونقدية، ولا سيما إسقاطاتها على الخطاب الأكاديمي والسياسي الموجه للدراسات المختصة بالمنطقة العربية ومحيطها.

ويصدر المركز كتباً ودراسات متخصصة، وأوراق تحليل سياسات، وتقارير تقييم حالات، وملفات خاصة، كما يصدر ثلاث دوريات محكمة.

(1) <http://www.dohainstitute.org>

ينظم المركز سنوياً مؤتمر العلوم الاجتماعية والإنسانية، ومؤتمراً سنوياً آخر لمراكز الأبحاث، إضافة إلى مؤتمرات أخرى غير دورية تُعنى بالقضايا الجيوستراتيجية والجيوپوليتيكية، والتاريخ الإقليمي وغير ذلك مما يهم الوطن العربي من قضايا. ويدير عدداً من المشروعات البحثية. ويصدر المركز ثلاث دوريات محكمة هي: دورية "تبيين" وهي فصلية تُعنى بالدراسات الفكرية والثقافية، ودورية "عمران" وهي فصلية تُعنى بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، ودورية "سياسات عربية" التي تصدر كل شهرين وتُعنى بالعلوم السياسية والعلاقات الدولية والسياسات العامة. وسيُفتتح في عام ٢٠١٥ معهد الدوحة للدراسات العليا. ويعمل المركز على تدريب الباحثين للارتقاء بأدوات البحث العلمي إلى المستويات العالمية. ويتعاون مع المؤسسات البحثية والأكاديمية في المنطقة والعالم.

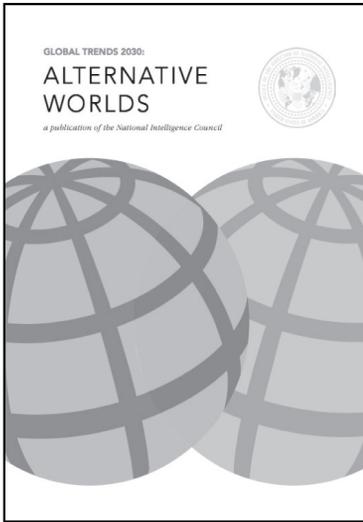
٧- مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية^(١)

أنشئ المركز عام ١٩٦٨ ليكون معهداً بحثياً يعمل في إطار مؤسسة الأهرام التي تملكها الدولة، ليتخصص في دراسة القضية الفلسطينية والمجتمع الإسرائيلي، ثم تطور عمل المركز منذ ١٩٧٢ ليشمل الموضوعات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية كافة، المرتبطة بمصر والوطن العربي والعالم. ويقوم المركز بنشاطه من خلال البحوث، والإصدارات من كتب ودوريات، وعقد الندوات والمؤتمرات. ويتكون المركز من ١٢ وحدة متخصصة للدراسات في مجالات مختلفة منها: النظم السياسية، والعلاقات الدولية، والدراسات العربية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية، والتاريخية، والإعلامية، والثورة المصرية، إلى جانب برنامج الدراسات الإسرائيلية، وبرنامج الدراسات الخليجية. ويصدر المركز كتباً ودوريات وتقارير سنوية وفصلية وشهرية.

(1) <http://acpss.ahram.org.eg/>

٨- مجلس الاستخبارات الوطني الدولي

تنجز مراكز البحوث دراسات وتقارير حول موضوعات شتى في السياسة والاقتصاد والتعليم، والشؤون العسكرية... إلخ. ورغم أن الأهداف العلمية الحيادية مسطرة في بيانات هذه المراكز، وتؤكد على استقلاليتها واتباعها لمناهج علمية صارمة، فليس من السهل أن نستبعد التوظيف السياسي أو الاقتصادي أو الإيديولوجي التي تقوم به الجهات التي تمول هذه المراكز، سواءً كانت حكومات أو شركات أو أحزاب. لكن الحكومات والشركات والأحزاب لا تعتمد على تقارير ودراسات هذه المراكز فحسب، وإنما تشكل مجالس خاصة لعمل دراسات من نوع آخر، تستفيد فيها من إنجازات مراكز البحث، ولكنها تضيف إلى ذلك جهوداً للتنسيق والتشبيك والتجميع التي تفيد في رسم خرائط لمسارات المستقبل القريب والبعيد، ليتمكن صناع القرار من خلالها بناء استراتيجيات عملهم وخططهم على أساس من الرؤية الواضحة لما هو ممكن ولما هو محتمل.



وفي هذا السياق جاء إنشاء مجلس الاستخبارات الوطني الأمريكي^(١) عام ١٩٧٩. ويعمل في هذا المجلس شخصيات سياسية ودبلوماسية وأكاديمية وخبراء من القطاع الخاص، ومهمة المجلس هي التنسيق بين هيئات المعلومات والاستخبارات المتعددة والمؤسسات السياسية الحكومية والحزبية في الولايات المتحدة الأمريكية. ويصدر هذا المجلس دراسة استشرافية عامة مرة كل أربع سنوات بدءاً من عام ١٩٩٦، ترسم خريطة المستقبل في الخمسة عشر عاماً القادمة. والدراسة الأخيرة صدرت أواخر عام

(1) World National Intelligence Council

٢٠١٢ بعنوان التقرير الخاص بالاتجاهات العالمية عام ٢٠٣٠^(١). وهذا يعني أن الدراسة تعيد رسم صورة المستقبل مرة كل أربع سنوات، فتؤكد أو تعدل ما كانت قد استشرفته في التقرير السابق.

ويوظف المجلس مجموعة من الأساليب والإجراءات المنهجية المعروفة في الدراسات الاستشرافية، التي تحاول تحديد المسارات الرئيسية لما هو محتمل الحدوث، وما هو ممكن الحدوث، في الفترة القادمة. ويضم خبراء المجلس عادة تخصصات سياسية واقتصادية وتكنولوجية، من دول مختلفة، للنظر إلى الموضوع المعروض للمناقشة من زوايا مختلفة، تتقاطع وتتكامل فيها الرؤى من خلال جلسات العصف الذهني وتقنيات دلفاي، وبناء مصفوفات التأثير المتبادل cross impact matrix، وبناء المشاهد البديلة scenarios.

وتقسم مادة التقرير إلى ثلاثة أقسام رئيسة أولها الاتجاهات الرئيسة الكبرى على المستوى العالمي Megatrends، والثاني العوامل الأكثر تأثيراً في الاتجاهات الكبرى، والثالث هو السيناريوهات المتوقعة. ففي القسم الأول يحدد التقرير أربعة اتجاهات كبرى هي: تمكين الأفراد، وتوزع القوى في عالم متعدد الأقطاب، وأنماط ديموغرافية جديدة، وتغيرات الموارد الحيوية الغذاء والماء والطاقة. أما في القسم الثاني فرصد التقرير ستة عوامل هي الأقوى تأثيراً في تحديد الاتجاهات الكبرى المشار إليها في القسم الأول، وهذه العوامل أو المؤثرات هي أزمات الاقتصاد العولمي، وفجوة الحوكمة، وإمكانات التغيير والتكيف، وتزايد في النزاعات المحلية والدولية، وعدم الاستقرار الدولي، وأثر التطور في التقنيات الحديثة، والتأثير الدولي للولايات المتحدة. أما القسم الثالث فيرسم أربعة مشاهد أو سيناريوهات هي: زيادة عدم الاستقرار في العالم،

(1) Global Trends 2030: Alternatives

انظر التقرير بتفاصيله في الرابط الآتي:

<http://globaltrends2030.files.wordpress.com/2012/11/global-trends-2030-november2012.pdf>

تم استرجاعه بتاريخ ٢٠١٤/٦/١٦

وظهور توازنات دولية جديدة لصالح آسيا، وتوسع الفارق في مستويات الدخل بين الدول وداخل الطبقات في كل دولة، وتزايد في دور الكيانات غير الحكومية داخل الدولة أو خارجها.

رغم أنّ الحروب العسكرية التي تستخدم فيها الطائرات دون طيار والصواريخ الذكية، والبراميل المتفجرة واليورانيوم المنضب... إلخ، لا تزال تشتعل بين الحين والآخر، فإنّ حروباً أخرى ربّما تكون أشد فتكاً يمتلئ بها فضاء الكون المعاصر وتتوجه أسلحتها إلى العقول والقلوب على مدار الساعة، وتحقق انتصارات هائلة في الفكر والثقافة والسياسة والاقتصاد، إنها "حرب الأفكار" التي يسعى فيها كل خصم من الخصوم المتحاربة إلى التسلل بوساطة ما يسمونه القوة الناعمة.



خاتمة:

في هذا الفصل تبين لنا أن عملية إنتاج الفكر كانت في بداية نشأتها عمليات فردية، وأن فكرة المؤسسات أو المراكز الفكرية هي حديثة النشأة، وجاءت نتيجة للحاجة إليها ولتراكم الخبرات في هذا الشأن، وأن هذه المراكز باتت في أيامنا هذه من أهم المؤسسات في الدول المتقدمة، لما ينتج عنها من أفكار استراتيجية مهمة تعتمد عليها الدول، في القضايا السياسية والاقتصادية والأمنية وغيرها، وما تقدمه من توصيات لصناع القرار. وتأتي قيمة الدراسات والتقارير التي تقدمها مراكز البحوث من الجهود التي يقدمها علماء ومفكرون وباحثون متفرغون، يقومون بأعمالهم البحثية بجهود جماعية، وفق رؤى استشرافية مبصرة، ونظم إدارية محكمة.

ورغم أن المدارس الفكرية في الفلسفة أو الاقتصاد أو السياسة أو الدين، كانت ولا تزال تقوم بدور مهم في تطوير الأفكار والآراء، ذات التأثير على الأفراد والجماعات، فإن كثيراً من المدارس الفكرية أصبحت تنشئ مراكز بحثية خاصة بها، لتطوير الأفكار والسياسات والرؤى الاستراتيجية التي تمارس من خلالها النُفوذ لدى الأنظمة السياسية وصناع القرار السياسي والاقتصادي. ثم إن الأنظمة السياسية نفسها أخذت تنشئ مراكز البحوث وتمولها لمساعدتها في تطوير أدائها واتخاذ قراراتها.

لقد تكاثرت عدد مراكز البحوث في العالم وتنوعت اهتماماتها، وتضخم أثر بعض هذه المراكز في توجيه الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية بصورة تدعو إلى القلق، لذلك نشطت في السنوات الأخيرة مجموعات بحثية مختلفة تدرس واقع مراكز البحوث، وتعمق في الكشف عن طبيعة عملها، وما تحاول تحقيقه من أهداف، وما تثيره من تساؤلات، ولا سيما من خلال "تلاعبها" بالرأي العام والإعلام، فضلاً عما تقدمه من توصيات للسياسيين ورجال المال والاقتصاد، أو ما تقدمه لهم من تبرير لقراراتهم، وليس سراً أن كثيراً من مراكز

البحوث تعتمد على الإعلام اعتماداً كبيراً، فثمة توجهات إيديولوجية مشتركة بين بعض مراكز البحوث وبعض وسائل الإعلام.

وفي البلاد العربية نجد فقراً ملموساً في عدد مراكز البحوث، ونوعيتها، ومستوى إنتاجها وأثره في الحياة العامة. فالقرارات المهمة في هذه البلاد لا تعتمد على دراسات وبحوث وآراء تتصف بالنضج وبُعد النظر. ومن صور هذا الفقر أن المعلومات المتوفرة عن هذه المراكز هي في الغالب ما توفره مراكز بحوث أجنبية، وما يمكن أن تنشره هذه المراكز من بيانات هو كذلك ما تنتجه تلك المراكز الأجنبية.

الخاتمة

كانت هذه المادة عن البناء الفكري، ويتوقع أن يكون القارئ قد لاحظ أن البناء الفكري هو بناء يتصف بالتنظيم والتماسك، والاحتكام إلى مرجعية كلية تعطيه وصفاً محدداً وتميزه عن أوصاف أخرى. وأن هذا البناء رغم تماسكه واستقراره فإنه ليس ثابتاً على حالة معينة من الكم والكيف، وإنما يتغير باستمرار في الاتساع والعمق، وربما تفقد بعض العناصر قيمتها فيستبدل غيرها بها. ويتوقع أن يكون القارئ قد لاحظ أن موضوع البناء هو الفكر، وهو خاصية للإنسان المخلوق كرمه الخالق بها، وهي أمانة عند كل إنسان، عليه أن يرعاهما حق رعايتهما، بما يلزمها من متطلبات النمو السليم والتطوير والتحسين.

وعندما يصل القارئ إلى هذا القدر من القراءة يحق له أن يسأل، ما الذي قرأه؟ وعلى الأغلب سوف يعيد النظر في عنوان المادة المقروءة، وربما نظر في قائمة موضوعات هذه المادة، ليتذكر العناصر الفكرية الكبرى (التضاريس) التي تضمنتها خريطة الأفكار التي كان يقرأها. وربما أعاد قراءة مادة بعض العناوين الفرعية، ليتذكر من جديد ملامح عنصر من العناصر الفكرية للموضوع. وسوف يخطر ببال القارئ أن يتحدث عن موضوع القراءة إلى بعض أهل بيته أو أحد معارفه، فيحدد ما الذي سيقوله، وما الأسئلة التي ربما يسألها، والملحوظات التي سوف يذكرها.

لكن من المؤكد أن القارئ سوف يتذكر شيئاً لم يقرأه، يتذكر بعض العناوين التي كان يبحث عنها، ولكنه لا يذكر أنه قرأها في هذه المادة، وربما يعيد النظر

في الخريطة من جديد، ليتأكد أن تلك العناوين لم تكن موجودة. ومن ثمّ سوف يحدد لنفسه مهمة جديدة للبحث عن مواد أخرى للقراءة.

وسوف يقفز إلى ذهن القارئ مواد أخرى في الموضوع كان قد قرأها من قبل، وسوف يتفكر في وجوه الشبه والاختلاف بين هذه المادة التي انتهى من قراءتها للتوّ وتلك المواد الأخرى، وفي ضوء ما يتذكره من وجوه الشبه والاختلاف سوف يقوم بعملية تصنيف ليضيف هذه المادة إلى فئة من فئات المواد الأخرى، فهذه المادة مثلاً هي فكر إسلامي، لكنه أقرب إلى أن يقع ضمن مدرسة فكرية إسلامية محددة، وسوف يتذكر أسماء الكتاب والمؤلفين والمفكرين الذين ينتمون إلى هذه المدرسة.

هذه أمثلة على التداعي الذهني، وحركة العقل، ومرور الخواطر، وجولان الفكر، وكلها صور من النشاط العقلي البشري الذي يعبر عن الحالة الصحية في توظيف القدرات الفكرية للإنسان، وأيّ ضعف في ممارسة هذا النشاط، يجده القارئ في نفسه، سوف يكون ناتجاً عن خلل في تنظيم عمليات التفكير، يحتاج إلى معالجة. لكن من حسن حظ القارئ الذي يكتشف هذا الخلل أن يعلم أن الوعي على وجود الخلل هو حالة صحية في حد ذاتها، فهذا الوعي الفكري هو الخطوة الأولى في معالجة الخلل، وسوف تكون خطوة أولى إذا تلتها خطوات أُخرى.

يتوقع من القارئ أن يتعلم شيئاً عن مقدار الجذب الذي تمثله المواقع الفكرية التي يشغلها بعض أفراد النخبة في المجتمع، والمستويات المختلفة من البناء الفكري التي تتميز بها فئات النخبة، والخصائص التي تتميز به الغالبية العظمى من الناس، الذين يصعب تصنيفهم في أي موقع. وسوف يتعلم أن الحالة الطبيعية في المجتمع أن تختلف مستويات البناء الفكري لدى الأفراد والفئات، وأن هذا التفاوت أمر محمود، فلكل فرد مستوى فكري معين، ولكل فرد دوره في المجتمع، وتتكامل هذه الأدوار للقيام بالوظائف الفكرية في المجتمع.

ويتوقع أن يتساءل القارئ عن موقع بنائه الفكري بين هذه الصور التي قرأها عن البناء الفكري. سوف يتساءل: ما الذي يملكه من أفكار، وأي المدارس الفكرية هو أقرب إليها؟ وما معالم الخريطة الفكرية التي تمثل مجمل أفكاره وعناصرها الكبرى؟ وما العوامل التي أثرت في تشكل هذه الخريطة؟ وكيف أثرت هذه العوامل ومتى، وبأي مقدار؟ وربما يميل إلى تحديد الموقع الذي يريد أن يكون فيه بعد الآن: موقع العالم أو المثقف أو الداعية أو المصلح أو الفيلسوف أو المفكر.

ويتوقع من القارئ أن يتساءل كذلك عن العلاقة بين الفكر والسلوك، وعن المعنى الذي يشير إليه اتساقهما، والمعنى الذي يشير إليه الاختلاف بينهما. وسوف تقفز إلى ذهنه نماذج من الشخصيات العامة في حالتها الاتساق أو التناقض، وسوف يتخيل الحالة الذي يختارها لنفسه بين الحالتين.

ويتوقع أن يتساءل القارئ عن محددات شخصية الفرد الإنساني، وموقع البناء الفكري في هذه الشخصية، بالمقارنة مع البناء العاطفي والوجداني لهذه الشخصية. هل هما بناءان مختلفان، وكيف يؤثران في شخصية الفرد؟ وما علاقة الموضوعية والذاتية في كل من البناءين؟

إذا استطاع هذا الكتاب أن يثير هذه الأسئلة وأمثالها لدى القارئ، وحركته للبحث عن إجابات عنها، فقد حقق الكتاب بعض أهدافه.

والحمد لله رب العالمين.

المراجع الواردة في هذا الكتاب

أولاً: مراجع باللغة العربية

- ١- ابن الأثير، ضياء الدين (٦٣٧هـ). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانه، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د. ت).
- ٢- ابن أبي طالب، علي (أمير المؤمنين رضي الله عنه). نهج البلاغة، مختارات الشريف الرضي، وشرح الإمام محمد عبده، بيروت: دار المعرفة.
- ٣- أونج، والتر، ج. الشفاهية والكتابية. ترجمة: حسن البنا عز الدين، مراجعة: محمد عصفور، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة عالم المعرفة رقم ١٨٢، شباط ١٩٩٤.
- ٤- الباقلاني، القاضي أبو بكر (ت ٤٠٣هـ). الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، ط ٢، ٢٠٠٠م.
- ٥- باهمام، عبد الله بن سالم. سوق أفكارك: تسويق الأفكار - جولة بين العلوم. الرياض: نشر شخصي وإلكتروني، ١٤٣٠هـ.
- ٦- البخاري محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٢م.
- ٧- بدري، مالك. التفكير من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية، هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٣، ١٩٩٣.
- ٨- بوشيه، ستيفن. ورويو، مارتين. مراكز الفكر: أدمغة حرب الأفكار، بيروت: دار الفارابي، وأبو ظبي: مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ٢٠٠٩م.

- ٩- البوطي، محمد سعيد رمضان. السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، ط ١١، دمشق: دار الفكر، وبيروت: دار الفكر المعاصر، ٢٠٠١م.
- ١٠- بياجيه، جان. الإيستمولوجيا التكوينية، ترجمة السيد نفادي، دمشق: دار التكوين.
- ١١- توشار، جان، تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة: ناجي الدراوشة: دمشق: دار التكوين- ثلاثة مجلدات، ٢٠١٠م.
- ١٢- ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق ناصر بن عبد الكريم العقل، الرياض: مكتبة الرشيد، د. ت.
- ١٣- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم الحراني (توفي ٧٢٨هـ). مجموعة الفتاوى، عناية عامر الجزار وأنور الباز، المنصورة: دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.
- ١٤- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ) البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة السابعة ١٩٩٨م.
- ١٥- جدعان، فهمي. أسس التقدم عند مفكري الإسلام، ط ٤، بيروت: دار الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ١٩٨٨م.
- ١٦- الجرجاني، عبد القاهر (٤٧٤هـ). أسرار البلاغة. قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، جدة: دار المدني، ١٩٩١.
- ١٧- الجرجاني، عبد القاهر (٤٧٤هـ) دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٤م
- ١٨- جرين، جودث. التفكير واللغة، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بن عبد العزيز العبدان، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٠هـ

- ١٩- ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ). الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة: المكتبة العلمية، ١٩٥٢م.
- ٢٠- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت ١٠٦٧هـ). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ت.).
- ٢١- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. المستدرک علی الصحیحین، بیروت: دار المعرفة، ١٩٩٨م.
- ٢٢- ابن حجر، أحمد بن علي. "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، تحقيق: عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار المعرفة ١٣٧٩هـ.
- ٢٣- حزب التحرير. حزب التحرير، بيروت: دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٠م.
- ٢٤- حزب التحرير. مفاهيم حزب التحرير، (د.م.)، (د.ن.)، ط٦، ٢٠٠١م.
- ٢٥- ابن حزم، أبو محمد علي بن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ). طوق الحمامة في الألفة والآلاف، عمان: دار الإسرائ، ٢٠٠٥م.
- ٢٦- ابن حنبل، الإمام الحافظ أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م.
- ٢٧- حللي، عبد الرحمن. اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم ودلالاته الحضارية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد ٢٧، العدد الثالث، ٢٠١١م.
- ٢٨- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (٤٦٣هـ). اقتضاء العلم العمل، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٨٤.
- ٢٩- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (توفي ٤٦٣هـ). تقييد العلم،

- تحقيق: يوسف العث، حلب: دار الوعي، ١٩٧٥م.
- ٣٠- ابن خلدون، عبد الرحمن. مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.
- ٣١- أبو داود، سليمان بن الأشعث. سنن أبي داود، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م.
- ٣٢- دراز، محمد عبد الله. النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن الكريم، تقديم: عبد العظيم المطعني، الكويت: دار القلم، ط ٩، ٢٠٠٥م.
- ٣٣- دليل إرشادي لمراكز الدراسات ومؤسسات البحث والفكر والرأي في العالم العربي، عمان/ الأردن: منشورات شبكة الديموقراطيين في العالم العربي ومركز بصر لدراسات المجتمع المدني، ٢٠١١م.
- ٣٤- دودز، كلاوس. وأتكسون، ديفيد. الجغرافيا السياسية في مائة عام: التطور الجيوبوليتيك العالمي، ترجمة: عاطف معتمد وعزت زيان، القاهرة: المركز القومي للترجمة، العدد ١٥٩٢، ٢٠١٠م.
- ٣٥- الذوادي، محمود. الثقافة بين تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الاجتماعية. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٦م.
- ٣٦- الذوادي، محمود. وعلم آدم الأسماء كلها في ميزان الرموز الثقافية، مجلة إسلامية المعرفة، السنة ١٩، العدد ٧٥، شتاء ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
- ٣٧- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٩٨١م.
- ٣٨- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (٥٠٢هـ). تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٣م.

- ٣٩- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل. الذريعة إلى مكارم الشريعة، تعليق: محمود بيجو، دمشق: دار اقرأ، ٢٠٠١م.
- ٤٠- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. (ت ٥٠٢هـ). المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، (د.ت.).
- ٤١- رضا، محمد رشيد. تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، بيروت: دار المعرفة، ط ٢، ١٩٧٣م.
- ٤٢- الزين، عماد أحمد. التفكير اللساني عند علماء العقليات المسلمين. عمان: دار النور المبين للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م.
- ٤٣- الزبيدي، عبد الرحمن بن زيد. السلفية وقضايا العصر، الرياض: مركز الدراسات والإعلام/ دار أشبيليا، ١٩٩٨م.
- ٤٤- زرور، عدنان. طبيعة التفكير والتجديد في الثقافة الإسلامية، عمان: دار الأعلام، ٢٠٠٧.
- ٤٥- الزعبي، أنور. مسيرة المعرفة والمنهج في الفكر العربي الإسلامي، عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٧م.
- ٤٦- الزغول، محمد راجي. الازدواجية في اللغة العربية، ورقة قدمت إلى ندوة الازدواجية اللغوية، التي نظمها مجمع اللغة العربية الأردني والجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٨.
- ٤٧- الزفتاوي، عصام الدين. حوارات حول حركة الفكر الإسلامي المعاصر خلال القرن العشرين - دراسة وتحليل، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩٨، السنة ٢٥، أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٠م.
- ٤٨- أبو زهرة، الإمام محمد. أبو حنيفة حياته وآراؤه وفقهه، القاهرة: دار الفكر العربي، ط ٢، ١٩٤٢.

- ٤٩- سيرل، جون. العقل واللغة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت: الدار العربية للعلوم- ناشرون، والمركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م
- ٥٠- الشافعي، محمد بن إدريس (٢٠٤هـ). الرسالة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت.).
- ٥١- الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، (د.ت.).
- ٥٢- الشوكاني، محمد بن علي. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، المنصورة: دار الوفاء، ط ١، ٢٠٠٠م.
- ٥٣- الطويل، توفيق. أسس الفلسفة، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٦م.
- ٥٤- ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- ٥٥- ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون، ١٩٩٧م.
- ٥٦- ابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد البر (٤٦٣هـ). جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الدمام: دار ابن الجوزي، ط ١، ١٩٩٤م.
- ٥٧- عبد الرحمن، طه. سؤال العمل: بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢.
- ٥٨- عبد الرحمن، محمد. منهج الإصلاح والتغيير عند جماعة الإخوان المسلمين، القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٦م.
- ٥٩- عبد العزيز، محمد حسن. اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية في جمهورية مصر العربية: الواقع والتحديات واستشراف المستقبل. الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني، عمان: منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠٠٥م.

٦٠- عبد العزيز، مروة. العسكر والإخوان، رؤية مراكز الأبحاث الأمريكية لمستقبل مصر بعد الثورة، مجلة السياسية الدولية، القاهرة: مؤسسة الأهرام، الإثنين ٧/٧/٢٠١٤م.

٦١- عبد الله، عصام. علم تاريخ الأفكار، أبو ظبي: مركز زايد للتنسيق والمتابعة، ٢٠٠٢م.

٦٢- عبد الهادي، وليد. دور مراكز الأبحاث في صناعة القرار السياسي الأردني ١٩٨٩-٢٠١٠. بيروت: معهد عصام فارس للسياسة العامة والشؤون الدولية في الجامعة الأمريكية في بيروت، سلسلة برنامج "الأبحاث عن صنع السياسات العامة في العالم العربي، سلسلة أوراق عمل رقم ١١ تشرين الأول ٢٠١٢م.

٦٣- عطية، جمال الدين. ضوابط الحريات الفكرية، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩٩، السنة الخامسة والعشرون، يناير-مارس ٢٠٠١م.

٦٤- العلواني، طه جابر. إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات: ورقة عمل، سلسلة إسلامية المعرفة رقم ١٠، هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامية، ط ٢، ١٩٨٤.

٦٥- العلواني، طه جابر. إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٥، ٢٠٠٩م.

٦٦- عمارة، خليل أحمد. في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، جدة: عالم المعرفة، ١٩٨٤.

٦٧- غاردنر، هاوارد. "طبيعة الفكر واللغة، مواجهة بين شومسكي وبياجيه"، ترجمة: أحمد أوزي، مجلة علوم التربية (مجلة فصلية محكمة تصدر في المملكة المغربية)، عدد ١٤، فبراير ١٩٩٨م.

٦٨- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (٥٠٥هـ). إحياء علوم الدين، وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٤م.

٦٩- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. المقصد الأسمى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، قبرص: الجفان والجابي، ١٩٨٧م.

٧٠- الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد (٥٠٥هـ) المنقذ من الضلال، والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد، بيروت: دار النفائس، ط٧، ١٩٦٧م.

٧١- الفارسي، علاء الدين علي بن بلبان. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م.

٧٢- فيغوتسكي، ليف. التفكير واللغة، ترجمة: طلعت منصور، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٧٠.

٧٣- فوكو، ميشال. حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧م.

٧٤- قطب، سيد. دراسات إسلامية، القاهرة: دار الشروق، ط١١، ٢٠٠٦م.

٧٥- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (٧٥١هـ). إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٥٥م.

٧٦- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (٧٥١هـ). الفوائد، تحقيق: محمد عزيز شمس، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ.

٧٧- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت ٧٥١هـ). مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، الرياض: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ.

٧٨- كرانغ، مايك. الجغرافيا الثقافية: أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية، ترجمة: سعيد متناق، سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١٧، يوليو ٢٠٠٥م.

٧٩- كوريم، سعاد. الدراسة المفهومية: مقارنة تصويرية ومنهجية. مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عدد ٦٠، ربيع ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

٨٠- لفجوي، آرثر. سلسلة الوجود الكبرى: محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي، ترجمة: ماجد فخري، بيروت: دار الكتاب العربي ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٤م.

٨١- المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). رسالة المسترشدين، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الفتاح أبو غدة، القاهرة: دار السلام، ط ٥، ١٩٨٣م.

٨٢- المحاسبي، الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). الرعاية لحقوق الله، دراسة وتحقيق: عبد الحلیم محمود. القاهرة: دار المعارف، (د.ت.).

٨٣- الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد (ت ٣٣٣هـ). شرح الفقه الأكبر، شرح الكتاب المنسوب للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ)، عنى بطباعته: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري. الدوحة: وزارة الشؤون الدينية، (د.ت.).

- ٨٤- المحاسبي، الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). العقل وفهم القرآن، قدم له وحقق نصوصه: حسين القوّتلي، دمشق: دار الفكر، ١٩٧١م.
- ٨٥- المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد (٢٤٣هـ). الوصايا: النصائح، القصد والرجوع إلى الله، من أناب إلى الله، فهم الصلاة، التوهم، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد القادر أحمد عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٦٨م.
- ٨٦- محمود، إبراهيم كايد. العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية. المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الإنسانية والإدارية)، المجلد الثالث، العدد الأول، (ذو الحجة ١٤٢٣ / مارس ٢٠٠٢م).
- ٨٧- محمود، خالد وليد. دور مراكز الأبحاث في الوطن العربي: الواقع الراهن وشروط الانتقال إلى فاعلية أكبر، (سلسلة دراسات) الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣م.
- ٨٨- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. صحيح مسلم، عناية: أبو صهيب الكرمي، الرياض: دار الأفكار الدولية، ١٩٩٨م.
- ٨٩- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ت.).
- ٩٠- المعهد العالمي للفكر الإسلامي. إسلامية المعرفة: المبادئ العامة - خطه العمل - الانجازات، هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨٩م.
- ٩١- المفرجي، عادل حرحوش. وصالح، أحمد علي. رأس المال الفكري، طرق قياسه وأساليب المحافظة عليه، القاهرة: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٣م.

- ٩٢- موسى، نهاد. المغمور في دائرة النور، تصدير كتاب التفكير اللساني عند علماء العقليات المسلمين. تأليف: عماد أحمد الزبن، عمان: دار النور المبين، ٢٠١٤م.
- ٩٣- الموسى، نهاد. ما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون، ندوة الازدواجية في اللغة العربية، عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٨٨م.
- ٩٤- مونتسكيو. روح الشرائع، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٥٣م.
- ٩٥- المهدي، محمد المختار. الجمعية الشرعية.. صفحة من العمل الأهلي، في ذكرى إنشائها في ١ من المحرم ١٣٣١هـ.
- ٩٦- ابن نبي، مالك. شروط النهضة، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦م.
- ٩٧- ابن نبي، مالك. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، تقديم: عمر مستقاوي، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٨م.
- ٩٨- النملة، علي بن إبراهيم. الفكر بين العلم والسلطة: من التصادم إلى التعايش، الرياض: العبيكان للنشر، ط٢، ٢٠٠٧م.
- ٩٩- نوفل، عبد الرزاق. الإعجاز العددي في القرآن الكريم، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٥، ١٩٨٧م.
- ١٠٠- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (توفي ١٨٣هـ). سيرة النبي ﷺ (سيرة ابن هشام). تحقيق ودراسة: مجدي فتحي السيد، طنطا: دار الصحابة، ط١، ١٩٩٥م.
- ١٠١- هيرمان، آرثر، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومي للترجمة)، ط١، ٢٠٠٠م.

ثانياً: مراجع باللغة الإنجليزية

1. Abelson, Donald. *A Capitol Idea: Think Tanks and US Foreign Policy*. Montreal, Canada, McGill–Queen’s University Press, 2006.
2. Arin, Kubilay Yado. *Think Tanks: The Brain Trusts of US Foreign Policy*, Grafeling, Germany: Springer VS, 2013
3. Bacevich, Andrew J. *The New American Militarism: how American are seduced by wars*, Oxford and New York: Oxford University Press, 2005.
4. Bylund, Emanuel. Maturational constraints and first language attrition. *Language Learning*; 59(3), September, 2009.
5. Carroll, J. & Horn, J. On the Scientific Basis of Ability Testing. *American Psychologist*, 36, 1981.
6. Cassidy, Johm. Letter from Chicago, "After the Blowup", *The NewYorkers*. January 11, 2010.
7. Chin, Ng Bee and Wigglesworth, Gillian. *Bilingualism*, New York, Rutledge Applied Linguistic. 2007.
8. Chomsky, Noam. *Language and thought*, Wakefield, Rhode Island & London: Moyer Bell, 1993.
9. Chomsky, Noam. *Language and Mind*, Cambridge: Cambridge University Press, 2012.
10. Chomsky, Noam. *Language and thought*, Wakefield, Rhode Island & London: Moyer Bell, 1993.
11. Frankovic, Kathleen A. "Exit polls and Pre–Election Polls" in *The Sage Handbook of Public Opinion Research*, by Wofgang Donsbach and Michael Trougott. Sage Publication Ltd,2007.
12. Haris, Roy and Taylor, Talbot. *Landmarks In Linguistic Thought Volume I: The Western Tradition From Socrates To Saussure (History of Linguistic Thought)*, Vol. 1, Routledge; 2nd edition, 1997.

13. Herman, Edward and Chomsky, Naom. *Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media*, New York: Pantheon (January 15, 2002).
14. Kaplan, Robert M. and Saccuzzo, Dennis P. *Psychological Testing: Principles, Applications, and Issues*, Cengage Learning; 8th edition, 2012.
15. Lore, Mary. *Managing Thought: Think Differently. Think Powerfully. Achieve New Levels of Success*, New York: McGraw-Hill, 2010.
16. McGann, James G. *2013 Global Go to Think Tank Index Report*. Philadelphia, PA, USA, Think Tanks and Civil Societies Program, University of Pennsylvania, 2014.
17. McKay, Mathew; Davis, Martha and Fanning, Patrick. *Thoughts and Feelings: Taking Control of Your Moods and Your Life*, New Harbinger Publications; Fourth Edition, 2011.
18. Medvetz, Thomas. *Think Tanks in America*, Chicago: University Of Chicago Press, 2012.
19. Myers-Scotton, Carol. *Multiple Voices: An Introduction to Bilingualism*, New York: Blackwell Publishing Ltd, 2006.
20. Nash, Ronald. *Worldviews in Conflict: Choosing Christianity in a World of Ideas*. Grand Rapids, MI: Zondervan Publishing House, 1992.
21. Naugle, David K. *Worldview: The History of A Concept*, Grand Rapids, MI: William Eerdmans, 2002.
22. Nisbett, Richard E. *The Geography of Thought: How Asians and Westerners think Differently and Why*, London: Nocholas Brealey Publishing, 2003.
23. Ovdrtveltdt, Johan Van. *The Chicago School: How the University of Chicago Assembled the Thinkers Who Revolutionized Economics*

- and Business*, Chicago: Agate B2; First Trade Paper Edition, 2009.
24. Piaget, Jean. *The Psychology of Intelligence*, Translated by Malcolm Piercy and D. E. Berlyne, London and New York: Routledge Classic, Reprint 2003.
 25. Pew Research Center. *The World's Muslims: Religion, Politics and Society*, April 30, 2013.
 26. Rana, Lalita. *Geographical Thought: A Systematic Record of Evolution*, New Delhi, India: Concept Publishing Company 2008.
 27. Reed, Lawrence W. *A Student's Essay That Changed the World*, London: Mackinac Center for Public Policy, 2009.
 28. Samuda, Ronald J. *Psychological Testing of American Minorities: Issues and Consequences (Multicultural Aspects of Counseling And Psychotherapy)* SAGE Publications, Inc; 2 edition, 1998.
 29. Stadler, Friedrich. (Editor). *The Vienna Circle and Logical Empiricism: Re-evaluation and Future Perspectives* (Vienna Circle Institute Yearbook), New York: Springer 1st edition, 2003.
 30. Stewart, Thomas A. *The Wealth of Knowledge: Intellectual Capital of Knowledge and the Twenty-First Century Organization*, London: Crown Business, 2002.
 31. Transparify. *How Transparent are Think Tanks about Who Funds Them?* Tbilisi/Georgia: Transparency, May 2014.
 32. Vidino, Lorenzo. Five myths about the Muslim Brotherhood, *Washington Post*, Sunday, March 6, 2011.
 33. Wiggershaus, R. *The Frankfurt School*, Cambridge, Mass.: Massachusetts Institute of Technology MIT Press, 1994.
 34. Wilcox, Clyde and Robinson, Carin. *Onward Christian Soldiers? The Religious Right in American Politics*, New York: Threshold Editions, 2010.

ثالثاً: مواقع إلكترونية على الشبكة العنكبوتية

١. العوا، محمد سليم. حسن البناء ومدرسة الإخوان المسلمين الفكرية، محاضرة بجمعية مصر للثقافة والحوار بتاريخ ٢٦ مايو ٢٠٠٩م.
<http://www.amlalommah.net/aml-6098.html>

٢. شيخ، سلمان. مراكز الفكر: منفعة عامة للمجتمع، نقلاً عن موقع معهد بروكنجز الدوحة على الرابط:
<http://www.brookings.edu/ar/research/opinions/2014/04/06-think-tanks-public-good-shaikh>

3. <http://acpss.ahram.org.eg/>

4. http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B5%D8%A7%D9%85%D9%88%D9%8A%D9%84_%D9%87%D9%86%D8%AA%D9%86%D8%AC%D8%AA%D9%88%D9%86

5. http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B5%D8%A7%D9%85%D9%88%D9%8A%D9%84_%D9%87%D9%86%D8%AA%D9%86%D8%AC%D8%AA%D9%88%D9%86

6. http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%82:%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%B2%D8%A9_%D9%86%D9%88%D8%A8%D9%84_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%8A%D9%85%D9%8A%D8%A7%D8%A1

7. http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%82:%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%B2%D8%A9_%D9%86%D9%88%D8%A8%D9%84_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D8%A8

8. <http://bic.cass.cn/english/Index.asp>

9. <http://carnegieendowment.org/>

10. http://chronicle.com/article/In-Japan-Research%20Scandal/147417/?cid=at&utm_source=at&utm_medium=en

11. http://en.wikipedia.org/wiki/American_Enterprise_Institute
12. <http://globaltrends2030.files.wordpress.com/2012/11/global-trends-2030-november2012.pdf>
13. <http://www.amlalommah.net/aml-6098.html>
14. http://www.bibliotecapleyades.net/sociopolitica/esp_sociopol_cfr_10.htm
15. <http://www.brookings.edu/about/history>
16. <http://www.brookings.edu/ar/research/opinions/2014/04/06-think-tanks-public-good-shaikh>
17. <http://www.chathamhouse.org/about/chatham-house-rule>
18. <http://www.dohainstitute.org>
19. http://www.fraserinstitute.org/uploadedFiles/fraser-ca/Content/About_Us/Who_We_Are/what-is-a-think-tank.pdf
20. <http://www.irishtimes.com/news/social-affairs/religion-and-beliefs/ireland-closest-to-islamic-economic-teachings-1.1826354>
21. <http://www.newleftproject.org/index.php/site/about/>
22. <http://www.newleftproject.org/index.php/site/about/>
23. http://www.saaaid.net/daeyat/omima/260.htm?print_it=1
24. <http://www.startimes.com/f.aspx?t=5577732>
25. <http://www.theatlantic.com/magazine/archive/1990/09/the-roots-of-muslim-rage/304643/>
26. <http://www.theguardian.com/uk-news/2014/mar/16/mod-secret-cyberwarfare-programme>.
27. <http://www.transparify.org/blog/2014/3/2/gin-armstrong>
28. <http://www.victorianweb.org/history/fabian.html>
29. <http://www.widesoft.ma/raissouni/def.asp?codelangue=6&info=347>

30. <http://www2.jiia.or.jp/en/>
31. http://www.newleftproject.org/index.php/site/article_comments/moulding_minds_foreign_policy_and_the_manipulation_of_public_opinion
32. http://www.newleftproject.org/index.php/site/article_comments/moulding_minds_foreign_policy_and_the_manipulation_of_public_opinion
33. <http://www.dni.gov/index.php/about/organization/global-trends-2030>
34. <http://www.continuityforum.org/content/news/2005/14/chatham-house-rule-explained>

الكشاف

- أ
- إدراك: ١٦، ٣٤، ٣٢، ٦٦، ٦٧، ٧٦،
 ٧٨، ٧٩، ١١٨، ١٣٨، ١٣٩،
 ١٦٠، ١٨٦، ١٩١، ١٩٣،
 ١٩٧، ٢٠٦، ٢٣١، ٢٦٨.
- إبداع: ٥٧، ٦٨، ٧٦، ٧٩، ٨١، ٨٢،
 ٩٥، ١٢٤، ١٣٦، ١٤٢، ١٤٣،
 ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١،
 ١٦٣، ١٧٤، ١٦٨، ١٧٧،
 ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٧،
 ٢٧٤، ٢٨٩.
- إستمولوجيا تكوينية: ٢٢١، ٢٢٩.
- إحياء علوم الدين: ٢٩، ٣٢، ٣٤،
 ١٣١.
- إختبارات الذكاء: ١٧٢، ١٨٨.
- إخوان الصفا: ٢٥٢.
- إخوان مسلمون: ١٠٢، ١٠٩، ١٢٨،
 ١٢٩.
- إدارة التفكير: ٦٣.
- أدم عليه السلام: ٣٠، ٣٣، ١٩٤، ٢٠٧،
 ٢٢٨.
- أدمغة الحرب: ٢٤٩، ٢٦٦.
- أدوات استطلاع: ١٧٢.
- ازدواجية فكرية: ٥٤، ٢٠٤، ٢٤٣،
 ٢٤٥.
- ازدواجية لغوية: ٢٠١، ٢٠٤، ٢٣٩،
 ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤،
 ٢٤٥.
- أزمة فكرية: ١٠٥.
- الأزهر: ٥٩، ١٤١.
- استقلال: ١٢، ١١٠، ٢٤٢، ٢٦٢،
 ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧١، ٢٧٣،
 ٢٨٦، ٣٠١، ٣٠٥، ٣٠٧.
- استلاب ثقافي: ٢٤٢.

- إسلامية المعرفة: ١١٢، ١١٣، ٢٥٩.
- أفكار ميتة: ٨٢، ٩٤، ١٦١.
- أسلحة الفكر: ٢٤٩، ٢٦١.
- إقبال، محمد: ٢٣٨.
- أشاعرة: ٢٣٥، ٢٣٧.
- آل البيت: ١٠١.
- الأصفهاني، الراغب: ٥١، ٥٤، ٢١٥.
- الإمام مسلم (مسلم بن الحجاج): ٢٥، ٢٣٨، ١٤٠.
- الأصفهاني، العماد: ١٥، ٢١٨.
- إمبريالية ثقافية: ٢٤٢.
- إصلاح ديني: ١٨٣.
- أمراض البشرية: ١٨١.
- الأفغاني، جمال الدين: ١٠٢.
- أمن قومي: ١٩٧، ٢٦٦، ٢٧٦، ٢٨١، ٢٨٣.
- أفكار إصلاحية: ٨٥.
- أفكار تدميرية: ٢٦٥.
- انتخاب طبيعي: ٢٢٦.
- أفكار حيّة: ٨٢، ٩٤، ١٦١.
- انتقام الأفكار: ٩٤، ٢٤٣.
- أفكار متداولة: ٩٤.
- انحرافات فكرية: ٧٤.
- أفكار متناقضة: ٩٤.
- ابن أنس، مالك: ١٤٠.
- أفكار مخذولة: ٩٤.
- أنظمة معرفية: ١٦٧، ٢٢٤.
- أنواع التفكير: ٧٦، ١٧٨، ١٧٩.
- أفكار مطبوعة: ٩٤، ٢٤٤.
- أفكار مكتسبة: ٩٤.
- أهرام: ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٩٦، ٣٠٦.
- أفكار موروثية: ٩٤، ١٢٤.
- أهل الحديث: ١١٤.
- أفكار موضوعية: ٩٤، ٢٤٤.

أهل السنة: ١١٤.
بناء فكري: ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ٢١،
٢٢، ٤١، ٦٠، ٦٨، ٧٣، ٧٤،
٧٥، ٧٨، ٨٦، ٩٨، ١٠٩،
١١٠، ١١٦، ١١٨، ١٢٣،
١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٣،
١٣٥، ١٣٨، ١٥٠، ١٥٥،
١٥٧، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣،
١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢،
١٧٣، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩،
١٩٨، ١٩٩، ٢٠٥، ٢٤٥،
٢٦٦، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥.

ب

الباقلائي، أبو بكر: ٢٣٨.
البخاري، (الإمام): ٢٥، ٦٢، ١٤٠،
١٥٦.
برمجة العقول: ١٣٥، ١٣٨، ٢٣٥.
البشري، طارق: ٩٢.
البصرة: ٢٠٦.
بطليموس: ١٨٥.
البغدادى، الخطيب: ٢١٦.
بناء مادي: ٧٥، ١٥٥.
بناء نفسي: ٧٥، ٩٨.
بوش، جورج: ٢٦٥، ٢٨٠.
بياجيه، جان: ٢٠٦، ٢٢١، ٢٢٢،
٢٢٩.
بيت الحكمة: ١٤١.
بيئة مؤسسية: ١٢٤، ١٧٢.

ت

البناء، حسن: ١٠٢، ١٢٨، ١٢٩.
بناء حضاري: ١٢، ٨٠، ٨١، ٨٢،
تاريخ الآداب: ١٨٣.

- تاريخ الأديان: ١٨٣
- ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ .
- تدبير: ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ،
 ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ،
 ٤٥ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ٩٣ ،
 ١١٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .
- تاريخ البلدان: ١٨١ .
- تاريخ السياسة: ١٨٢ ، ١٨٣ .
- تاريخ الشعوب: ١٨١ .
- تاريخ الفلسفة: ١٨١ ، ١٨٣ .
- تاريخ المذاهب: ١٨٣ .
- تبعية: ١٢ ، ٧٤ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٥٩ ،
 ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٢ ، ٢٤٢ ، ٣٠٥ .
- تتار: ٥٨ .
- تجارة الرقيق: ٢٦١ .
- تحليل: ٥٩ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
 ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٨ ،
 ١٤٢ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ،
 ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،
 ١٨٣ ، ٢٠٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٧ ، ٢٥٦ ، ٥٦٢ ، ٢٦٣ .
- تدريب فكري: ١٥ .
- تراث: ١١ ، ١٢ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٦ ،
 ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ١٠٨ ،
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
 ١٤٠ ، ١٦١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
 ٢٤٥ ، ٢٧٩ .
- تربية: ٧٥ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ١١٠ ،
 ١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .
- تربية فكرية: ١٢ .

- ترويج استهلاكي: ٣٠٠.
- ترويج إعلامي: ٢٦٧، ٣٠٠.
- تفكير جماعي: ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢.
- تفكير سببي: ٧٦.
- تفكير سنني: ١٧٧، ١٧٨.
- تفكير عفوي: ٢٥١.
- تفكير عميق: ٧٦.
- تفكير مبرمج: ٢٥١.
- تفكير مستقبلي: ١٦٢، ١٧٨، ١٧٩.
- تفكير مقاصدي: ٧٦، ١٧٨.
- تفكير نقدي: ٧٦، ١٧٧.
- تفكيك: ١٥٦.
- تقنية: ١٤٨، ١٨٣، ٢٦٨، ٣٠٨.
- تكاملي معرفي: ٢٢٠.
- تكوين الفكر: ٩٨.
- تلاعب بالرأي: ٢٦٧، ٢٦٩.
- تلاعب ذكي: ٢٦٩.
- تلاعب واعى: ٢٦٩.
- تمايز عرقي: ١٥٧.
- تشومسكي، نعوم: ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٨٥.
- تطور دلالي: ٢٥٤.
- تطور عضوي: ١٨١، ٢٢٦.
- تطوير إداري: ١٤٨.
- تعبئة نفسية: ١٢.
- تعليم جامعي: ١١، ١١٣، ١٣٧.
- ١٤٥.
- تعليم مدرسي: ١١، ٩٨، ١١٣، ١٣٧.
- التفتازاني، سعد الدين: ٢٣٦.
- تفكير إبداعي: ٧٦، ١٧٤، ١٧٧.
- تفكير استراتيجي: ٧٦، ١٦٢.

- تمزق سياسي: ٥٨.
- تنافس فكري: ٩٤.
- ثنائية لغوية: ٢٠٤، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤١.
- تنشئة أسرية: ٩٨، ١٢٤.
- ثورة الزنج: ١٠١.
- تنظيمات: ١١، ١٠٨، ١١٤.
- ثورة مضادة: ٨٣.
- تنمية اقتصادية: ١٤٨.
- الثوري، سفيان: ١٤٠.
- تنمية بشرية: ١٢، ١٥، ٢٤١، ٢٩٣، ٢٩٧.
- ج
- الجاحظ: ٥٧، ٦٨، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤.
- توجهات أيديولوجية: ١٩١، ٢٦٥، ٣١١، ٢٨١.
- جامع الزيتونة (جامع): ١٤١.
- توحيد: ٢١، ٣٨، ٤١، ٤٣، ٦٨، ١٢٦، ١٣٤، ١٤٤، ١٦٠، ١٩١، ١٩٦، ٢٣١، ٢٢٤، ١٩٩.
- جامع القرويين (جامع): ١٤١.
- جامعة إسلامية: ٩٠.
- جامعة أمريكية: ٢٨٧، ٢٩١.
- جامعة أوروبية: ٩٠.
- ابن تيمية: ٢٨، ٤١، ٨٠، ١١٤، ٢١١.
- ابن جبل، معاذ: ٤٥، ٤٦، ٥٧.
- ث
- جدعان، فهمي: ١٠٨.
- ابن ثابت، زيد: ٥٧.
- جدلية الفكر: ٦٠، ٩٤.
- ثنائيات: ١٢، ٢٠٤، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤١.
- جذور برجوازية: ١٨٣.

- جذور علمانية: ١٨٣.
- ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٤.
- الجرجاني، عبد القاهر: ٢٠٩، ٢١٣، ٢٣٦.
- حركات إسلامية: ١٠٢.
- حركة إصلاح: ١٠٣.
- جرح وتعديل: ١٤٠، ١٧٤.
- حركة الأمة: ١٠٤، ١٠٥.
- ابن جريج: ١٤٠.
- حركة التمرد: ١٠١.
- جغرافية الفكر: ١٥٧، ١٨٤، ١٨٥.
- حركة العقل: ٩٩، ١١٨، ٣١٤.
- ١٨٦، ١٨٩، ٢٠٠.
- حركة الفكر: ٧٣، ٩٧، ٩٩، ١٠٣.
- ابن جَيّ: ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٨.
- ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧.
- جهاد فكري: ٦٠.
- ١١٨، ١٥٠.
- الجوزية، ابن قَيّم: ٢٨، ٢٩، ٣٣.
- حركة ثورية: ١٠١.
- ٢٥٦.
- حرية اعتقاد: ١٩٦، ١٩٧.
- جيوبوليتك: ١٨٩، ٣٠٦.
- حرية تعبير: ١٩٦، ١٩٧، ٣٠٢.
- حزب التحرير: ١١٠.
- حالات الشعور: ٦٤.
- حس حركي: ٢٢٢.
- حالة فكرية: ١٢، ١٧٧.
- حللي، عبد الرحمن: ٥٠.
- حتمية: ١٨٤، ١٨٥، ٢٢١، ٢٢٩.
- حماس ديني: ١٩٢.
- حرب: ٤٠، ٤٧، ١٨٩، ١٩٥، ٢٤٩.
- ابن حنبل، أحمد: ٢٦، ٢٩، ١١٤.
- ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩.
- ١٤٠.

- حوار العلم: ٨٧.
 دار العلوم: ٥٩.
 حوار الفكر: ٨٧.
 داعية: ٧٣، ٨٥، ٩٢، ٩٥، ١٢٩،
 ١٥٩، ٢٣٣، ٣١٥.

خ

- خالده، محمد خالد: ١٠٨.
 دائرة إسلامية: ١١، ٥٩.
 خدمة المجتمع: ١٤٤، ١٤٦.
 دراز، محمد عبد الله: ٦١.
 خرائط: ١١، ٨٧، ١٥٥، ١٥٦، ١٨٠،
 ١٨٤، ١٨٩، ١٩٩، ٣٠٧.
 دراسات تجريبية: ٦٥، ٦٧، ١٧٤،
 ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٤٠.
 دراسات سياسية: ٥٩، ٢٤٠.
 دراسات علمية: ٦٧، ٢٥٣.
 دوائر تقليدية: ١١.
 دورات تدريبية: ١٢، ١٩٩.
 الدؤلي، أبو الأسود: ٢٠٦.

ذ

- خزانات الأفكار: ٢٤٩.
 الخطر أحمر: ٢٩٤.
 الذكاء البشري: ١٨٨.
 الخليفي، أحمد بن يونس: ٢٧.
 الذوادي، محمود: ٢٤١، ٢٤٢.
 خوارج: ١٠١.
 خواطر النفس: ١٧٦، ٢٣٨.

ر

- الرازبي: ٢٣، ١٣٣، ١٤١.

د

- دار الحكمة: ١٤١.

- رأس المال البشري: ١٤٨،
 رؤىة تحليلية: ٣٠٤،
 رؤىة كونية: ١٩٢،
 رؤىة ماركسية: ١٩٣،
 ريسٲول، وليام: ٢٨٢،
 الريسوني، أحمد: ١٠٥، ١٠٦،
 ز
 الزرقاني، عبد الباقي بن يوسف: ٢٧،
 الزمخشري، أبو القاسم محمود بن
 عمر: ١٣٣،
 الزهراوي، أبو القاسم خلف بن عباس:
 ١٤١،
 س
 السريان: ٥٨،
 سعيد، إدوارد: ٩٢،
 سياسة خارجية: ١٨٩، ٢٦٩، ٢٧٣،
 ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٤،
 ابن سينا (الشيخ الرئيس): ١٤١،
 رؤىة المال البشري: ١٤٨،
 رؤىة المال الفكري: ١٢٤، ١٤٨،
 ١٥٠، ١٤٩،
 ابن راهويه، اسحق: ١٤٠،
 ربوبية: ١٩١،
 ردة: ١٩٧،
 الرسالة القشيرية: ٢٧،
 رسالة المسترشدين: ٣١،
 رضا، محمد رشيد: ٢٤، ١٠٢،
 رموز ثقافية: ٢٤٢،
 روح الفريق: ٢٦٠،
 رؤىة إبداعية: ١٤٢،
 رؤىة إسلامية: ٤٦، ١٠٢، ١١٣،
 ١٩٦،
 رؤىة العالم: ١٥، ١٦٥، ١٩٠، ١٩١،
 ١٩٢، ١٩٣، ٢٢٠، ٢٢١،
 ٢٢٥، ٢٢٩،
 رؤىة العالم المسيحية: ١٩٢، ١٩٣،

ش

صناعة الموافقة: ٢٨٥.

الصنعاني، محمد بن إسماعيل: ٢٨.

صهاريج الأفكار: ٢٤٩.

ط

طاقات الفكر: ٨١.

الطبري، محمد بن جرير: ١٣٣.

ع

عائلات الحكم: ٥٦.

ابن عاشور، محمد الطاهر: ٢٣، ٤٥،

١٩٤، ٢٥٤.

عبث فكري: ٢٣٣، ٢٤٥.

عبث لغوي: ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٥.

عبد الهادي، وليد: ٢٨٧، ٢٩١.

عبد، محمد: ١٠٢، ١٠٣.

العسقلاني، ابن حجر: ٢٧.

العسقلاني، القاضي الفاضل: ١٥،

٢١٨.

الشافعي، محمد بن إدريس: ١٤٠،

٢١٣.

شرعية: ٥٧، ٥٨، ٦٧، ١٠٣، ١١١،

١١٥، ١١٦، ١٢٦، ١٤٠،

١٤٧، ١٦٣، ١٦٥، ٢١٠.

شريعتي، علي: ٩٢.

شعلة روحية: ٨١.

الشورى: ١٧٥، ١٧٦، ٢٥٥، ٢٦٠.

الشوكاني، محمد بن علي: ٢٤.

ص

صحوة إسلامية: ١١.

صدام الحضارات: ١٨٧، ٢٩٤،

٢٩٥.

صراع الأفكار: ٩٤، ١١١، ١٣٨، ١٦٢.

صراع الحضارات: ٢٩٤.

صعود صناعي: ٥٨.

صعود علمي: ٥٨.

- عصر الخلافة: ٢٥٦. علوم الشريعة: ٤٦، ٦٠، ١٨٨، ٩٠، ١٥٨.
- عصر النهضة: ١٨٣. علوم الفقه: ١١، ٢١، ٢٧، ٢٨، ٤١، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٦، ٦٧، ١١٨، ١٣٠، ١٤٠، ١٥٨، ١٥٩، ١٧٤، ١٩٥، ٢١٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤.
- عصر جديد: ١٩٢، ٢٣٣. عصف فكري: ٣٠٨. العقلانية: ٥٥، ١١٢، ١٨٣. عقلية: ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٥، ٧٥، ٧٩، ١٠٦، ١١٣، ١٧٣، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٦، ٢٤٣.
- علم الأصول: ٥٧، ٥٩، ٨٩، ٩٠، ١١٢، ١١٨، ١٧٤، ٢١٣. علم النفس: ١٤، ٦٠، ٦٣، ٦٧، ٧٥، ٧٨، ٩٣، ١١١، ١٣٨، ١٦٣، ١٧٤، ١٨٨، ٢٠٣، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٥٩.
- علماء الحديث: ١٤٠. علم العلواني، طه جابر: ١٠٤، ١٠٥. علوم السنة: ٥٧. علوم السيرة: ٥٧، ١٤٠.
- علوم القرآن: ٥٧، ٥٩، ٦٥، ١٥٠. علوم اللغة: ٥٧، ٢١٩، ٢٢٨، ٢٣١. عمران: ٢١، ٢٢، ٣٨، ٤٣، ٤٦، ٥٨، ٦٨، ١٦١، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٦، ٢١٦، ٣٠٦. عمل مؤسسي: ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٧٨. عوامل بيئية: ٧٦، ٩٧، ١٨٨. عوامل نفسية: ٩٧. عولمة: ١٢، ١٠٧، ١٨٧، ٢٧١.
- غ
- غارديان، جريدة: ٢٦٧.

- الغزالي، أبو حامد: ٢٨، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٤٣، ٦٨، ١٣١، ٢١١.
- الغزالي، محمد: ١٠٨.
- غزو فكري: ١٧، ١٣٥، ١٣٨.
- غسيل الأدمغة: ١٣٥، ١٣٨، ٢٣٥.
- ف
- الفاروقي، إسماعيل: ٩٢، ١٠٨.
- فاعلية اجتماعية: ٢١٩.
- فاعلية لغوية: ٢١٩.
- فاعلية نفسية: ٢١٩.
- الفرس: ٥٨.
- فقر بحثي: ٢٨٨.
- فكر اقتصادي: ٥٧، ٨٧.
- فكر بشري: ٢١، ٦٨، ٧٨، ١٣٠، ١٣٨، ١٤٣، ١٦٣، ١٨٧، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٥٠.
- فكر تربوي: ٥٧.
- فكر جغرافي: ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٠.
- فكر حركي: ٧٣، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ٢٢٢.
- فكر حزبي: ٨٥، ١٠٦، ١١٥، ١٩٥.
- فكر سياسي: ٥٧، ٨٧، ١٨٢، ١٨٣، ٣٠٥.
- فكر عربي: ٢٧٥.
- فكر علمي: ١٤٣، ١٧٤، ١٩٢.
- فكر عملي: ٦٠.
- فكر غربي: ٥٥، ٥٦، ٥٩، ١٨٧، ٢٠٥.
- فكر كمي: ٩٤.
- فكر نخبة: ٩٤، ١١٧، ١٤٢، ١٦٠.
- فكر نفسي: ٥٧.
- فكر إسلامي: ٢١، ٣٢، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٦٠، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ١٠٤، ١١٣، ١١٢، ١٠٨، ١٠٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٤٠، ١٧٤، ١٩٥، ٢٥٥، ٣٠٤.
- فكر إصلاحي: ١٦٢.

- فكر نهضوي: ١٦٢.
- كلام البشر: ٢٣٥، ٢٣٧.
- الفوائد (ابن القيم): ٣٣، ٣٤.
- كلام الله I: ٢٣٥، ٢٣٧.
- فوضى فكرية: ٥٨، ٦٠، ١٣١.
- كلام نفسي: ٢٠٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨.

ق

- الكوفة: ٢٠٦.
- قدرة لغوية: ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦.
- كوهن، توماس: ١١٢.

ل

- القرطبي: ١٣٣.
- لسانيات بيولوجية: ٢٢٥.
- قضايا الاقتصاد: ١٦٢، ٢٥٠، ٢٦٧، ٣١٠.
- لغة بشرية: ٢٢، ٧٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٩.
- قضايا المرأة: ١٦٢.
- لغة شفاهية: ٢٣١.
- قطب، سيد: ٩٢، ١٢٨.
- لغة طبيعية: ٢٣٤.
- قيادة علمية: ١٣٨.
- لغة عامية: ٢٣٩، ٢٤٠، ١٤١، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١.
- لغة فصحي: ٢٣٩، ٢٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٥٠، ١٥١.

م

- كارناب (فيلسوف): ١١٢.
- الماوردي، أبو الحسن: ٥٧، ٦٨.
- كتابات فكرية: ١١، ٥٩.
- مجامع الفقه: ٢٥٨.

- مجتمعات معاصرة: ٢٤٩.
- مجلس استخبارات: ٣٠٧.
- المحاسبي، الحارث: ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٨، ٣٩، ٥٧، ٦٨.
- محمود، مصطفى: ١٠٨.
- مداخل: ١٣٨، ١٦٢، ١٦٣، ٢٤٥.
- مدرسة أصولية: ٥٨.
- مدرسة البصرة: ٢٠٦.
- مدرسة الكوفة: ٢٠٦.
- مدرسة تاريخية: ٥٨.
- مدرسة سلفية: ١٠٩، ١١٣، ١١٥، ١٨٣، ٢٣٧.
- مدرسة شيكاغو: ١١١.
- مدرسة عرفانية: ٥٨.
- مدرسة فرانكفورت: ١١١.
- مدرسة فينا: ١١٢.
- مدركات حسية: ٧٥.
- مدونات بشرية: ٢٠٥.
- مذهب: ٥٧، ٩٧، ١٠٦، ١١٤، ١١٥.
- ١٨٣، ٢٠٧.
- مذهبية: ٥٥، ١٦٠.
- مراكز بحث: ٢٥٣، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٤، ٣٠١، ٣٠٧.
- مراكز تدريب: ١٥، ١٣٨.
- مركز الأهرام: ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٨، ٣٠٦.
- مركز بحوث الخليج: ٢٧٥.
- المستوى السطحي: ٢٢٣.
- المستوى العميق: ٢٢٣، ٢٢٥.
- مستويات التفكير: ١٧٩.
- مستويات معرفية: ١٦٥.
- مسؤولية الإنسان: ٤٥، ١٩٣.

- مسؤولية فكرية: ٤٥.
- مشروع فكري: ١٠٨، ٩٢.
- مشكلة الأفكار: ٢٤٣، ٩٤.
- مضمون فكري: ١٨١، ٩٧.
- معاجم اللغة: ٢٢، ٢١.
- المعتزلة: ٢٣٧، ٢٠٨، ٢٩.
- المعهد العالمي للفكر الإسلامي:
١١٢، ١٠٤.
- معيار استعمال: ١٧.
- معيار قيمة: ١٧.
- معيار وضوح: ١٧.
- مفتاح دار السعادة: ٣٤، ٣٣، ٢٩.
- مفكر: ٥٩، ٥٦، ٥٣، ٢٢، ١١، ٦٠، ٦٨، ٦٩، ٧٣، ٨٦، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١٤٣، ١٤٤، ١٦٩، ١٦١، ١٦٠، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٦، ١٩٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٥٦، ٢٦٥، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٩.
- ٢٨١، ٢٨٥، ٢٨٩، ٣٠٤.
- ٣١٠، ٣١٤، ٣١٥.
- مقاييس اتجاهات: ١٧٢.
- ملة: ٥٧، ٢١.
- ملكات لسانية: ٢٠٣.
- ملكات لغوية: ٢٠٥، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٠.
- ملوثات: ١٨٤.
- المنار: ١٠٢، ٢٤.
- مناهج التعليم: ١٣٧، ١٧٢.
- منطق عقلي: ٧٦.
- مهارات التفكير: ١٧٤.
- مهارات لغوية: ٢٠٣، ٢٣٠.
- موروث جيني: ٢٢٤.
- مؤسسات اعتماد: ١٧٣.
- مؤسسات المجتمع: ١٢٥، ١٤٤، ٢٤٣، ٣٠٢.
- مؤسسات تقليدية: ١١.

مونتسكيو (فيلسوف فرنسي): ١٨٦.

نظام الأداء: ٢٢٤.

ميثاق دولي: ١٩٧.

نظام انتخابي: ٢٩٢.

ن

نابليون: ٥٨.

نظام معرفي: ١٦٧، ٢٢٤.

النازية: ١٨٩.

نظرية سايبير- وورف: ٢٢١، ٢٢٩.

نظرية سلوكية: ٢٢٠، ٢٢٩.

ابن نبي، مالك: ٨٠، ٨١، ٨٣، ١٠٨،

النعمان، الإمام أبو حنيفة: ٥٧، ١٤٠،

٢٥١.

٢٤٣.

النملة، علي بن إبراهيم: ٩٦.

النجار، زغلول: ١٠٨.

نمو لغوي: ٢٠٥، ٢٢٦، ٢٢٩.

نخب إعلامية: ١٢.

نهج البلاغة: ٨٩.

نخب اقتصادية: ١١٧.

نهوض حضاري: ١٢، ٥٠، ٨٠،

١٥٦، ١٩٩.

نخب دينية: ١٢.

نخب سياسية: ١٢، ٨٦، ١١٧.

ه

نخب فكرية: ١٢، ٢٨، ٩١، ٩٤،

الهتلرية: ١٨٩.

١١٧، ١٢٤، ١٤٢، ١٦٠،

٣١٤.

هرم المعرفة: ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦.

نزهة المشتاق (كتاب): ١٨٥.

هنتنجتون: ١٨٧.

نسبية لغوية: ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥،

الهند: ٥٨، ١٠٢، ١٤٢، ٢٧٣، ٢٧٥،

٢٢٦.

٢٧٦.

هوية: ١٢، ٩٢، ١٠٠، ١٢٤، ١٢٥،
١٢٨، ١٥٥، ١٦٠، ١٩٩،
٢٠٤، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٣،
٢٩٤، ٣٠٥.
ابن الهيثم، حسن: ٥٣.

وقف بيولوجي: ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٩.
وقف كارنيجي: ٢٦١، ٢٦٦، ٢٧٤،
٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨١، ٢٨٨،
٢٨٩، ٣٠٣، ٣٠٤.
وهايية: ١١٤.

و

ي

يسار جديد: ٢٦٩.

وثنية: ١٩١.

وحدة الوجود: ١٩١.

بسم الله

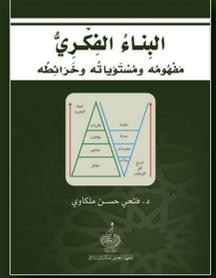
هذا الكتاب

الفكر، والتفكير، والتفكير، والتدبر، والتذكر... مفاهيم أساسية رافقت الوجود الإنساني، منذ بدء الخليقة، وسوف تبقى معه إلى نهايتها، دون أن تثبت مادتها وموضوعاتها ومستوياتها عند حد معين، في حياة الفرد البشري أو الجيل البشري. فكيف يمكن لكتاب أن يستقصى ذلك؟!

هذا الكتاب إذًا، مدخل إلى الفكر وحسب؛ مدخل في مفاهيمه ومستوياته وخرائطه... تضمن تجوالاً فكرياً: في موضوع الفكر؛ وفي مصادره في الأصول والتراث والخبرة المعاصرة، وموضوعاته، وأدواته، ونصيب أصناف أهله منه، والمؤسسات المتخصصة فيه، وعلاقته بالعلم جملة، وبالعلوم النفسية والتربوية والاجتماعية واللغوية والسياسية...

وهو كذلك مدخل إلى عملية البناء الفكري؛ كيف تبدأ، ثم تتواصل مرحلة بعد أخرى؟ وكيف تترقى من مستوى إلى آخر؟ وكيف تتنوع في المحتوى الذي تبنى؟

وهو قبل ذلك وبعده، أسئلة كثيرة، وإجابات قليلة؛ فقيمة التفكير في إثارة الأسئلة لا تقل عن التفكير في البحث عن إجاباتها، وبعض الإجابات عارضة مؤقتة، تتغير وتعمق مع مزيد من الفكر والتذكر، والتفكير والتذكر. قد يجد القارئ في الكتاب بعض مواطن المتعة والطرافة، لكنه سوف يجد كذلك مواطن كثيرة تضطره إلى التفكير والتدبر، فإذا نجح الكتاب في الأمرين، فذلك ما كان يهدف إليه!



فتحي حسن ملكاوي: تربوي وأستاذ جامعي أردني، دكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم من جامعة ولاية ميتشجان الأمريكية عام ١٩٨٤م، المدير الإقليمي في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رئيس تحرير مجلة إسلامية المعرفة، وعضو في مجمع اللغة العربية الأردني، من آخر إنتاجه العلمي: كتاب منهجية التكامل المعرفي؛ أساسيات المنهجية الإسلامية، وكتاب منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران.



المعهد البحثي للفكر الإسلامي

ISBN 9781565646292

